الدفاع الوطني اللبناني

LEBANESE NATIONAL DEFENCE

مجلة

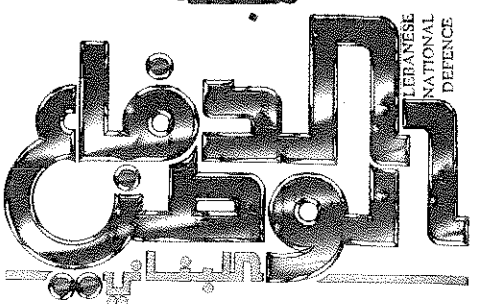

مجلة فصلية تصدر عن قيادة الجيش اللبناني ـ مديرية التوجيه

العدد الرابع ـ السنة الاولى ـ ١٩٩٠

«الدفاع الوطني اللبناني»... من جديد

كان من المتوقَّع أن لا تنتهي سنة ١٩٩٠ إلاَّ والعدد الرابع من «الدفاع الوطني اللبناني» في الأسواق وبين يد القرَّاء الذين اتَّصلوا بالمئات سائلين عن سبب تأخُّر صدور مجلَّتهم التي تعوَّدوا عليها منذ إصدارها ولمَّا تتعدَّى بعد ربيعها الأوَّل.

أما السَّبب فطبيعي جداً ومنطقي متى عرفنا أنَّ ما جرى قبل حلول العام الجديد وحالة القلق والإرباك التي سادت الوطن، إنَّما أثَّرا، وقبل كلِّ شيء، في الأقلام التي كانت تكتب للدفاع الوطني اللبناني، فتأخَّرت في تسليم المواضيع المرتقبة إلى المجلَّة ممَّا تسبَّب في تأخُّر إصدارها.

المهم انَّ العدد الرابع بين يديك، صديقي القارئ، عسكريّاً كنت أم مدنيّاً، والأهم انَّ مسيرة الفكر مستمرَّة، تتعثَّر لكنَّها لا تتوقَّف، تكبو لكنَّها سرعان ما تنتفض وتستأنف الرحلة من جديد.

التحرير

رئيس التحرير: غسان شديد

عنوان المجلة: قيادة الجيش اللبناني ـ مديرية التوجيه ـ اليرزة ـ لبنان ـ تلفون: ٤٠٠٠٠٥ ـ ٤٠٠٤٩٠ ـ ٤٠٠٤٢٠ ـ ٤٠٠٤٥٢ ـ (٠١)

السعر: ١٥٠٠ ليرة لبنانية ـ الاشتراك السنوي: للأفراد ١٠،٠٠٠ ليرة لبنانية ـ للمؤسسات ٢٠،٠٠٠ ليرة لبنانية في لبنان ـ ١٥٠ دولاراً اميركياً في الخارج بما فيه رسوم البريد.

● الإعلانات والاشتراكات: مجلة «الدفاع الوطني اللبناني». ● التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات ش.م.ل.

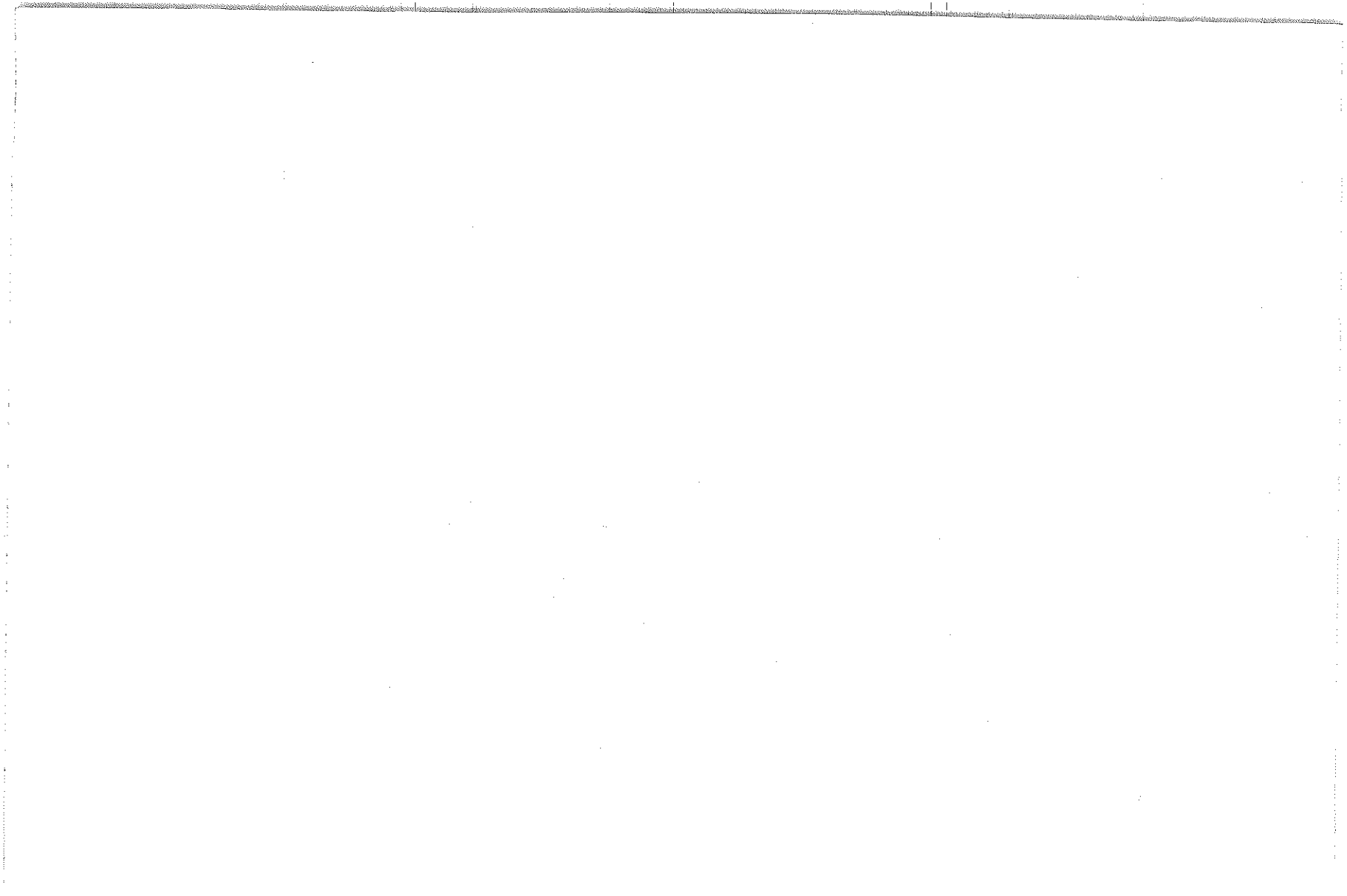

فهرست

العدد الرابع ـ السنة الاولى ـ ١٩٩٠

□ «**الدفاع الوطني اللبناني**»... من جديد	
□ **الدكتور بطرس لبكي**: الكلفة الاقتصادية للحروب في لبنان ١٩٧٥ ـ ١٩٩٠	٧
□ **جورج ابي صالح**: بؤر التوتر في المجتمع الاسرائيلي	٢٥
□ **العميد الركن أديب سعد**: ازمة الخليج: ظروفها الدولية، الخيارات المطروحة ونتائجها المرتقبة	٥١
□ **محمد عطوي**: الاسلحة البيولوجية: انواعها وسبل الوقاية منها	٧٧
□ **الدكتور عامر مشموشي**: الاعلام في خدمة السلام	١٠٣
□ **الدكتور طلال عتريسي**: التربية في عالم القوة والسيطرة	١١٥
□ **الدكتور محمد سعيد بسّام**: كتب التاريخ المدرسيّة بين التعددية والتوحيد	١٢٥
□ **الدكتور جورج هارون**: دور صحيفتي بونابرت «لوكوربيه دي ليجيبت» و«لاديكاد ايجيبسيين» في النهضة	١٤٥
□ **الدكتور ميشال نعمه**: مهمة مع «قوة حفظ السلام»	١٦٩
Dr. Elias Nassib Mattar: La Jeunesse Face Au Choix Scolaire Et Professionnel Perspective D'Orientation Pour Demain	٢٠٠
Dr. Nassif Nassar: Espaces Et Identites Collectives Au Liban	٢٢٤

ان المواضيع المنشورة تُعبّر عن رأي كتابها

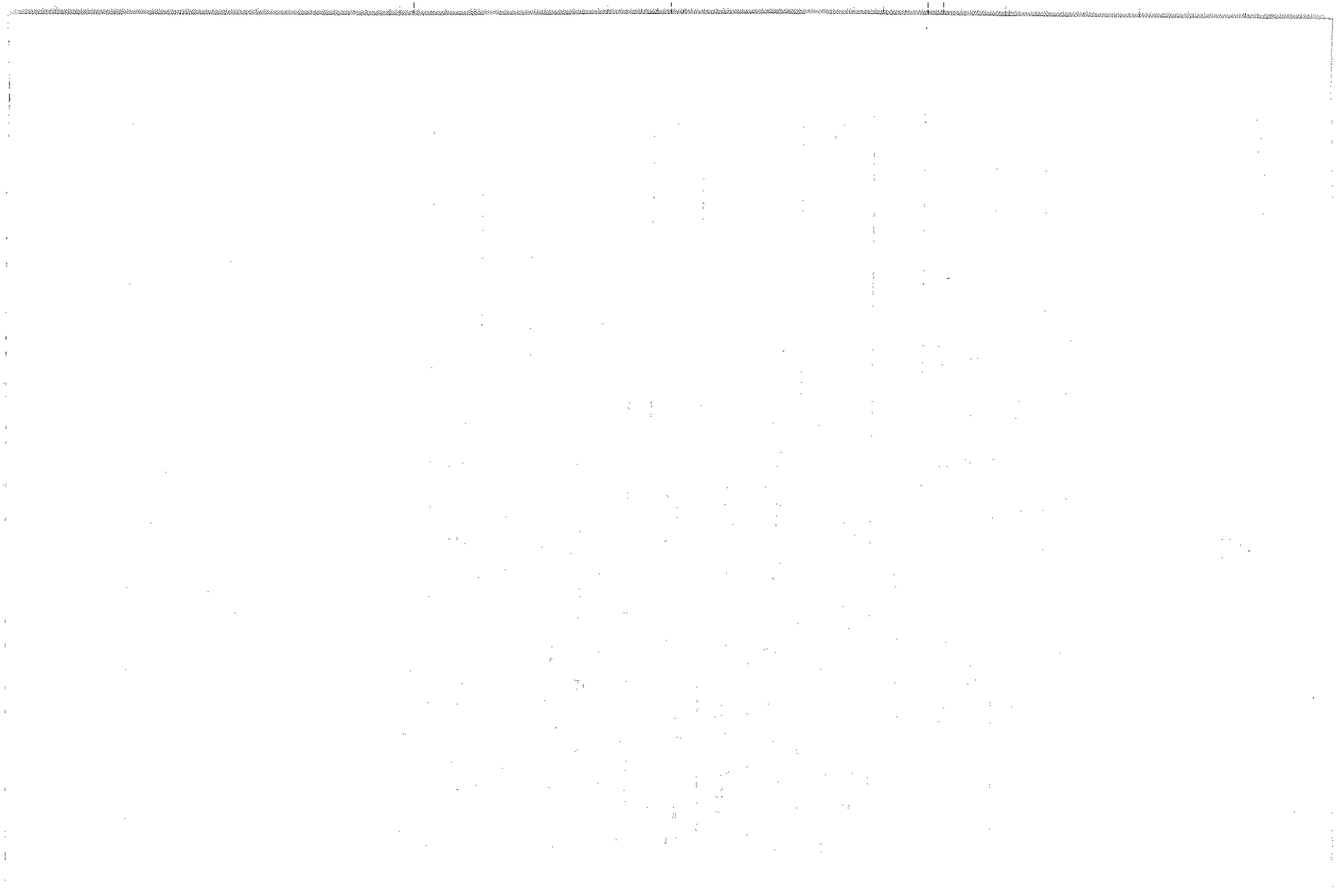

الكلفة الاقتصادية للحروب في لبنان ١٩٧٥ ـ ١٩٩٠

د. بطرس لبكي*

تواجه المرشح للغوص بموضوع كهذا سلسلة من المشكلات، أهمها اثنتان:

الأولى: التباس مفهوم الكلفة او الخسارة ونسبيته احياناً. فخسارة البعض تكون ربحاً للبعض اخر، أو ربحاً للكيان الوطني ككل. مثال على ذلك، انتقال النشاط الاقتصادي من وسط بيروت الى احيائها وضواحيها ومناطق اخرى: هل هو خسارة أم ربح؟ انه الاثنين معاً، على صعيد الأفراد وحتى على صعيد الوطن. ذلك لأن المركزية الاقتصادية المفرطة أخّرت المناطق الطرفية في لبنان. فانتقال بعض النشاطات الاقتصادية من المركز الى الاطراف ليس سيّئاً.

الثانية: محدودية المعلومات الرقمية المتوفرة في مختلف المجالات لقياس الكلفة، فقد قمنا بإجراء دراسة شاملة عن الخسائر التي سبّبتها للبنان ١٥ سنة من الحروب. وسأقدّم هنا بعض المعلومات الأوليّة التي توصلنا اليها[١].

سوف أعرض الجوانب الاقتصادية الأساسية لكلفة الحرب منطلقاً من الخسائر في

---

* دكتور في الاقتصاد استاذ في الجامعة اللبنانية

(١) بطرس لبكي وخليل ابو رجيلي: «لبنان: جردة حساب لـ ١٥ سنة من الحروب ١٩٧٥ ـ ١٩٩٠» منشورات المؤسسة اللبنانية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، بيروت، باريس (قيد النشر).

الطاقات الانتاجية، (الطاقة البشرية، ثم التجهيزات). وننتقل فيما بعد الى الخسائر على صعيد انتاج الثروات وتوزيعها واستعمالها، وما ينتج عنها من انعكاسات على صعيد الدولة، ومستوى المعيشة ودور لبنان الاقليمي والدولي.

١ ـ كلفة الحروب على صعيد الخسائر في الطاقة الانتاجية.

١ ـ ١ ـ الخسائر على صعيد الطاقة البشرية.

هذه الخسائر عديدة ومتنوعة تبدأ بالقتلى والجرحى والمعاقين، مروراً بالمهجرين فالمهاجرين فالعاطلين عن العمل، أضف الى ذلك ركود عدد السكان والنقص في القوى العاملة.

فقد خسر لبنان من جراء الحروب بين نيسان ١٩٧٥ ونيسان ١٩٩٠ حوالي ٩٤٠٠٠ قتيل و١١٥٠٠٠ جريح وحوالي ١٠٠٠٠ معاق جسدياً عدا ١٤٠٠٠ مخطوف[٢].

كما هُجّر حوالي ٩٠٠٠٠٠ لبناني (ثلث السكان) منذ ١٩٧٥، مما تسبَّب ولا يزال في خسارة مهمة في أدائهم الاقتصادي[٣].

ثم هناك الهجرة الخارجية التي شملت أيضاً حوالي ٩٠٠٠٠٠ شخص والتي تؤثّر تأثيراً حاسماً على النشاط الاقتصادي، وسنتناولها بشكل مفصّل فيما يلي.

١ ـ ١ ـ ١ ـ حركة الهجرة الخارجية

يقدر مجموع عدد الذين غادروا لبنان منذ مطلع الحروب بحوالي ٨٧٥٠٠٠ شخص، موزّعين حسب السنوات كما يلي:

الجدول رقم ١ : أعداد اللبنانيين الذي تركوا وطنهم منذ عام ١٩٧٥.

السنة	رصيد الهجرة	السنة	رصيد الهجرة
١٩٧٥	+ ٤٠٠,٠٠٠	١٩٨٣	+ ٣٣,٠٠٠
١٩٧٦	− ٢٩٧,٠٠٠	١٩٨٤	+ ٦١,٦٠٥

(٢) خليل أبو رجيلي: «الخسائر البشرية» في «لبنان: جردة حساب ...». مرجع مذكور ـ الفصل الأول.

(٣) خليل أبو رجيلي: «التهجير القسري» في «لبنان: جردة حساب ...» مرجع مذكور ـ الفصل الثاني.
Khalyl Abou Rjaily: «l'émigration forcée des populations à l'intérieur du Liban 1975 - 1986 in» Maghreb - Machrek No 125 - Paris - 1989 - p. 53 à 69.

١٩٧٧	+ ٣٨,٠٠٠	١٩٨٥	+ ٧٠,٢٠١
١٩٧٨	+ ٧٦,٠٠٠	١٩٨٦	+ ٧٣,٩٠٧
١٩٧٩	+ ٤٩,٠٠٠	١٩٨٧	+ ٦٧,٠٠٠
١٩٨٠	+ ٣٣,٠٠٠	١٩٨٨	+ ٦٧,٠٠٠
١٩٨١	+ ٣٣,٠٠٠	١٩٨٩	+ ٨٥,٠٠٠
١٩٨٢	+ ٣٣,٠٠٠	١٩٩٠	+ ٤٠,٠٠٠
		(٦ أشهر)	
المجموع		٨٧٥,٢٠٠	

المصادر: بطرس لبكي: «الهجرة الخارجية» في: «لبنان: جردة حساب...»، المرجع المذكور آنفاً، الفصل الثالث.

- Boutros Labaki: «Emigration during the war» - in "Lebanon emigration" - Thauris Ed. Oxford U.K. forthcoming.

أما بالنسبة لهجرة القوى العاملة من لبنان، فقد ارتفع رصيدها من ٩٨٠٠٠ عام ١٩٧٥ الى ٢١٠٧٠٠ عام ١٩٧٩ و٢٤٦٢٠٠ عام ١٩٨٢. ويشير الجدول رقم ٢ الى توزيع هذه الهجرة على مختلف بلدان المقصد.

الجدول رقم ٢: توزيع العمال اللبنانيين المهاجرين حسب بلدان المقصد

السنة	١٩٧٥		١٩٧٩		١٩٨٢	
بلد المقصد	(١٠٠٠) عامل	النسبة المئوية للبلد	(١٠٠٠) عامل	النسبة المئوية للبلد	(١٠٠٠) عامل	النسبة المئوية للبلد
البلدان العربية	٥١,١	٥٢,١	١٢٣,٨	٥٨,٨	١٤٨,٥	٥٦,٧
المملكة العربية السعودية	٢٠,٠	٢٠,٤	٧٣,٤	٣٤,٧	٨٢,٦	٣٣,٥

ليبيا	٥,٧	٥,٨	٨,٥	٤,١	٨	٣,٢
الامارات العربية المتحدة	٤,٥	٤,٦	٩,٧	٤,٦	١٢,٨	٥,١
الكويت	٧,٣	٧,٤	١٥,٨	٧,٥	٢٠,٦	٨,٣
قطر	١,٥	١,٥	٣,٣	١,٦	٤,٥	١,٨
البحرين	٠,٥	٠,٥	١,٠	٠,٥	٣,٢	١,٢
الاردن	٧,٥	٧,٧	٦,٩	٣,٢	٨,٨	٣,٥
سلطنة عمان	١,١	١,١	٢,٢	١,١	٣,٢	١,٢
العراق	٣,٠	٣,١	٣,٠	١,٥	٤,٨	١,٩
بلدان اخرى						
افريقيا الغرب	٩,٤	٩,٦	١٧,٣	٨,١	١٨,٢	٧,٣
اوروبا	١٨,٠	١٨,٤	٢٧,٠	١٢,٩	٣٠,٢	١٢,٢
اميركا الشمالية	٥,٠	٥,١	١١,٦	٥,٥	١٣,٧	٥,٥
اميركا الجنوبية	٨,٥	٨,٧	١٧,٠	٨,١	١٨,٢	٧,٣
اوستراليا	٦,٠	٦,١	١٤,٠	٦,٦	١٧,٤	٧
المجموع العام	**٩٨,٠**	**١٠٠,٠**	**٢١٠,٧**	**١٠٠,٠**	**٢٤٦,٢**	**١٠٠,٠**

المصدر: مكتب العمل الدولي.

وتشير المعلومات المتوفّرة الى تنّوع مهن هؤلاء المهاجرين ونشاطهم الاقتصادي[٤].

ـ هناك ١٨ شركة تأمين لبنانية أسّست ٦٤ فرعاً لها خارج لبنان.

(٤) Boutros Labaki: «Emigration during the war» - op. cit.

- هناك ٢٣ مصرفاً لبنانياً أسست ٦٢ فرعاً لهم خارج لبنان.
- من أصل ٦٠٠٠٠ شخص تركوا محافظة لبنان الشمالي بين ١٩٧٥ و١٩٧٨، كان هناك ٢٢٠٠٠ عامل متخصّص وحرفي و١٦٠٠٠ عامل عادي و٦٠٠٠ مهني و٨٠٠ طالب. وأشارت معطيات نُشرت في آخر عام ١٩٨٧ الى هجرة كثيفة للمدرّسين من هذه المحافظة الى كندا واستراليا والخليج.
- من أصل ٥٥٠٠٠ لبناني هاجروا الى اوروبا من ١٩٧٥ حتى ١٩٨٣، كان هناك ٢٣٠٠٠ تقني وحرفي و١٦٠٠٠ عامل عادي و٦٠٠ مهني.
- كان ٥٣٪ من المهندسين المتخرجين من الجامعة الاميركية في بيروت يعملون في لبنان عام ١٩٧١. إنخفضت هذه النسبة الى ٤١,٦٪ عام ١٩٨٢، بينما ارتفعت نسبة العاملين منهم في السعودية من ٦,٥٪ الى ١٠,٣٪ وفي الولايات المتحدة من ٤٪ الى ٨,٨٪. وفي باقي العالم من ٧٪ الى ٩٪.
- تشير مصادر نقابة الاطباء الى أن حوالي ٢٢٪ من أعضائها كانوا قد تركوا لبنان عام ١٩٨٧، وكان هناك ١٢٥٠ طبيب لبناني في فرنسا وحدها في صيف ١٩٩٠.

لا شك أن هجرة الكفاءات تسارعت في السنتين الاخيرتين نظراً لظروف لبنان خلال عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠، لكنّ المعلومات الدقيقة تنقصنا.

ويزداد التنوع في الموقع الاقتصادي الاجتماعي للمهاجرين اللبنانيين في العديد من بلدان المهجر.

- بينما كان الطلاب يشكّلون ٤٠٪ من اللبنانيين الذين دخلوا الولايات المتحدة قبل ١٩٧٠، فإنهم ما عادوا يكوّنون الاّ ١٠٪ من هذه النسبة عام ١٩٨٠. كذلك شكّل التجار والعمال المهر والموظّفون ٩٠٪ من طالبي الدخول الى الولايات المتحدة عام ١٩٨١.
- كان العاملون في التجارة يشكّلون ٦٩,٧٪ من الرجال و٥٣,٧٪ من النساء، من اصل اللبنانيين العاملين في استراليا عام ١٩٧١. ثم انخفضت هذه النسب الى ٥٥,٤٪ و٣٣,٣٪ عام ١٩٨١، مما يشير الى تنوّع نشاط وموقع اللبنانيين هناك.
- اما في كندا، فقد ازداد تنوّع مهن المهاجرين اللبنانيين ومستواهم الاقتصادي منذ ١٩٧٥. فنسبة الفئة الأدنى اجتماعياً (اللاجئين) ارتفعت قليلاً (من ٠,٩٨٪ الى ١,٠٢٪) بين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٦. وكذلك الأمر بالنسبة للفئة العليا (أصحاب المشاريع) التي ارتفعت من ١,٥٪ الى ٤٪ في الفترة نفسها.
- الأمر مشابه مع افريقيا حيث ارتفع عدد العمال اللبنانيين من ٩٤٠٠ عام ١٩٧٥ الى ١٨٢٠٠ عام ١٩٨٢، بينما كان يزيد نشاط شركات المقاولات اللبنانية في غرب افريقيا ووسطها وشرقها. ويمتدّ تنوّع نشاط اللبنانيين من التجارة الصغيرة والوسطى الى الصناعة والمصارف والتأمين والنقل والزراعة والمطاعم والفنادق والمحاماة والطب الخ...

بسبب الهجرة، خسر الوطن رأسمالاً بشرياً كلّف تكوينه عشرات من السنوات ومئات الملايين من الدولارات، كنفقات تربية، وتعليم، وتغذية وغيرها من أكلاف تكوين الانسان.

ومن نتائج الحرب أيضاً الركود في عدد السكان وانخفاض نسبة الذكور في السكان واليد العاملة، وهذا عائد اساساً الى الهجرة وارتفاع نسبة الذكور بين قتلى الحرب.

١ ـ ١ ـ ٢ ـ ركود حجم السكان

تشير المعطيات المتوفرة حول تطور عدد السكان في لبنان منذ ١٩٧٥ الى ما يلي:

الجدول رقم٣: تطور عدد سكان لبنان ١٩٧٥ ـ ١٩٨٧

السنة	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٨٧
عدد السكان (بالالاف)	٢٥٩١	٢١٨٠	٢٥١٣	٢٥٢٦	٢٤٦٨	٢٦١٥	٢٦١٥	٢٥٥٨	٢٥٠٥

المصدر:

- Boutros Labaki: «L'émigration externe» - in «Machrek-Maghreb» - No 125 - Paris - 1989 - p. 47.

١ ـ ١ ـ ٣ ـ انخفاض نسبة الذكور في السكان والقوى العاملة

انخفض عدد الذكور لكل ١٠٠ انثى من ١٠١,٢ رجل عام ١٩٧٠ الى ٩٣,٤٢ رجلاً عام ١٩٨٥. كما ازدادت نسبة النساء في القوى العاملة من ١٧,٥٪ عام ١٩٧٠ الى ٢٥,٦٪ عام ١٩٨٥ والى نحو ٣٣٪ حالياً(٥).

١ ـ ١ ـ ٤ ـ النقص في القوى العاملة.

نشرت المؤسسة الوطنية للاستخدام تقديرات لتطور حجم العمالة وتوزيعها القطاعي بين ١٩٧٥ و١٩٨٥ نعرضها في الجدول التالي:

(٥) ـ اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا، شعبة السكان، بيروت ـ بغداد.
ـ وزارة التصميم العام، مديرية الاحصاء المركزي، «القوى العاملة في لبنان»، بيروت، ١٩٧٢، الجزء الأول ص ١٣.
ـ تحقيقات ميدانية للمؤسسة اللبنانية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية في عدة مناطق، بين ١٩٨٥ و١٩٩٠.

الجدول رقم ٤: تطور القوى حسب القطاعات ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥.

القطاع	الحجم عام ١٩٧٥	التطور بالنسب المئوية	الحجم عام ١٩٨٥
الزراعة والانتاج الحيواني	١٤٧٧٢٤	٪ ٣٠ –	١٠٣٤٠٠
الصناعة التحويلية والاستخراجية	١٣٩٤٧١	٪ ٦٨ –	٤٥٠٠٠
الطاقة والمياه	٦٣٨١	٪ ٥٦ +	١٠٠٠٠
البناء	٤٧٣٥٦	٪ ٤٧ –	٢٥٠٠٠
النقل والمواصلات والتخزين	٤٥٥٢٩	٪ ٥٥ –	٢٠٥٠٠
التجارة والفنادق والمطاعم	١٢٩٧١٦	٪ ٤٠ –	٧٨٠٠٠
باقي الخدمات (بما فيها الاسكان والادارة)	٢٢٧٩٢١	٪ ٢٥ –	١٧١٠٠٠
المجموع	٧٤٤٠٩٨	٪ ٣٩ –	**٤٥٢٩٠٠**

المصدر:
- Jean Mourad: «L'emploi et ses problèmes» - in «Le Commerce du Levant - Liban: Spécial Economie» - 1985/1986 - Beyrouth - 1986 - p. 37.

تشير هذه المعطيات الى انخفاض حجم القوى العاملة في لبنان بنسبة ٣٩٪ في السنوات العشر الأولى من الحرب.

١ ـ ١ ـ ٥ ـ البطالة

انعكست الأزمة على هذا الصعيد منذ بداية الحروب في لبنان وبخاصة في بعض القطاعات. فقد تضاءل عدد العاملين في القطاع الصناعي من ١٤٩٠٠٠ عام ١٩٧٥ الى ٤٥٠٠٠ عام ١٩٨٥ حسب تقديرات صندوق النقد الدولي. كما تضاءل عدد العاملين في القطاع السياحي من ١٨٠٠٠ عام ١٩٧٥ الى ٨٠٠٠ عام ١٩٨٥. وكذلك تضاءل عدد العاملين في قطاع البناء من ٣٥٠٠٠ عام ١٩٧٥ الى ٢٢٠٠٠ عام ١٩٨٥، حسب المصدر نفسه.

وتقدّر المؤسسة الوطنية للاستخدام تطور القوى العاملة في لبنان بالشكل التالي: عام

١٩٧٥، كان عددهم ٧٤٤٠٩٨ شخصاً فتدنّى عام ١٩٨٥ الى ٤٥٢٩٠٠ شخص، وقد انعكس ذلك بطالة لدى الفئات التالية بوجه خاص:

- القوى العاملة غير الماهرة.
- عمال الصناعة والفنادق والمطاعم.
- الناشئين الباحثين عن فرصة عمل أولى.

هكذا ارتفعت نسبة العاطلين عن العمل في القوى العاملة من ٥,٤٪ عام ١٩٧٠ الى ٢١٪ عام ١٩٨٥ فالى حوالي ٣٠٪ عام ١٩٨٩. وانخفضت نسبة السكان العاملين من مجمل السكان من ٢٧٪ عام ١٩٧٠ الى ١٤٪ عام ١٩٨٥[٦].

١ ـ ٢ ـ الخسائر على صعيد الرأسمال والتجهيزات

لقد جرت عدة محاولات منذ عام ١٩٧٥ لتقدير الخسائر اللاحقة بالتجهيزات العامة والخاصة الرأسمال الانتاجي بشكل عام. أول هذه المحاولات تمّت بعد حرب السنتين (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦)، وصدرت نتائجها عن وزارة التصميم في آخر ١٩٧٦. ونعرضها في الجدول التالي:

الجدول رقم ٥: تقدير الخسائر بالرأسمال والبضائع (بملايين الليرات) في حرب السنتين ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦.

خسائر القطاع العام		**١٣٣٥**
مباني وتجهيزات الادارة	٥٢٥	
المصالح المستقلة	١٠٨	
المرافىء المطارات والكهرباء	٧٠٢	
خسائر القطاع الخاص		**٤١٧٥**
الزراعة	٣٠٠	
الصناعة	١٥٠٠	
التجارة	١٠٠٠	
السياحة (فنادق، مطاعم، مسابح، الخ.)	١٨٠	

(٦) - Jean Mourad - art. cit.
ـ غرفة التجارة والصناعة في بيروت، التقريران الاقتصاديان الأول والثاني لعام ١٩٩٠، بيروت.
- United Nations: Second interagency mission to reassess emergency relief needs in Lebanon - NY - January 1989

	المساكن	١٠٠٠
	غير ذلك	١٩٥
	الخسائر بالبضائع	٢٠٠٠
	مجموع الخسائر	٧٥١٠

المصدر: وزارة التصميم العام.

وقُدِّرت هذه الخسائر بحوالي ٢,٥ مليار دولار على أساس الدولار بسعر ثلاث ليرات لبنانية، أنذاك.

كما أعدّ الاتحاد العمالي العام، سنة ١٩٨٣، دراسة عن الخسائر التي وقعت منذ عام ١٩٧٥، على صعيد الرأسمال الثابت والمتحرّك وممتلكات المواطنين. نلخّص نتائج هذه الدراسة بالجدول التالي:

الجدول رقم ٦: تقدير الخسائر بالرأسمال والبضائع وممتلكات المواطنين بين ١٩٧٥ و١٩٨٣.

القطاع	الخسائر بملايين الليرات اللبنانية (١٩٨٣)	وصف الخسائر
السكن	٣٦٠٠	١١٢٠٠ مسكن
السياحة	١٢٠٠	٦٥ فندقاً في بيروت والجبل (٤٠ في حرب السنتين و٢٥ عام ١٩٨٢)
التجارة والخدمات	٩٣٠٠	١٣٤٠٠ محل تجاري ومكتب والتجهيزات العامة في المناطق التجارية.
الصناعة	١٥٠٠	٣٠٠ مؤسسة مدمَّرة أو متضرِّرة
التجهيزات العامة	٤٠٠٠	الطرق، المرافىء، المطارات، شبكات الهاتف والكهرباء والمياه، المدارس والمستشفيات
الخسائر بالرأسمال	٢٠٠٠	مواد أولية، سلع مصنّعة، وسلع اخرى من

التشغيلي	وممتلكات	ممتلكات المؤسسات، وسلع موجودة في المساكن الخاصة، وسيارات
المواطنين		
المجموع	٢٢٦٠٠	

المصدر: الاتحاد العمالي العام: «تقديرات اولية واجمالية لخسائر الحرب الاقتصادية منذ ١٩٧٥ وحتى الآن»، تشرين الأول ١٩٨٣، بيروت.

ثم نُشر عام ١٩٨٦ تقديران غير مباشرين للخسائر بالرأسمال يغطّيان الخسائر حتى عام ١٩٨٦. هذان التقديران اجماليان وليسا مفصّلين قطاعياً. وهما يعرضان طريقتين لقياس الخسائر بالرأسمال.

- الأولى تقيس الفرق في مخزون الرأسمال بين عام ١٩٧٤ ونيسان ١٩٨٦. ويقدَّر هذا الفرق بـ ٨٧ مليار ليرة لبنانية بالأسعار الجارية أي بما يعادل ٣,٩ مليار دولار اميركي.
- اما الثانية فهي تنطلق من قياس الفرق بين المخزون المفترض للرأسمال،«لو لم تقع الحرب ولو احتفظ الاقتصاد اللبناني بمعدلات النمو ذاتها وبمعامل ثابت للرأسمال، والمخزون المقدَّر في نيسان ١٩٨٦. وعلى هذا الأساس، قُدِّرت الخسارة بـ ٢٤٥ مليار ليرة لبنانية بالأسعار الجارية أي بما يعادل ١١ مليار دولار[٧].

لم يُجرَ أي تقدير للخسائر التي وقعت بالرأسمال والتجهيزات بسبب القتال في بيروت الغربية عام ١٩٨٧.

وقد أجرينا من جهتنا تقديراً للخسائر التي وقعت للرأسمال والتجهيزات وممتلكات المواطنين بسبب الأعمال الحربية التي وقعت في لبنان خلال ١٩٨٩ وحتى منتصف ١٩٩٠. نعرض هذه التقديرات في الجدول التالي:

الجدول رقم ٧: تقدير الخسائر بالرأسمال والبضائع وممتلكات المواطنين في ١٩٨٩ والنصف الأول من عام ١٩٩٠.

القطاع	الخسائر بملايين الدولارات	وصف الخسائر
السكن	١٦	٢٢٠٠٠ مسكن متضرّر ٥٠٠٠ مسكن مدمّر بشكل كامل

(٧) ناصر السعيدي: «النتائج الاقتصادية للحرب في لبنان»، من النشرة الفصلية لمصرف لبنان، العدد ٢٨ ـ ٣٠، الفصل الثالث، ١٩٨٦، بيروت ص ٨.

التجارة والخدمات	٢٠	حوالي الف مكتب ومتجر متضرّر ١٦ مصرف متضرّر ٢٤٠ كاراج مدمّر محطات للوقود، وكالات سيارات ووكالات سفر
الصناعة	٥٠	٦٢٠ مصنع مدمّر ١٥٠ مصنع متضرّر
التجهيزات العامة	٢٥	الطرق، المرافىء، المطارات
	١٠٠	شبكة الهاتف
	٠,٩	شبكة المياه
	١٠٠	الشبكة الكهربائية
	٤٠	المدارس والمستشفيات
الرأسمال المتحرك وممتكلات المواطنين	١٥٠	مواد أولية وسلع خالصة التصنيع
	٣٠	سلع اخرى ملك المؤسسات، محتويات المنازل الخاصة والسيارات
المجموع	٥٣١	

المصدر: بطرس لبكي: «جردة حساب اقتصادية لحروب لبنان» في «لبنان: جردة حساب ١٥ سنة في الحروب ـ ١٩٧٥ ـ ١٩٩٠»، منشورات المؤسسات اللبنانية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية باريس ـ بيروت، (قيد النشر).

٢ ـ الخسائر على صعيد الانتاج

٢ ـ ١ ـ تراجع الانتاج على صعيد الاقتصاد الوطني ككل

تشير أحدث تقديرات الناتج المحلي القائم، الذي يقيس ما ينتجه المقيمون في لبنان من سلع وخدمات، الى أن هذا الناتج قد تدنّى عام ١٩٨٦ الى ٤٧٪ من المستوى الذي كان عليه عام ١٩٧٤. وقد تسارعت عملية انخفاض هذا الناتج في السنوات الأربعة الأخيرة، وتفاقمت مؤشرات الركود والانكماش الاقتصاديين في العامين الأخيرين بشكل استثنائي. إذ تراجع الناتج المحلي القائم عام ١٩٨٩ بنسبة تتراوح ما بين ١٥٪ و٢٠٪ عن

المستوى الذي بلغه عام ١٩٨٨[٨].

أضف الى ذلك أن الدخل الفائت من خلال تراجع الانتاج قد قُدّر في نهاية عام ١٩٨٦ بـ ٧٥ مليار ليرة لبنانية (بأسعار ١٩٧٤) أي بـ ٣١ مليار دولار اميركي (باعتبار أن متوسط سعر الدولار عام ١٩٧٤ كان ٢,٣٣ ليرة لبنانية)[٩]. وسنعرض فيما يلي بعض المعطيات عن تراجع الانتاج في بعض القطاعات.

٢ ـ ٢ ـ في القطاع الصناعي:

تراجعت التثميرات الصناعية، وأفضل مؤشر على ذلك هو تدنّي قيمة التجهيزات الصناعية المستوردة من ٨٦ مليون دولار عام ١٩٨٢ الى ٩ ملايين عام ١٩٨٦، حسب احصاءات وزارة الصناعة. وخطورة هذا التراجع تزداد بسبب ما أصاب هذا القطاع من تدمير في تجهيزاته وتقادم. ذلك ان الصناعيين ما زالوا متردّدين في تجديد منشآتهم وتوسيعها بفعل تخوّفهم من المستقبل الأمني والسياسي، وأزمة أسواق الخليج منذ عشر سنوات، وتراجع السوق الداخلية مع الافقار المتزايد، والنقص في التسليف الصناعي الذي تدنّى من ١٦٪ الى ٨٪ من مجمل التسليف بين ١٩٨٣ و١٩٨٨، وذلك بسبب تلاعب سعر صرف العملات وارتفاع معدلات الفائدة، وتشرذم السوق الداخلية وهجرة اليد العاملة الكفوءة.

وتقدّر غرفة الصناعة والتجارة في بيروت أن الصادرات الصناعية تراجعت بنسبة ٥٨٪ في الأشهر السبعة الأولى من عام ١٩٩٠، وأن الانتاج الصناعي تراجع بنسبة تتراوح بين ٣٠٪ و٤٠٪ في الأشهر الثمانية الاولى للعام ١٩٩٠. وينتج عن ذلك ضعف استعمال الطاقة الانتاجية لهذا القطاع بنسبة ٥٠٪ تقريباً.

٢ ـ ٣ ـ في قطاع البناء

تراجع الانتاج اذ تمنّع القطاع العام عن طرح مشاريع جديدة، من جهة، بسبب الوضع المالي والسياسي للدولة، واقتصار غالبية نشاط القطاع الخاص على اتمام المشاريع قيد التنفيذ من جهة ثانية، وذلك نظراً لارتفاع اسعار مواد البناء المستوردة وزيادة الفوائد على التسليف للبناء وشراء المساكن.

٢ ـ ٤ ـ في القطاع الزراعي

تقلّصت المساحات المزروعة بنسبة ٥٠٪ بين ١٩٧٤ و١٩٨٩. وتراجع الانتاج

---

(٨) مصرف لبنان، التقرير السنوي العام ١٩٨٩، بيروت ١٩٩٠، ص ٥٣.

(٩) عبدالله عطية: «التقرير الاقتصادي السنوي لغرفة تجارة وصناعة بيروت»، ١٩٨٥.

- ECE News Letter (several issues)

بالأسعار الثابتة، بسبب ندرة التسليفات، وارتفاع القيمة التأجيرية للأرض، وصعوبات التسويق الداخلي والخارجي، وموجات التهجير المتجدّدة منذ ١٩٨٣ والتي طالت مناطق ريفية. كذلك تراجع حجم الطاقة الانتاجية في مجال الإنتاج الحيواني (٤٥٪ للأبقار و٧٣٪ للماعز و٨٢٪ للغنم). كما تراجع الانتاج النباتي، فلم يعد يعادل مستواه في أواخر عام ١٩٨٧ إلا ٥٤٪ من مستواه لآخر ١٩٧٣ و٣٩٪ اذا استثنينا زراعة المخدّرات(١٠).

٢ ـ ٥ ـ في قطاع التجارة

هناك تراجع في الحركة بسبب تدنّي مداخيل المواطنين الفعلية. ويظهر ذلك من خلال تدنّي استيراد السلع بنسبة ٥٠٪ بين ١٩٨٣ و١٩٨٩.

٢ ـ ٦ ـ في القطاع السياحي

سُجِّل شلل واسع في النشاطات بسبب فقدان الأمن والاستقرار وتدمير قسم كبير من التجهيزات السياحية (فنادق، مطاعم، ملاهي...).

٢ ـ ٧ ـ التضخم وتدنّي القيمة الشرائية لليرة

تطورت معادلات التضخم وسعر صرف الليرة كما يلي:

الجدول رقم ٨: تطور نسبة التضخم وسعر صرف الليرة اللبنانية

السنة	١٩٨٠	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٨٧	١٩٨٨	١٩٨٩	١٩٩٠ (حتى آخر آب)
مؤشر اسعار الاستهلاك	٧٪	١٥٪	١٥٪	٥٤٪	١٥٠٪	٨٠٪	٤٨٧٪	٩٥٪	١٥٥٪
سعر صرف الليرة اللبنانية بالنسبة للدولار	٣,٤٤	٤,٥٢	٦,٥١	١٦,٤٢	٣٦,٣٧	١٢٢٤,٧٤	٤١٠,٠١	٤٩٥,٦٦	٧٧١,٣٩

المصدر: ـ مصرف لبنان: «التقرير السنوي لعام ١٩٨٩»، بيروت.

(١٠) - Riad Saadé: «Production agricole libanaise en 1989 - 37ème rapport annuel» - in «Le Commerce du Levant - 15/7/90 p. 17 - 18.

- Ministère du plan - Direction Centrale de la Statistique - Receuil de Statistiques Libanaises - No 9 - 1973 - p. 112-113.

ـ غرفة تجارة وصناعة بيروت: «التقريران الاقتصاديان للفصل الأول والثاني لعام ١٩٩٠»، بيروت.

وهذا التسارع في ارتفاع الأسعار ناتج عن تضخم الكتلة النقدية، بدون زيادة انتاج، وعن تدنّي أسعار صرف الليرة اللبنانية مما يسبّب تدنيّاً في القيمة الشرائية لليرة اللبنانية.

ـ ٣ ـ العجز في المالية العامة.

إن هذا العجز ناتج عن زيادة نفقات الدولة الادارية، ودعمها لبعض السلع وللطاقة، وطغيان الطابع غير الانتاجي لنفقاتها ونضوب مواردها، مما يزيد من حجم الدين العام الذي يموَّل من خلال الاستدانة من المصارف التجارية ومن مصرف لبنان. يترتّب على الشكل الثاني من التمويل اصدار نقدي من قبل مصرف لبنان. وهذا الاصدار هو سبب اساسي من أسباب التضخم. أضف الى ذلك أن اصدار سندات الخزينة وبيعها للمصارف التجارية يقلّص تدريجياً طاقات هذه المصارف على تمويل النشاط الاقتصادي مما يساهم في الركود والأزمة الاقتصادية.

واذا كانت نسبة العجز في موازنة عام ١٩٨٩ تقارب ٩١٪ من مجموع ارقام الموازنة، فمن المتوقع ان يتجاوز العجز عام ١٩٩٠ تلك النسبة اذا استمرت عوامل استنزاف موارد الدولة.

وتبعاً لذلك، فقد استمرّ التصاعد المتعاظم للمديونية العامة الداخلية للدولة. وبلغت هذه المديونية في آخر ١٩٨٩ مبلغ ٩٨٢١٣٧ مليار ليرة. كما ترتّب هذه المديونية فوائد على الخزينة توازي ٢٥٠٪ من مداخيلها.

ـ ٤ ـ العجز في ميزان المدفوعات وتراجع الاحتياطي بالعملات الأجنبية لدى مصرف لبنان.

مال ميزان المدفوعات الى العجز ابتداء من عام ١٩٨٢، وبلغ ٥١٢١ مليون ليرة لبنانية عام ١٩٨٣ و١٢٠٢٨ مليوناً عام ١٩٨٤. ثم سجّل هذا الميزان فائضاً بقيمة ٦٩٨٧ مليون ل.ل. عام ١٩٨٥ ليعود الى العجز عام ١٩٨٦ (٢٢٥٢٧ مليون ل.ل.) ثم الى فائض طفيف عامي ١٩٨٧ و١٩٨٨ (٢٦ و٦١٠ مليون ل.ل.) قبل أن يعاود العجز عامي ١٩٨٩ (٣٠٩ مليون ل.ل.) و١٩٩٠ (٣٩٠ مليون ل.ل. حتى تموز)[١١]. وهذا العجز يستنزف احتياطي مصرف لبنان من العملات الأجنبية ويحدّ من امكانياته للتدخل في سوق القطع ولتأمين احتياجات القطاع العام من العملات الأجنبية، خصوصاً في مجالات استيراد

(١١) ـ مصرف لبنان ـ النشرة الفصلية والتقارير السنوية وغرفة تجارة وصناعة بيروت.

القمح والمحروقات، مما يسبّب ازمات تموينية شبه دورية في هذين المجالين.

ـ ٥ ـ انخفاض دخل الفرد.

يظهر انعكاس كل ذلك من خلال انفخاض متوسط دخل الفرد من ٢٩١٧ دولاراً اميركياً عام ١٩٨٢ الى حوالي ٥٠٠ دولار اميركي في أواخر ١٩٨٩ أي بما يوازي ١٧٪ من مستواه قبل سبع سنوات.

ـ ٦ ـ تدنّي الأجور الفعلية.

بالاضافة الى البطالة التي تخفّض من مداخيل الأُجَراء، فإن الأجور الفعلية للعاملين قد انخفضت، لأن نسب تصحيح الأجور جاءت دائماً بمستويات أدنى من نسب ارتفاع الأسعار. فتدنّت حصة الأجور من كلفة الانتاج ومن القيمة المضافة. إذ تدنى الحد الأدنى للأجور في لبنان مُقاساً بالدولار من ١٨٥ دولاراً شهرياً، عام ١٩٧٥، الى ٥٨ دولاراً في آب ١٩٩٠. وتعكس هذه الأرقام التدني السريع لأجور الأُجراء الفعلية(١٢).

ـ ٧ ـ تدنّي مستوى التقديمات الاجتماعية

تقلّص دور الدولة (وزارة الصحة) في التقديمات الطبية المباشرة وغير المباشرة (صندوق الضمان وتعاونية الموظفين)، رغم ارتفاع كلفة التقديمات الطبية، وذلك بسبب ضعف القطاع الاستشفائي العام وشلله. كما تراجعت التقديمات التربوية فعلياً بسبب ضعف الهيئة التعليمية والتجهيزات في القطاع العام. وهذا الضعف عائد الى عمليات التهجير، وتدمير المدارس الرسمية والسطو عليها، أو إسكان المهجّرين والقوى المسلحة فيها، وصعوبة تنقّل الهيئة التعليمية من منطقة الى منطقة. ثم ان ارتفاع الاقساط في المدارس الخاصة وارتفاع أسعار الكتب لا يتركان إلاّ فئة ضئيلة من اللبنانيين غير متضرّرة تعليمياً.

ـ ٨ ـ تفشّي النشاطات الهامشية.

رغم غياب المعطيات الرقمية، فلا بدّ وأن نلاحظ بالعين المجرّدة تفشي هذه النشاطات في ما يسمّى بالاقتصاد الموازي، وذلك في التجارة المتجوّلة والعمل في البيت والعديد من النشاطات غير القانونية أو غير المنظّمة تنظيماً حديثاً.

ـ ٩ ـ تدنّي مستويات المعيشة بشكل عام.

انعكس هذا التدني على كل الأصعدة:

ـ الغذاء: حيث لم يعد بمقدور العديد من العائلات أن تشتري كثيراً من المواد: وتدنّت

---

(١٢) ـ مصرف لبنان ـ التقرير السنوي لعام ١٩٨٩.

ـ غرفة تجارة وصناعة بيروت، التقريران الفصليان الأول والثاني لعام ١٩٩٠.

نوعية الغذاء اجمالاً.

- السكن: حيث الأزمة السكنية تضرب أطنابها بينما لا تزال عشرات الآلاف من المساكن فارغة، بسبب قانون الإيجارات وصعوبة التسليف الإسكاني.
- التعليم: تراجع مستواه ولم يعد متوفراً لعدد متزايد من اللبنانيين بسبب عدم وجود تجهيزات كافية أو بسبب تقهقر أوضاع الأهل الاقتصادية وحاجتهم إلى عمل الأولاد.
- التطبيب: تدنّت الخدمات الطبية بسبب غلاء الأدوية والفحوص المختبرية والهجرة الواسعة للكفاءات الطبية، والضائقة الاقتصادية وضعف التقديمات العامة.
- النقل: أبرز مظاهره السلبية ضعف النقل العام وخراب وسط بيروت والحواجز الموجودة بين المناطق.

- ١٠ - تدنّي مستوى الخدمات العامة.

لقد انعكست الأزمة الاقتصادية على مستوى أداء الخدمات العامة. فالكهرباء تنقطع وتُقنَّن بسبب الأحوال الأمنية، وعدم دفع الفواتير من قبل العديد من المشتركين، وسرقة التيار من قبل عدد آخر، وغياب موظفين عن عملهم، وبيع الطاقة الكهربائية بعشر كلفتها في حال دفع الرسم الكامل للطاقة المستعملة. وتعاني مؤسسات توزيع المياه من مشكلات شبيهة، كضعف الشبكات، والسرقات، وضعف في الكميات الموزَّعة بالمقارنة مع الكميات المتعاقد عليها مع المشتركين، وتلوّث المياه...

بالنسبة لتجهيزات الصحة العامة فإن المستشفيات الحكومية لا تعمل بكامل طاقتها بسبب غياب الأطباء والممرّضين والأدوية وخراب التجهيزات أو عدم صيانتها. والوضع شبيه فيما يختصّ بالمستوصفات.

وعلى صعيد النقل المشترك، فانه ضعيف بسبب انقطاع الاتصال بين المناطق لأسباب امنية، وتحويل قسم من الباصات الى متاريس وتوقف خط الحديد الساحلي والداخلي.

على صعيد المواصلات السلكية واللاسلكية، هناك نقص في التجهيز وفي الصيانة بخاصة، وضعف في الخدمات والتصليح، وتفشّي سرقة المخابرات، مما يحوّل هذا المورد الأساسي للخزينة الى عبء مالي.

- ١١ - خسارة دور لبنان الاقتصادي والثقافي والتربوي والعلمي الاقليمي والدولي

١١ - ١ - الدور الاقتصادي

- هجرة مصارف وطنية وأجنبية.
- هجرة شركات التأمين.
- هجرة شركات الملاحة البحرية والجوية.

- اختفاء السياحة.
- اختفاء الترانزيت.

١١ - ٢ - الدور الثقافي

- توقف مهرجانات بعلبك.
- توقف صحف ومجلات كانت تصدر في بيروت.
- تراجع دور بيروت في المجال الفني.

١١ - ٣ - الدور التربوي

- تراجع دور الجامعة الاميركية الاقليمي.
- تراجع دور جامعة القديس يوسف.
- تراجع دور بعض الثانويات الخاصة.
- تدنّي مستوى التعليم بشكل عام.

- ١٢ - عدم مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي العالمي والتأخّر، بسبب قدم التجهيزات وعدم تمكّن الباحثين من متابعة الكتب والمجلات.

* * *

مؤسسة ميشال نجيم

ETS. MICHEL NOUJAIM

C.R. 962 BEIRUT

س.ت. ٩٦٢ بيروت

صناعة أوعية وقوارير بلاستيكية من حجم
ربع ليتر وحتى ٨ ليتر

Plastic Containers Factory
bottles and gallons from 250cc up to 8 liters

مصنع السدادات المعدنية طباعة على التنك

CROWN CORK FACTORY — TINPRINTING

تجارة الفلين على أنواعه ـ آلات ومواد للتعبئة والتكرير

MACHINERY AND SUPPLIES
FOR SOFTDRINKS AND FILTRATION

ADDRESS

FACTORY AND OFFICES: BAVCHRIEH
CAMILLE CHAMOUN STREET
TEL: 884283 — 882370 —
CABLES MINJAIM. P.O.Box 980
TLX. NOUJA 43271

العنوان

المصنع والمكتب: سد البوشرية ـ
شارع كميل شمعون ـ
هاتف: ٨٨٤٢٨٣ ـ ٨٨٢٣٧٠
برقياً منجيم ص. ب. ٩٨٠
تلكس نوجا ٤٣٢٧١

بؤر التوتر في المجتمع الاسرائيلي

جورج أبي صالح*

قامت دولة اسرائيل في الأصل على استقدام يهود من مختلف أنحاء العالم بقصد «تجميع المنفيّين» في «وطن قومي يهودي». وعليه، يمكن القول إن المجتمع الاسرائيلي مجتمع فسيفسائي، متنافر العناصر ومتمايز الشرائح. فدولة اسرائيل، القوية عسكرياً والمتقدّمة تكنولوجياً، ما زالت تسعى الى بناء مجتمعها الخاص، بعد نحو نصف قرن على انشائها وبعد جيلين من «المواطنين» المولودين فيها. ذاك أن المجتمع القائم حالياً في الدولة العبرية يفتقر الى التجانس والتماسك، لكونه خليطاً ومصطنعاً، ومتكوِّناً من تركيبة بشرية منطوية على تناقضات إتنية ـ اجتماعية ـ اقتصادية لا يُستهان بها، وليس من اليسير التوفيق بينها.

ومن الثابت أن السلطة التي حكمت دولة اسرائيل، أياً كانت ايديولوجيتها السياسية، قد وعت هذا الواقع فبذلت الكثير من الجهود، ووضعت الوفير من الخطط والبرامج، واتّخذت العديد من التدابير المتعاقبة في سبيل تقليص هامش التباين والتنافر المجتمعيَّيْن. لكنّ مهمتها، الصعبة أصلاً، واجهت ولا تزال عقبات متزايدة متأتّية عن عاملين اثنين: واحد اساسي وثابت، والآخر متفرّع منه ومتحرّك. العامل الأول الثابت هو طبيعة «المجتمع الاسرائيلي»، الفتيّ، المتغايرة العناصر، فقد قام هذا المجتمع على تدفقّات بشرية الى ارض فلسطين آتية من مناطق وبلدان متباعدة وموّزعة على سطح الكرة الأرضية

* باحث، صحافي ومترجم.

(من اوروبا الشرقية والغربية والوسطى، من آسيا وافريقيا، ومن اميركا الشمالية والجنوبية...)، وكان الجامع الوحيد بين هذه التدفّقات كلها الانتماء الديني. أما العامل الثاني المتفرّع من الأول فهو تغيّر الهجرة اليهودية الوافدة كمّاً ونوعاً. فالهجرة الى اسرائيل لم تكن على الدوام ذات وتيرة واحدة أو لون إتني واحد. هناك فترات، لا سيّما تلك التي شهدت حروباً عربية ـ اسرائيلية، تراجع فيها حجم هذه الهجرة الى حدّ انه لم تُسلَّط عليه أضواء المحلّلين والمراقبين، داخل اسرائيل وخارجها، باعتباره لم يكن يشكّل، سواء من حيث عدده أم من حيث طبيعته، عنصراً مؤثّراً في التركيبة المجتمعية القائمة. إلاّ أنه كانت هناك، في المقابل، فترات من الهجرة الكثيفة التي تركت بصماتها على واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الدولة العبرية. على أن سياق الهجرة الكثيفة المتقطّع هذا بلغ ذروته ووتيرته القصوى مع موجات اليهود الوافدين في الأشهر الأخيرة من الاتحاد السوفياتي. وهي موجات تتّصف بوحدانيّة المصدر علاوة على كبر الحجم، مما يجعلها قابلة حتماً لإحداث تغيّر في التركيبة المجتمعية التي تصبّ فيها.

واذا كان من السابق لأوانه التكهّن بمسار هذا التغيّر المرجّح وطبيعته وانعكاساته، فإنه بالإمكان إبراز أوجه التعارض القائمة في التركيبة الاسرائيلية الحالية، والتي يجوز اعتبارها بمثابة بؤر توتّر داخل «المجتمع الاسرائيلي» الذي لم تتكوّن بعدُ هويّته النهائية. أما هذه التعارضات التي هي أعمق وأبعد من خلافات مختلف الأحزاب والتنظيمات والحركات السياسية، فتتمحور حول بؤر ثلاث: التوتّرات بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، وبين العلمانيين والدينيين، وبين الشباب والكبار.

وأما السؤال الكبير الذي يطرح نفسه الآن بإلحاح فهو: هل ستتمكّن تلك الجماعات المتجمّعة أصلاً من أربعة أقطار العالم من أن تؤلّف «شعباً واحداً» بعدما توصّلت الى تكوين دولة؟ وكيف ستتمكّن هذه الدولة من نزع الفتيل الذي يهدّد اليوم، أكثر من ذي قبل، بتفجير بؤر التوتّر القائمة؟

١ ـ التوتّرات بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين.

يُحكى في اسرائيل عن غربيين وشرقيين لكنّ هذا التفريق تعوزه الدقة. ذلك انه، وسط هاتين المجموعتين، تلاحَظ اختلافات عدة:

أولاً، ماذا عن الغربيين؟ في الييشوف (Yichouv)[1]، كانوا يشكّلون اكثرية واسعة. ففي ١٩٨٥، كان ٣٨٪ من اليهود الاسرائيليين، من أبناء الجيلين الأول والثاني، متحدّرين من اوروبا أو اميركا. والأكثر عدداً بين الغربيين هم يهود اوروبا الشرقية الوافدين قديماً.

(١) الجماعات اليهودية في فلسطين قبل نشوء دولة اسرائيل.

طبعاً، في الييشوف، كان بناء الدولة اليهودية مرتبطاً بالرغبة في التخلّي عن تقاليد الـ «شتيتل» (Shtetl)[٢]. فقد كان مجتمع الشتيتل قوي البنيان: كان الناس يعرفون بعضهم بعضاً، يحبّون بعضهم بعضاً، يقدّرون بعضهم بعضاً أو حتى يكرهون بعضهم بعضاً في بيئة ضيّقة لا يخفى عن أهلها شيء من حياة الجماعة، التي كانت لها تقاليدها الخاصة بالغذاء والثياب. وكما في كل المتّحدات (Communauté) اليهودية التقليدية، كانت التعاليم والفرائض الدينية تنظّم الحياة اليومية فيها. مساء كل يوم جمعة، كان ابناء الحيّ اليهودي يسرعون في العودة الى البيت لاستقبال عطلة السبت[٣] كما ينبغي. عند اقتراب الربيع والخريف، كانت الشوارع والمنازل والمعابد (الكُنُس) تعمّ بالنشاط طوال اسابيع عدة استعداداً لعيد الفصح ولأعياد تشرين الأول: رأس السنة اليهودية، صوم الغفران الكبير، وعيد الأكواخ. في ٩ آب ، كان اليهود يبكون على تدمير الهيكل كما لو كانت هذه الفاجعة قد وقعت بالأمس. بالطبع، إن النزعة التحديثية لنهاية القرن التاسع عشر والتيارات الثورية التي وجدت بين يهود اوروبا الشرقية أنصاراً متحمّسين لها قد أحدثت نوعاً من التخلّي عن هذه التقاليد. لكنّ المهاجر الوافد من هذه البلدان يحفظ في قلبه تعلّقاً عميقاً بماضي يهوديّته هذا، الديني والثقافي بآن معاً.

عندما كان يهود المانيا والنمسا يصلون الى «ارض اسرائيل» (Eretz Israël) في السنوات الأولى لقيام الدولة كانوا يختلفون بسرعة، لا بل يتنازعون مع مهاجري اوروبا الشرقية، الذين يشكّلون الأكثرية، والذين كانوا يجهدون في فرض ايديولوجياتهم وأنماط عيشهم على الييشوف. أما يهود اوروبا الوسطى، فقد اندمجوا بسهولة، ذلك أنهم كانوا قد تكيّفوا مع مختلف أوجه الجرمانية وأقاموا علاقات عدة مع جيرانهم المسيحيين، وهي علاقات كان المعادون للسامية ينكرونها على يهود امبراطورية القياصرة.

وأما اليهودي الاميركي الذي كان يقرّر طوعاً وبحرّية مغادرة مجتمع الوفرة والبحبوحة ذي التكنولوجيات المتقدّمة ليستقرّ في بلد لمّا يزل فقيراً، ولم يلج بعدُ باب التصنيع، فهو أيضاً أكثر اندماجاً في البيئة الاميركية مما كان عليه اليهود الألمان قبل مجيء هتلر. من جهة اخرى، كان اليهودي الفرنسي قد تغذّى، في المدرسة الرسمية العلمانية (Lycée) بالثقافة الفرنسية. حتى ولو لم يكن يرفض يهوديّته ـ كما هي الحال عندما يستقرّ في اسرائيل ـ فهو لا ينفصل عن هذا الماضي الغنيّ جداً. في حين كان تدفّق يهود الاتحاد السوفياتي يثير مشكلات اخرى. فهؤلاء وُلدوا وكبروا في بلد شيوعي ارتضوا خلال قسم كبير من حياتهم بطروحاته الايديولوجية. في النظام الاشتراكي السوفياتي،

(٢) كلمة المانية الأصل تعني الحيّ اليهودي بمؤسساته الطائفية في اوروبا الشرقية.

(٣) يوم السبت هو يوم الراحة الأسبوعي عند اليهود، وله عاداته وفرائضه الدينية.

كانوا يحظون بعدّة منافع مادية. لكن السيّئة الكبرى للنظام السوفياتي كانت تؤثّر عليهم أيضاً وتضايقهم: فقد كانوا محرومين من حرية التعبير. عندما كانوا يصلون الى اسرائيل، حيث عليهم أن يكافحوا لإيجاد موقع لهم اجتماعياً واقتصادياً انما حيث يستطيعون التعبير عن أنفسهم بحرية، كانوا كمن يتلقّى صدمة كهربائية كبيرة. فطريقة عمل «الديمقراطية الاسرائيلية» أذهلتهم. لذلك رافقت تكيّفهم مع هذا النظام المختلف عن ذاك الذي عرفوه، او الذي تصوّروا أنهم سيجدونه في اسرائيل، صعوباتٌ جمّة.

ثانياً، ماذا عن «الشرقيين»؟

ليست الاختلافات بين اليهود الشرقيين أقل أهمية. فباستثناء اليمنيين الذين واجهوا لأول مرة في اسرائيل مجتمعاً على الطراز الغربي، فان جميع الشرقيّين الآخرين كانوا قد بدأوا بسيرورة التغربن، اذا صحّ القول (من خلال الاطّلاع على حداثة الغرب ومنجزاته وتطور نمط عيشه)، عند وصول المستعمر الى بلدانهم. إن شبكة المدارس التي أنشأها «التحالف الاسرائيلي العالمي»* المنتشر في بلدان الشرق الأدنى والشرق الأوسط والمغرب العربي، باستثناء الجزائر، وكذلك المدارس التي أنشأها المستعمر نفسه لعبت دوراً هاماً في هذا الاتجاه. لكن مجيء المستعمر ضرب التكافل النسبي الذي كان قد ميّز طوال قرون من الزمن تعايش العرب واليهود في البلدان الاسلامية.

لقد حرّر المستعمر، البريطاني او الفرنسي، «المواطن» اليهودي من بعض القيود المألوفة الملازمة لوضع «أهل الذمة». وخلق عنده الأمل بأن يصبح مواطناً متمتعاً بكامل حقوق المواطنية، بدلاً من أن يظلّ مواطناً من الدرجة الثانية. والحال أن ثمة اختلافات بين طرائق استعمار الانكليز وطرائق استعمار الفرنسيين. لقد كان البريطانيون أكثر ليبرالية، وكان نفوذهم الثقافي اكثر انتشاراً من نفوذ الفرنسيين، الذين كانوا يركّزون على اختيار نُخَب من بين أهل البلد الأصليين، العرب او اليهود.

بين جماعات اسرائيل الشرقية، يشكّل العراقيون والأفارقة الشماليون ـ والمغاربة منهم بوجه خاص ـ الجماعات الأكثر عدداً. وبينما العراقيون متأثّرون بالانكليز، فالمغاربة متأثّرون بالفرنسيين. إن يهود شمال افريقيا قد استقبلوا المستعمر الفرنسي كمحرِّر، وسرعان ما أصبحت الثقافة الفرنسية نموذجهم. غير أن تأثير المستعمر، البريطاني أو الفرنسي، كان اكبر في المدن الكبرى منه في البيئة الريفية. لذلك، يلاحَظ مثلاً أن ثمة تعارضاً قوياً عند العراقيين بين يهود بغداد، الفخورين بماضيهم، والأكراد. ذاك أن طائفة بغداد لعبت، طوال قرون عدة، دور الزعامة بالنسبة الى جميع الطوائف اليهوديّة في العالم. وبعكسهم، فقد ظلّ يهود كردستان الجبليّون خشيني الطباع وغير متعلّمين. في المغرب، كان

* او ما يسمى «الأليانس»: Alliance Israélite Universelle

التأثير الاوروبي ملموساً في مدن الساحل ـ الدار البيضاء، التى أسّسها الفرنسيون، وطنجة، الواقعة تحت الهيمنة الاسبانية ـ اكثر منه في مدن الداخل، مثل فاس او مكناس حيث كانت تعيش متّحدات يهودية مزهوّة بماضيها اليهودي ـ الاسباني، ولكنها اكثر تقليدية بكثير. ففي الأطلس كما في الجنوب الجزائري، كانت تقيم متّحدات قديمة جداً، ذات أنماط معيشية قديمة، بربرية الأصل. أصلاً، في المغرب العربي، لم تكن العلاقات بين هذه الجماعات اليهودية المختلفة ممتازة دوماً. وفي اسرائيل، يتكلّم اليهود الشرقيون بالطبع اللغة العربية او اليهودية المتغرِّبة، لكن اللهجات العربية متباينة: فاليهوديّ العراقي يلاقي صعوبة في التحدّث بالعربية مع يهوديّ مغربي.

بناء عليه، فان لفظتي: «الغربيّون» و«الشرقيّون»، غير صحيحتين وغير دقيقتين جغرافياً. فالمغرب العربي واقع غربيّ اسرائيل وروسيا شرقيّها. على ان لهاتين الكلمتين المستعملتين بشكل شائع وعادي في اسرائيل مدلولاً ثقافياً. اذ باستثناء «بني اسرائيل» القادمين من الهند، فان الطوائف اليهودية الشرقيّة متحدّرة اصلاً من بلدان اسلامية. وعلى أي حال، لقد عاشت هذه الطوائف قروناً من الزمن في مجتمعات تقليدية، مستعمرَة لحقبة قصيرة نسبياً، ابتداءً من القرن العشرين. وصورة الغرب التي تعرفها أدركتها من خلال المستعمر.

السيفارديم

أحياناً، تُطلَق في اسرائيل وخارجها على اليهود الشرقيّين تسمية «السفارديم». وهذه العبارة تعوزها الدقّة. فالسفارديم هم خَلَف اليهود المطرودين من اسبانيا والبرتغال في القرن الخامس عشر. لقد توجّه بعضهم الى شمال افريقيا حيث حافظوا على خصوصيّتهم الثقافية. بينما أسّس البعض الآخر متّحدات على السواحل الاوروبية للبحر الأبيض المتوسط، وبالأخص في فرنسا وايطاليا واليونان (في سالونيك بخاصة)، وفي بلغاريا وتركيا. اخيراً، توجّه آخرون نحو الشمال، حيث نجدهم ثانيةً على الساحل الفرنسي للمحيط الأطلسي، في هولندا، وهامبورغ، وحتى في اوروبا الوسطى. وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان ثمة سفارديم بين أوائل مؤسّسي المتّحدات اليهودية في العالم الجديد (أميركا وجزر الأوقيانوس الكبير). كذلك حافظ بعضهم، في تركيا واليونان بخاصة، على اللغة الاسبانية المتهوّدة، القريبة جداً من اللغة الاسبانية القديمة.

بمقدار ما هاجر هؤلاء السفارديم الى اسرائيل، بمقدار ما تشبه مشكلات تكيّفهم تلك التي يواجهها اليهود الأوروبيون. وعلى اي حال، لا مجال للخلط بينهم وبين اليهود الشرقيّين.

الاختلاف الثقافي

اما المتّحدات اليهودية الشرقية فقد بدأت، عند اتّصالها بالمستعمر، في تطور فَصَلَها

تدريجاً عن ماضيها التقليدي. لكنها حافظت مع ذلك على الكثير من عاداتها القديمة الشديدة التأثّر بالبيئة الاسلامية كما على تعلّق عميق بالمظاهر الدينية لليهودية. كانت حياة هذه المتّحدات منظّمة وفقاً للتعاليم الدينية اليهودية، لكن هذه التعاليم تعدّلت في سياق مختلف عن سياق «الشتيتل». ذلك أن اليهود الغربيّين قادمون، من جهتهم، من مجتمعات متقدّمة تقنياً. وإذ حرّرتهم الثورة الفرنسية او ثورة اكتوبر الاشتراكية (١٩١٧)، فقد اندمجوا في المجتمع المحيط بهم وتمثّلوا به. وما زال كل مهاجر وافد الى اسرائيل يحمل معه أثر ماضيه الثقافي المختلف هذا.

كان يهود البيشوف يجهلون هذه الاختلافات الثقافية بين متّحدات الدياسبورا، وقد ذُهلوا تماماً عندما رأوا على سلّم الطائرة الآتية من اليمن «أخاً» ذا قسمات ناعمة وعينين سوداوين جداً لا يُشبه مظهرُه اطلاقاً مظهر اليهوديّ الروسيّ الأشقر ذي العينين الزرقاوين.

عند وصولهم كان اليهود الشرقيّون يرتدون غالباً ثيابهم التقليدية. وحتى اليوم، يلتقي المارّ في شوارع القدس، انما خصوصاً في شوارع «المدن الانمائية» بنساء مرتديات مناديل معقودة حول الرأس على الطريقة التقليدية، وفساتين طويلة مُخاطة بأقمشة قطنية ذات ألوان جذّابة، او بمغربيّ يهودي مسنّ مرتدياً بُرْنُسَه التقليدي. كذلك، لم تكن العادات الغذائية هي نفسها: في الواقع، وإن كان كل يهود العالم الممارسون لواجباتهم الدينية يتقيّدون بقواعد استهلاك وتحضير الأطعمة (الكاشروت)، فإن ثمة مأكولات خاصة قريبة من وصفات الطبخ المعتمدة عند شعوب بلدانهم الأصلية تُحضَّر لكل وجبة من وجبات الأعياد.

فأساس غذاء الأشكناز (يهود اوروبا واميركا بوجه عام) هو البطاطا والعجائن؛ ومساء يوم الجمعة، يباركون الحَلّه (Hallé) وهي فطيرة مصنوعة من حبوب الخشخاش، كما يتذوّقون سمك الشبّوط المحشوّ. أما المغربيّ فيفضّل أكلتَيْ الكَسكَسي، والطاجن ـ يخنة باللحم والكوسى، والفليفلة او البندورة ـ اللتين يحبّهما أيضاً يهود الشرقين الأدنى والأوسط، لكنهم يتناولون بخاصة الرزّ والفول. لقد ظلّت لكل من هذه الجماعات وجباتها الخاصة بالأعياد ولم يتمّ ابداً الجمع بين هذه الوجبات على موائد الاسرائيليين كافة. وأما «الصابار»[٤] فيستبدلها بأطعمة الشرق الأدنى: الحمص والمشاوي والكباب.

من جهة أخرى، لم يكن مفهوم الحياة وفلسفات الوجود هي نفسها. عند الوصول على الأقل، كان اليهود اليمنيون متواضعين وخشيني الطباع؛ كانوا يكتفون بالقليل. أما يهود العراق والمغرب فكانوا يبدون اكثر تطلّباً: كانوا يعتقدون أن بامكانهم أن يحسّنوا

(٤) الصابار: كلمة عبرية تعني اليهوديّ المولود في اسرائيل، وجمعها «صابارِيم».

وضعهم الاقتصادي بسرعة في المجتمع الجديد. لقد كان معظمهم حرفيين او تجاراً. لكن بعضهم أصبحوا، في ظل النظام الاستعماري، مستخدَمين في عداد الكوادر المتوسطة. وبالنسبة الى الشعوب العربية التي كانوا يعيشون فيما بينها، فقد كانوا يسبقونها على الأقل بجيل واحد من التعليم. لذلك، غالباً ما لعبوا دور الوسطاء بين الشعوب العربية لبلدانهم الأصلية وبين المستعمر. لقد كان اليهود المغاربة، وبخاصة ابناء المدن، يمتنعون اصلاً عن استعمال اللغة العربية، لأنهم كانوا يشعرون بأنهم فرنسيّون دون أن يكونوا كذلك فعلاً.

في هذا السياق، كان اليهود المتحدّرون من بلد واحد يتنظّمون بسرعة في اسرائيل. فشكّلوا اتّحادات كانت مصالحها متضاربة احياناً. لكن هذه الاتحادات تلعب دوراً في اندماج المهاجرين الاجتماعي والاقتصادي. وغالباً ما يحتلّ قادتها مراكز مهمة في الأحزاب السياسية الاسرائيلية ويضاعفون تدخّلاتهم لصالح مواطنيهم لدى سلطات الدولة العبرية.

سياسة الدمج والاختلافات الباقية.

في الخمسينات، كان قدامى البيشوف يظنّون أن بامكانهم أن يدمجوا في بيئتهم بسرعة هؤلاء اليهود الشرقيين الغريبين جداً في نظرهم، آملين في أن يتقبّلوا «التفوق» الحضاري والثقافي الذي سيقدّمونه لهم. وهكذا، راح المعلّمون والمساعفات الاجتماعيات يمارسون ضغوطاً قوية على الأمهات الشرقيّات كي يعتمدن قواعد صحية جديدة وطرائق تربوية حديثة. ويُروى حتى أن المعلّمات كنّ يعمدن الى قصّ فساتين الفتيات البالغة الطول عندما تحضرن الى المدرسة. إن هذه التدخلات، بالاضافة الى الاحتكاكات بظروف العيش الجديدة، قد مارست ضغطاً على تحوّل البنى العائلية وأسهمت في تفكك العائلة الشرقية(٥).

لم تكن المرأة اليهودية او المسلمة تلعب، تقليدياً، سوى دور ثانوي؛ فقد كان الأب محط احترام وصاحب السلطة كلها. والحال أن هذا الأب لا يجد غالباً اي عمل يزاوله في اسرائيل، بحيث يتعيّن على الابن البكر، الذي قد لا يكون بلغ سن الرشد، أن يعيل العائلة. وهكذا، تتقهقر سلطة الأب بسرعة. في الوقت ذاته، وعت النساء وضعهن، ورحن يُعِدْن النظر في سلطة الزوج المطلقة، بعدما حرّرهن التشريع الاسرائيلي. من هنا، كان الانفصال عن الماضي أكثر أهمية بالنسبة للشرقيين منه بالنسبة للغربيين. بالطبع، كان يتوجّب على هؤلاء الأخيرين أن يتكيّفوا مع شروط العيش الجديدة، وأن يتعلّموا لغة جديدة، هي العبرية، لكن الغرب هو الذي كان يفرض ثقافته ومفهومه للعالم. لقد لزم القادة الاسرائيليين نحو عشر سنوات قبل أن يدركوا بأن سياستهم المتّبعة لدمج الشرقيّين كانت تسلك طريقاً خاطئة. وبالرغم من التأكيدات الرسمية المتعددة لغياب كل تمييز في اسرائيل،

(٥) المرجع رقم ٥، ص ١٦٨.

فقد كان اليهوديّ نفسه يُدعى الألماني، والروسي، والروماني، والبولوني، واليمني والمغربي الخ..

التفاوت التعليمي في الخمسينات والستينات.

كان المستوى التعليمي للمهاجرين المتحدّرين من افريقيا وآسيا، الواصلين الى اسرائيل في الخمسينات والستينات، أدنى بوضوح من مستوى المهاجرين من أصل اوروبي. ذاك أن ما لا يقلّ عن خُمس اليهود الشرقيين لم يرتادوا المدرسة بمفهومها الحديث. ولمّا كان هؤلاء يتكوّنون بمعظمهم من حرفيين وأصحاب دكاكين ومستخدَمين في بلدانهم الأصلية (انظر الجدول رقم ١)، فانه لم يكن لديهم الإعداد المهني اللازم للوصول الى الوظائف التي تستلزم أهلية معيَّنة.

لقد كان المهاجرون الشرقيّون يتوجّهون بغالبيتهم الكبرى نحو المناطق الإنمائية لتأسيس مدن جديدة أو «موشافيم»[٦] (Mochavim). لكن هذه البلدات لم تكن موجودة آنذاك إلاّ على خرائط مرسومة من قبل مخططي الحكومة الاسرائيلية. لذلك، كان يتمّ حشرهم في معسكرات انتقالية مؤقتة (معاڤاروت)، حيث يكلَّف المهاجرون في ظروف مضنية للغاية بانشاء البنى التحتية وشق الطرقات وبناء المساكن. فقد كانت مهمتهم تحويل مناطق النقب الصحراوية الى مناطق مزهرة وإعادة تشجير الجليل. من اجل هذا، يحتفظ الشرقيون بذكريات مرّة عن هذه الحقبة «البطولية» حسب ايديولوجية الروّاد، حتى ولو كان البعض يعلن بفخر واعتزاز، بعد عشرين او ثلاثين سنة، بأنه ساهم في بناء اسرائيل.

ففي القدس وتل ابيب وحيفا ويافا، كان يستقرّ المهاجرون في احياء قديمة، حيث تتكدّس عائلات مع أولادها ومسنّيها في مساكن ضيّقة للغاية ومفتقرة الى وسائل الراحة. وفي المدن الكبيرة، لم يكن الشرقيّون يجدون غير الوظائف الأقل أهلية والمؤقّتة، في أغلب الأحيان. هكذا كان الفقر، وكذلك الجنوحية، ينتشران في هذه البيئة المحرومة، والمحتقرة من السكان ذوي الأصل الأوروبي. وعلى الأخص، كان اليهود المغاربة يُسمَّون «السود» (شاحوريم) و«حَمَلة السكاكين»، ويتمّ تجنّبهم!

لقد كان هؤلاء الشرقيون ينتظرون أن يتمّ استقبالهم «كأخوة». لكن الأشكناز الذين يحكمون اسرائيل نبذوهم، لأنهم كانوا يريدون بناء مجتمع يهودي متقدّم ممثِّل للحضارة الغربية. إن وصول الشرقيين بكثافة في الخمسينات والستينات خلق عند الطبقات الحاكمة

---

(٦) موشافيم: جمع «موشاف»، وهي قرية ينظَّم فيها شراء المعدات وبيع المنتجات على أساس تعاوني، بينما ينظَّم الانتاج والاستهلاك على اساس فردي. وهي تختلف عن «الكيبوتز»، التي هي قرية ينظَّم فيها الانتاج والاستهلاك على اساس تعاوني.

جدول رقم ١:
البنى الاجتماعية ـ المهنية للمهاجرين في الخارج
حسب المنشأ: ١٩٦١ ـ ١٩٨٣

المنشأ	العمل في الخارج			المجموع
	مزارعون عمال خدمات حرفيّون	تجار	مستخدمون كوادر وسطى وعليا مهن حرة	
١٩٦١				
افريقيا و آسيا	٤٩ ٪	٣٤ ٪	١٧ ٪	١٠٠ ٪
منها: المغرب	٦٣ ٪	٣٠ ٪	٧ ٪	١٠٠ ٪
منها: العراق	٣٧ ٪	٣٣ ٪	٣٠	١٠٠ ٪
اوروبا واميركا	٤٣ ٪	٢٨ ٪	٢٩ ٪	١٠٠ ٪
منها: المانيا، النمسا والاتحاد السوفياتي	٤٠ ٪	٢٠ ٪	٤٠ ٪	١٠٠ ٪
منها: بولونيا	٥٣ ٪	٢٠ ٪	٢٧ ٪	١٠٠ ٪
١٩٨٣				
افريقيا و آسيا	٣٨ ٪	١٤ ٪	٤٨ ٪	١٠٠ ٪
اميركا	١٢ ٪	٨ ٪	٨٠ ٪	١٠٠ ٪
منها: اميركا الشمالية	٩ ٪	٦ ٪	٨٥ ٪	١٠٠ ٪
اوروبا	١٧ ٪	٧ ٪	٧٦ ٪	١٠٠ ٪

المصدر:

Central Bureau of Statistics, Population and Housing Census 1961, fascicule 27, 1965; & Immigration to Israël 1983, Special series no 747, Jerusalem, 1984.

والسكان الاوروبيّي الأصل هاجس «شرْقَنَة» اسرائيل. لذلك أكّدت هذه الأوساط تفوّق الثقافة الغربية ورفعتها وانكرت على اليهود الشرقيين «الذين يشبهون العرب» كل امكانية او فرصة للتقدّم الثقافي. وهكذا، لم تكن «الفجوة» التي راحت تتّسع بين الغربيين والشرقيين اجتماعية واقتصادية فحسب، انما ايضاً وبخاصة فجوة ثقافية.

منذ ذلك الحين، جُرح الشرقيون في كبريائهم بعمق، وهذه الجراح لم تلتئم بعدُ حتى اليوم، ولو كان وضعهم قد تحسَّن.

تمرّد الشرقيين ونتائجه

في هذه الأجواء، انفجر تمرّد الشرقيين لأول مرة في صيف ١٩٥٩. ففي أثناء مشاجرة في وادي الصليب، وهو أحد أحياء حيفا الفقيرة والمكتظّة بالسكان، أطلقت الشرطة النار على رجل سكران فجرحته: كان مغربياً. وعلى الفور، هاجم الحشد المتجمهر في ذلك المكان رجال الشرطة بالحجارة، فأطلق هؤلاء النار في الهواء. في اليوم التالي، قام مثيرو الفتنة في وادي الصليب، وهم بغالبيتهم من المغاربة، بالتظاهر في احياء حيفا الغنيّة. لقد اتّهموا الأشكناز بالاغتناء على حساب الأفارقة الشماليين، خرّبوا ونهبوا مقرَّي الهستادروت[٧] وحزب ماباي[٨]، رمزَيْ السلطة. وخلال الصيف ذاته، اندلعت عدة أحداث مماثلة في مدن اخرى.

آنذاك، كان الطلب الأساسي للشرقيين يتناول تحسين شروط تعليم أولادهم. فحسب قانون صادر سنة ١٩٤٩، كان التعليم الابتدائي فقط (لمدة ٨ سنوات) الزامياً ومجانياً. وتدريجياً، وضعت الحكومة في الستينات، برامج من شأنها تسهيل تعليم أولاد اليهود الشرقيين: مجانية التعليم ابتداءً من عمر ثلاث سنوات للفئات الأكثر فقراً، إطالة يوم الدراسة والسنة المدرسية، نشاطات مساندة مخصَّصة لتدارك التأخر الدراسي، منح واعفاءات من مصاريف التعليم لتسهيل متابعة التعليم الثانوي، والإعداد المهني للطلاب الموهوبين من ابناء العائلات الفقيرة. منذ ١٩٦٨، أُجري أصلاح مهم أطال، على مراحل، التعليم المجاني والإلزامي من عمر ١٤ الى ١٦ سنة. لكن التعليم ما بعد الابتدائي ـ الثانوي أو المهني ـ لم يصبح مجانياً حقاً الاّ في ١٩٧٨. وكان لا بدّ من انتظار نتائج هذه الجهود حتى تظهر مع نهاية السبعينات وبداية الثمانينات. فضلاً عن ذلك، بوشر منذ أواخر الستينات، انما بصعوبة، بتجديد الاحياء الفقيرة وإعادة ايواء سكانها.

لقد تراءى للبعض أن حرب الأيام الستة (حزيران ١٩٦٧) التي قاتل خلالها اليهود

---

(٧) الاتحاد العام للعمال في اسرائيل. تأسّس سنة ١٩٢٠.

(٨) حزب عمال ارض اسرائيل (يساري صهيوني، نشأ عن اندماج حزبي «بوعالي تسيون» (عمال صهيون) الماركسي و«هبوعيل هتسعير» (العمال الفتيان) غير الماركسي.

الشرقيّون بشجاعة، قد هدّأت التوتّرات بين المتّحدات اليهودية. لكن هذه الهدنة كانت قصيرة. ففي ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ وُلدت حركة «الفهود السود» التي أسّستها مجموعة صغيرة من الشباب الذين كبروا في حي فقير من احياء القدس. وقد نظّمت هذه الحركة مظاهرات عدة انتهى بعضها بمجابهات عنيفة مع الشرطة. إن هؤلاء «الفهود السود»، الذين كان قادتهم مغاربة الأصل بوجه خاص، سعوا الى تعبئة الرأي العام حول المشكلة الإتنية والى إسماع صوتهم للطبقة السياسية، إذ كانوا يحتجّون ضد الفقر والتمييز المرتكَب بحقهم، خصوصاً وأنهم صُدِموا بالامتيازات المخّصصة «لسجناء صهيون»، أي لأولئك اليهود السوفيات الذين وصلوا آنذاك الى اسرائيل. احتجّوا ضد المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية معتبرين أن المال الموظَّف في هذه المستوطنات كفيل بتحسين مستقبل الشرقيين. طوال سنة كاملة، تظاهر «الفهود السود» وشغلوا وسائل الإعلام... لكن الفشل السياسي أصابهم في انتخابات ١٩٧٣ حيث لم تفُز اللائحتان اللتان رشّحوهما بأي مقعد في الكنيست.

مرة أخرى، نبّه «الفهود السود» الرأي العام الاسرائيلي والأجنبي الى حرمان اليهود الشرقيين. غير أن هؤلاء كانوا ميّالين اكثر فأكثر للتصويت لتكتل ليكود، السعيد بحصد هذه الأصوات انما العاجز عن حلّ مشكلات أصحابها.

تطوّر السبعينات

غير أن الهجرة الشرقية سجّلت نمواً اكيداً... فالمهاجرون الواصلون الى اسرائيل في الخمسينات شاخوا في السبعينات. لكن معدّل الولادات وسط هذه البيئة كان مرتفعاً جداً: ففي ١٩٦١، كان بمقدار ٤,٦٪ عند المرأة الشرقية الأصل مقابل ٢,٩٪ عند المرأة الغربية الأصل. وهكذا، بعد عشرين سنة، كان٦١٪ من«صاباريم» الجيل الثاني مولودين في عائلات من اصل افريقي وآسيوي (أنظر الجدول رقم ٢).

لقد كبُر هذا الجيل الثاني في اسرائيل نفسها وارتاد المدرسة، على الأقل ، خلال مدة التعليم الالزامي. ففي ١٩٨٥، تابع ٨٣٪ من الصاباريم الشرقيّي الاصل دراسة تتجاوز مرحلة التعليم الالزامي، لكن التفاوتات لا تزال قائمة حتى في الجيل الثاني هذا.

ففي التعليم الثانوي، يتّجه الشرقيون بخاصة نحو الفروع المهنية والتقنية او الزراعية، وان نسبة متخرجي التعليم العالي ليست أكبر منها في جيل المهاجرين الشرقيّي الاصل. (انظر الجدول رقم ٣).

في الواقع، ان التعليم العالي لا يزال غير مجاني في اسرائيل وأقساطه مرتفعة جداً. مع ذلك، فقد شهد التعليم العالي نمواً كبيراً خلال عشرين سنة: فمن ١٩٦٠ الى ١٩٨٥، ارتفع عدد الطلاب الجامعيين من ٩ آلاف الى اكثر من ٦٦ ألفاً. وفي الثمانينات، كان ٢٥٪

من الطلاب من اصل شرقي.

على ان ارتفاع المستوى التعليمي لا يمارس بعدُ سوى تأثير ضئيل على تطّور البنى الاجتماعية ـ المهنية. فالتفاوتات بين الشرقيين والغربيين لا تزال قائمة بين «صـاباريم» الجيل الثاني كما بين المهاجرين الوافدين (انظر الجدول رقم ٤). غير انه يبرز في الجيل الثاني عدد كبير نسبياً من المستخدَمين. في المقابل، لا تزال فئة العمّال ثابتة من جيل الى جيل حتى ولو تحسَّنت أهليتها. لكن الاحصائيات الحالية تبـرّر نظريـات إعادة انتـاج الطبقات الاجتماعية المقترنة، عند يهود اسرائيل، بمراتب إتنية. وغالب الظن ان الحركة الاجتماعية الصاعدة للشرقيين ستكون اكثر ظهوراً بعد بضع سنوات لأن اكثر من نصف «صاباريم» الجيل الثاني لم يبلغ بعد سن دخول الحياة العملية.

كذلك تشهد البنى العائلية تحوّلات من جيل الى آخر: ففي الجيل الثاني، قلّما كان

جدول رقم ٢:
المستوى التعليمي لليهود الأكبر من ١٤ سنة حسب المنشأ، في ١٩٨٥

فئات السكان	المستوى التعليمي							
	غير متعلّم	ابتدائي ومتوسط	يشيفا	ثانوي عام	ثانوي مهني	ما بعد الثانوي	دراسات عليا	المجموع
السكان اليهود (١٩٨٥)	٤,٩ ٪	٢١,٧ ٪	١,٨ ٪	٢٤,٦ ٪	٢٤,٨ ٪	٨,٥ ٪	١٣,٧ ٪	١٠٠ ٪
الصاباريم								
المجموع	٠,٣ ٪	١١,٤ ٪	٢,٢ ٪	٢٧,٤ ٪	٣٤,٤ ٪	٩,٩ ٪	١٤,٤ ٪	١٠٠ ٪
أب مولود في اسرائيل	٠,٤ ٪	١١,٥ ٪	٣,١ ٪	٣٧,٤ ٪	٢٤,٠ ٪	٩,٣ ٪	١٤,٣ ٪	١٠٠ ٪
في افريقيا ـ آسيا	٠,٤ ٪	١٥,٨ ٪	١,١ ٪	٢٤,٣ ٪	٤٦,٨ ٪	٦,٧ ٪	٤,٩ ٪	١٠٠ ٪
في اميركا ـ اوروبا	٠,١ ٪	٤,٨ ٪	٣,٢ ٪	٢٦,٧ ٪	٢٢,٥ ٪	١٤,٨ ٪	٢٧,٩ ٪	١٠٠ ٪
مهاجرون متحدّرون من								
آسيا ـ افريقيا	١٧,٤ ٪	٣٤,٦ ٪	١,٢ ٪	١٧,٨ ٪	١٩,٣ ٪	٤,٨ ٪	٤,٧ ٪	١٠٠ ٪
اوروبا ـ اميركا	١,٧ ٪	٢٧,٦ ٪	٢,٠ ٪	٢٥,٦ ٪	١٣,٨ ٪	٩,٢ ٪	٢٠,١ ٪	١٠٠ ٪

المصدر: Statistical Abstract of Israël, no 37, 1986.

جدول رقم ٣:
معدل الانتساب الى التعليم العالي
عند اليهود من ٢٠ الى ٢٩ سنة
التطور من ٦٤/١٩٦٥ الى ٨٤/١٩٨٥

المنشأ	١٩٦٤/١٩٦٥	١٩٨٤/١٩٨٥
نسبة الطلاب من السكان اليهود المنتمين الى الفئة العمرية ٢٠ ـ ٢٩ سنة		
المجموع	٣,٨ ٪	٧,٦ ٪
الصباريم		
المجموع	٨,١ ٪	٨,٢ ٪
أب مولود في اسرائيل	٥,٢ ٪	١٣,٤ ٪
آسيا ـ افريقيا	١,٦ ٪	٣,٧ ٪
اوروبا ـ اميركا	١٠,٧ ٪	١٤,٩ ٪
المهاجرون المولودون في		
آسيا ـ افريقيا	٠,٨ ٪	٢,٨ ٪
اوروبا ـ اميركا	٥,٣ ٪	٨,٣ ٪

المصدر: Statistical Abstract of Israël, no 37, 1986.

متوسط أفراد العائلة ومعدل الولادات عند «الصباريم» الشرقيي الأصل أعلى منه عند أولئك الذين قدم أهلهم من اوروبا او اميركا. فقد دخل الحدّ من الولادات في صلب

جدول رقم ٤:
البنى الاجتماعية ـ المهنية للقوة العاملة اليهودية في ١٩٨٥

فئات السكان	الفئات الإجتماعية ـ المهنية							
	مهن حرة كوادر عليا	كوادر وسطى	مستخدمون	تجار	خدمات	مزارعون	عمال	المجموع
السكان اليهود المجموع	٪ ١٥,٠	٪ ١٦,٠	٪ ١٩,٤	٪ ٧,٧	٪ ١٢,٦	٪ ٤,٦	٪ ٢٤,٧	٪ ١٠٠
الصاباريم المجموع	٪ ١٤,٧	٪ ١٨,٨	٪ ٢١,٥	٪ ٧,١	٪ ١٠,٦	٪ ٥,٨	٪ ٢١,٦	٪ ١٠٠
أب مولود في:								
اسرائيل	٪ ١٤,٩	٪ ٢٠,٢	٪ ٢١,٢	٪ ٧,١	٪ ١٢,٥	٪ ٨,٣	٪ ١٥,٩	٪ ١٠٠
آسيا ـ افريقيا	٪ ٥,٨	٪ ١٢,٧	٪ ٢٣,٧	٪ ٧,٠	٪ ١٣,٨	٪ ٤,٦	٪ ٣٢,٤	٪ ١٠٠
اوروبا ـ اميركا	٪ ٢٣,٦	٪ ٢٤,٣	٪ ١٩,٧	٪ ٧,٣	٪ ٦,٥	٪ ٥,٧	٪ ١٢,٩	٪ ١٠٠
المهاجرون المولودن في:								
آسيا ـ افريقيا	٪ ٨,٠	٪ ١٠,٠	٪ ١٥,٨	٪ ٨,٨	٪ ١٩,٩	٪ ٤,٢	٪ ٣٣,٢	٪ ١٠٠
اوروبا ـ اميركا	٪ ٢١,٩	٪ ١٦,٨	٪ ١٨,٩	٪ ٧,٨	٪ ٩,٥	٪ ٣,٠	٪ ٢٢,١	٪ ١٠٠

المصدر: Statistical Abstract of Israël, no 37, 1986.

العادات الاسرائيلية مع الأمل بالترقّي الاجتماعي للأولاد عن طريق التحصيل العلمي، ما عدا في العائلات الأكثر تعلّقاً بالتقاليد الدينية. من جهة أخرى، قلّما يقبل المجتمع الاسرائيلي التعدّدية الثقافية رغم التقدّم الطفيف في هذا المجال بعد أن طالب المثقّفون الشرقيون طوال سنوات عدة بالاعتراف بالمساهمة الخاصة للثقافة السيفارادية في التراث اليهودي العالمي. وأفضت جهودهم في هذا المجال تدريجياً الى تبنٍّ جزئي لثقافة المتّحدات الشرقية في تعليم التلاميذ مادتي التاريخ والأدب الشرقيين.

كذلك يُسجَّل بعض التقدم في التمثيل السياسي. لا شك بأن الغربيين ما زالوا يشكّلون الاكثرية في الكنيست وبين أعضاء الحكومات المتعاقبة، غير أن عدد الشرقيين يتزايد بين النواب الذين يصبح بعضهم وزراء. إن الطبقة السياسية تضمّ ايضاً رؤساء البلديات ومستشاريهم. وعلى هذا المستوى، يحظى الشرقيون بتمثيل جيّد خصوصاً في المدن الانمائية التي أنشأوها.

لكن، باستثناء حزبَيْ «تامي» و«شاس»، فإن اللوائح التي رشّحها الشرقيون لم تعرف نجاحاً انتخابياً كبيراً. وينتسب الشرقيون الى جميع الأحزاب السياسية (المعراخ، الليكود او المفدال...)، وتتوزّع أصوات ناخبيهم بين جميع الأحزاب، وإن كان عدد كبير منهم يؤيّد الليكود بوجه خاص في الفترة الأخيرة (بينهم ديفيد ليفي، المرشح لرئاسة الوزارة).

منذ سنوات عدة، يشكّل هذا السلوك موضع نقاش في الأوساط الشرقية الاكثر ميلاً للمشاركة في الحياة السياسية: فالانتساب الى أحد الأحزاب السياسية الكبرى يعكس الرغبة في الاندماج في المجتمع الاسرائيلي بينما تعبّر الجهود الرامية الى انشاء أحزاب سيفارادية أو شرقية عن تأكيد هوية خاصة. وحتى الآن، لا تزال التوتّرات بين الشرقيين والغربيين قائمة بحيث لا يسعنا بعدُ التكلّم على انصهار بينهما. ويشهد على ذلك تطوّر نسبة الزيجات بين الفئتين المكوِّنتين للمجتمع اليهودي الاسرائيلي، والذي هو مؤشّر ذو دلالة (انظر الجدول رقم ٥).

جدول رقم ٥:
الزيجات المعقودة في اسرائيل حسب أصل الزوجين: السكان اليهود ـ التطور من ١٩٥٥ الى ١٩٨٥

السنوات	الزيجات بين الغربيين	الزيجات بين الشرقيين	الزيجات بين الشرقيين والغربيين	المجموع
١٩٥٥	٪ ٤٨	٪ ٤٠	٪ ١٢	٪ ١٠٠
١٩٦٥	٪ ٤١	٪ ٤٥	٪ ١٤	٪ ١٠٠
١٩٧٢	٪ ٤١	٪ ٤١	٪ ١٨	٪ ١٠٠
١٩٨٥	٪ ٢٠	٪ ٤٢	٪ ٣٨	٪ ١٠٠

المصدر: Statistical Abstract of Israël no 27, 1975-1986.

٢ ـ التوتّرات بين العلمانيين والدينيين

إن النزاع بين السلطتين الدينية والمدنية وبين الممارسين وغير الممارسين للواجبات

الدينية يشكّل محور توتّر آخر داخل المجتمع الاسرائيلي. فهو يتأصل بدوره في التاريخ لكنه أخذ يتفاقم بوجه خاص منذ عقدين من الزمن.

في البلدان التي يُعتبر اليهود فيها مواطنين كاملي الحقوق، يتخلّى هؤلاء بأعداد متزايدة عن معتقداتهم الدينية السلفيّة. ففي الولايات المتحدة وفرنسا وفي البلدان الغربية لا تزال قلة ضئيلة من اليهود تمارس اليوم واجباتها الدينية بتزمّت، وتجتاز كل طوائف الدياسبورا اليهودية حالياً ازمة هوية عميقة[٩]: فأين هي الهوية اليهودية اذا لم يعد المرء يطبّق أياً من التعاليم الدينية؟ قد يعتبر بعض اليهود أن الهجرة الى اسرائيل وما تنطوي عليه من «وعي قومي» هي بمثابة تأكيد لهذه الهوية. إلا أن ثمة مشكلات جديدة تنطرح في اسرائيل نفسها، لأن معظم الاسرائيليين لا يمارسون الواجبات الدينية بالقدر الذي يتوّخاه المتديّنون المتطرفون. يضاف الى ذلك ان اسرائيل تعتبر نفسها دولة علمانية. فالكنيست أعدَّ تشريعاً مدنياً تختلف بعض جوانبه عن التعاليم الدينية. وهنا، تصبح هذه التعارضات الشرعية مبعث نزاعات بين الدينيّين والعلمانيين.

في ١٩٢٢، قضت الحكومة البريطانية المنتدبة بأن تكون كل طائفة دينية مستقلة بشؤونها الداخلية. فأنشأت محاكم مدنية لكنها ثبّتت في الوقت نفسه صلاحيات المحاكم الدنيية في شأن الأحوال الشخصية: فقد كانت هذه الأخيرة مخوَّلة بتسوية جميع المشكلات المتعلّقة بالزواج والطلاق والنفقة والإرث. وفي ١٩٢٧، حدّد تنظيم جديد موضوع من قبل السلطة المنتدبة بُنى الييشوف المعتبر كطائفة دينية. فالمجلس الحاخامي حصل على صلاحيات واسعة نسبياً، وتمَّ تثبيت سلطته القضائية الحصرية بشأن الأحوال الشخصية.

ورثت دولة اسرائيل هذا الوضع. وفي ١٩٥٥، لم يحافظ التشريع المدني الذي أقرّه الكنيست على «الوضع القائم» فحسب بل عزز أيضاً سلطات المجلس الحاخامي الذي يشرف على المحاكم الدينية المحلية المكلّفة بالدرجة الأولى بقضايا الأحوال الشخصية. مذ ذاك، صار رئيس الدولة هو الذي يعيّن القضاة الحاخاميين، شأنهم في ذلك شأن القضاة المدنيين. كما أصبح يتعيّن على اولئك القضاة أن يقسموا يمين الولاء للدولة التي تدفع لهم اجوراً. في الواقع، يتجاوز نُفوذ الحاخامية الكبرى الصلاحيات الكبيرة اصلاً التي يمنحها إياها القانون المدني. فالأحزاب السياسية الدينية تأخذ آراء هذه الحاخامية في الاعتبار، بوجه عام. كما يتجلّى نفوذ السلطات الدينية في جوانب عدة من الحياة السياسية الاسرائيلية. ومن شأن هذا التدخل في حياة المواطنين اليومية أن يكون مصدر نزاعات عدة.

---

(٩) المرجع رقم ٢.

أهم النزاعات: التربية

لم تسمح المفاهيم المتباينة القائمة بين الدينيّن والعلمانيين بوضع دستور مكتوب لدولة اسرائيل. فاعلان الاستقلال يضمن حرية الدين والمعتقد واللغة والتعليم والثقافة لجميع سكان اسرائيل، وهو لا يزال النص الاساسي للدولة. يضاف الى هذا ان الكنيست يُعّد تدريجياً تشريعاً كاملاً في مجالات الحياة المدنية على أن تدرَج أحكامه الاساسية في نص الدستور اذا رأى النور ذات يوم. ذاك ان رجال الدين يعارضون في الواقع كل تحديد للدولة وأجهزتها بمقدار ما يكون التشريع الديني متناقضاً مع التعاليم الدينية.

من المسلّم به أن رجال الدين يجهدون في ممارسة نفوذهم على الطبقات الشعبية. ومن البديهي أن احدى الوسائل الميسّرة لبلوغ هذا الهدف هي تعليم الاولاد. من هنا، نشأ نزاع اول بصدد قانون التربية. ففي البيشوف، لم يكن التعليم الابتدائي الزامياً، وكان كل اتجاه سياسي ينشىء مدارسه الخاصة. كان «العلمانيون» و«الصهيونيون العموميون» و«العمّاليون» يديرون شبكات مدرسية متميّزة تقابلها مدارس حزبَيْ «مزراحي» و«اغودات اسرائيل».

لقد أبقى قانونٌ أول حول التعليم الابتدائي الإلزامي كل هذه التيارات الايديولوجية المختلفة وحافظ عليها. غير أن منافسةً حادّة اتسعت في معسكرات المهاجرين بين المؤسسات المُدارة من الأحزاب السياسية. لذلك اقترح العمّاليون والصهيونيّون العموميون اجراء تغييرات في هذا النظام المكلف والقليل الفعالية، مطالبين بالغاء الاتجاهات الايديولوجية وبخلق شبكة مدرسية واحدة تحت اشراف الدولة وادارتها. على ان القانون الجديد حول التعليم الالزامي والمجّاني الذي أقرّه الكنيست سنة ١٩٥٣ أنشأ من جهة شبكة من المدارس الدينية المُدارة من قبل الدولة انما المتمتّعة بوضع خاص داخل التعليم العام كما أنشأ من جهة اخرى شبكة علمانية.

رفض اغودات اسرائيل وحركات دينية متطرفة اخرى هذه التسوية التي كانت ثمرة مفاوضات شاقة بين حزب مزراحي والأحزاب العلمانية، والتي أبقت على شبكته المدرسية الخاصة وطوّرتها لكنها جعلتها مُصانة مالياً من الدولة. في الخمسينات، كان حوالي ثلث الأولاد يرتادون المدارس الابتدائية الدينية، العامة أو الخاصة. فمنذ بداية السبعينات، تشهد هذه النسبة تراجعاً طفيفاً. لكن اغودات اسرائيل يوسّع في الوقت ذاته شبكة مؤسساته الثانوية. وعليه، فان الشباب الديني والشباب العلماني ينفصلان منذ أيام مقاعد الدراسة. وقد تفاقم الانقسام الايديولوجي الناجم عنه خلال العقدين الأخيرين.

الحياة العامة والتقيّد بالتعاليم الدينية

لقد نجح المتديّنون في فرض وجهة نظرهم المتعلّقة بالتقيّد بعطلة السبت والأعياد

اليهودية التي يعطَّل فيها رسمياً. كذلك تُحترم قواعد «الكاشروت»[٨] في المؤسسات العمومية والجيش وتُحظر تربية الخنازير في القرى اليهودية. كما أمكن الوصول الى توافق بالنسبة الى الخدمة العسكرية للفتيات المتديّنات اللواتي أُعفين منها، أسوةً بطلاب الييشفوت (المدارس الدينية). لكن المواجهة تبدو اكثر حدّة حول مسألة تشريح الجثث التي يمنعها الشرع الديني. إن هذا الاتفاق التعايشي يبقى هشاً. فالمدن اليهودية تنام مساء يوم الجمعة ولا تستيقظ مجدداً إلاّ مساء السبت. ذلك أن عطلة السبت والأعياد اليهودية تبدأ عند غياب الشمس وتنتهي مساء اليوم التالي مع ظهور أول نجمة. ولا يسير أى باص ولا أي قطار من وسائل النقل العام، إنما فقط بعض سيارات الأجرة الجماعية، الأكثر كلفة، والسيارات الخصوصية. كما تُقفل دور السينما والمسارح وجميع أماكن التسلية والترفيه. أما برامج الاذاعة والتلفزيون المخفّضة الى الحدّ الأدنى، فيطالب المتديّنون بإلغائها التام. ومن الطبيعي ان هذا الوقف الكامل لكل نشاط خلال عطلة السبت يضايق العديد من الاسرائيليين المتحرّرين من ممارسة الواجبات الدينية. ويحدث احياناً ان يرشق شباب متطرفون دينياً بالحجارة السيارات التي تمرّ في شوارع احيائهم يوم السبت، او يجهدون في منع مظاهرة منظّمة خلال عطلة السبت، بكل وسائل العنف المتاحة لهم. إن مثل هذه الحوادث تتكاثر منذ بداية الثمانينات.

على ان عطلة السبت تثير في مجتمع حديث مشكلات أخرى غير تلك المتعلقة بسلوى المواطنين. فثمة خدمات لا بدّ من تأمينها، وهناك مصانع لا تستطيع ايقاف كل نشاطها يوم السبت رغم معارضة المتديّنيين. والحال أن اليهودي المتديّن في اسرائيل يرفض أن يأخذ دوره في الفريق المستدعى للعمل في هذا اليوم. لذلك يحدث ان يرفض بعض أرباب العمل استخدام مواطنين معتبرين مغالين في تديّنهم. في المقابل، يتحدث المتديّنون هم أيضاً عن تمييز حاصل في حقّهم. وهكذا، يتّضح أن الصعوبات الناشئة عن التقيّد بأقدم التعاليم التوراتية ليست سوى وجه من أوجه النزاع بين التقليد والحداثة.

الهوية اليهودية وقانون العودة.

لكن هذه المشكلات ليست الأكثر خطراً، فهناك مشكلات اكثر إيلاماً وجوهرية تتعلّق بالمواجهات الناشئة عن تحديد الهوية اليهودية وما ينجم عنها من قوانين متعلّقة بالأحوال الشخصية. فقانون العودة ينصّ على أن لكل يهودي الحق في الهجرة الى اسرائيل وفي الحصول تلقائياً على الجنسية الاسرائيلية. فضلاً عن ذلك، تقترن وضعية المهاجر هذه بعدة منافع مادية. والحال ان قانون العودة لا يحدّد مَن هو اليهودي وهذه الثغرة تسبّب مشكلات عدة. ففي أواخر الستينات، وصلت الى اسرائيل مجموعة كبيرة من يهود بولونيا

(٨) الكاشروت (Cacherouth) هي قواعد ذبح وأكل لحم الحيوان حسب التقاليد الدينية اليهودية.

بينها العديد من الأزواج المنتمين الى دينين مختلفين (اليهودية والمسيحية). وقد أثار هذا الوضع مشكلة النساء المسيحيات اللواتي غالباً ما أنقذن رجالهن من الاضطهاد الهتلري.

في ١٩٥٨، كان وزير الداخلية ينتمي الى حزب «أحدوت هعفودا»، وكانت تلك فرصة له كي يعطي تعليمات للدوائر المختصة باعتبار كل من يُعلن عن حسن نية أنه يهودي بأنه كذلك. لكن هذه المبادرة تتحايل على التحديد الحاخامي الذي يعتبر أن اليهودي «هو الشخص المولود من ام يهودية أو الذي اعتنق اليهودية امام محكمة حاخامية ارثوذكسية (تقليدية متزمتة)». ثم ثبّت مجلس الوزراء هذه التدابير مكملاً إياها بالإضافة التالية «يكون يهودياً كل من لم يعتنق ديناً آخر». على ان هذا التنازل الذي حصل لصالح حزب مفدال قد تعارض مع مطالب مجموعة من المسيحيين ذوي الأصل اليهودي الراغبين في الحصول على الجنسية الاسرائيلية بمقتضى قانون العودة. فكان أن تحقق مطلبهم هذا سنة ١٩٦٢، من خلال دعوى الأخ دانيال التي أحدثت ضجة كبيرة.

الزيجات المختلطة

كثيرة هي المشكلات التي تثيرها الزيجات المختلطة. فالمؤسّس داڤيد بن غوريون المتعلّق بالايديولوجية الاشتراكية رفض الزواج الديني الى حدّ انه قبل بأن يتزوّج ابنه من امرأة غير يهودية. وفي ١٩٥٨، وجّه بن غوريون كتاباً الى ٤٥ حكيماً من حكماء اسرائيل، أي من حاخامي الدولة العبرية والدياسبورا الممثّلين لجميع اتجاهات اليهودية المعاصرة كما الى اساتذة جامعيين وقضاة وكتّاب ممثّلين للفكر «العلماني» اليهودي طالباً منهم تحديداً حديثاً ومعاصراً لليهوديّ. لكن هذه المشورة لم تقدّم حلاً حقيقياً للمشكلة. وتكاثرت الحوادث. وضع الكنيست يده على القضية وأقرّ نظاماً يحدّد الهوية اليهودية بالنسبة الى قانون العودة والقيد في سجلات الأحوال الشخصية. وكان هذا التشريع المدني الجديد المعدّ سنة ١٩٧٠ اكثر ليبرالية من التحديد الديني: فقد منح بخاصة النساء غير اليهوديات المرتبطات بزيجات مختلطة أولادهنّ حق الافادة من قانون العودة. لكنه لم يحلّ سوى بعض جوانب المشكلة. فالمتديّنون يقاومون بشدة التحديدات الجديدة. يضاف الى ذلك ان حالة الزواج بين اليهود وغير اليهود وبخاصة بين أولاد زوجَيْن من دينَيْن مختلفين وشريك يهودي لم تجد حلاً لها. ذلك ان التقليد اليهودي يعتبر أن الولد المتحدّر من زواج بين أب يهودي وأم غير يهودية لا يستطيع الزواج من شريك يهودي إلاّ اذا اعتنق اليهودية شخصياً.

من جهة أخرى، لا تعترف الحاخامية الاسرائيلية بحالات اعتناق اليهودية على يد الحاخامين المحافظين والاصلاحيين. والحال ان مثل هذه الحالات عديدة في الولايات المتحدة. لكن نواب الأحزاب الدينية يحاولون أن يمرّروا في الكنيست تعديلاً لقانون العودة

يفرض عدم الاعتراف إلاّ بيهودية من يعتنق هذه الديانة «حسب قواعد الهالاخا»(١٠).

في ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥، نظّمت السلطات الاسرائيلية «عملية موسى» التي نُقل بموجبها الى اسرائيل نحو ١٥ الفاً من الفالاشا (يهود اثيوبيا) في عملية متعدّدة المصاعب. طوال قرون عدة، عاش هؤلاء الفالاشا المتديّنون على هامش اليهودية العالمية. لذلك شكّكت الحاخامية الاسرائيلية في يهوديتهم واندلع نزاع بين الحاخامية والسلطات المدنية، وولد عند الفالاشا شعور بالدونيّة والسخط والنقمة. حينئذٍ، فرضت عليهم الحاخامية الاسرائيلية، رغم تدّخل الحاخام السيفارادي الأكبر اوڤاديا يوسف، «اهتداء جديداً» (الختانة) كشرط مسبق لكل زواج.

ان المفاهيم التيوقراطية التي تحاول الأحزاب الدينية والحاخامية الكبرى فرضها في اسرائيل تتعارض تعارضاً صارخاً مع النزعة العلمانية لمؤسسي اليشوف المتأثرين بالايديولوجية الاشتراكية. فالأحزاب السياسية الحالية منقسمة حول المسائل الدينية ولا سيما حول الزواج المدني. فمنذ ١٩٧٦ حتى اليوم، تسقط بانتظام كل المشاريع المرفوعة الى الكنيست في هذا الصدد.

استناداً الى ما سبق، يبدو ان التوترات بين الشرقيين والغربيين تنحسر قليلاً بينما تشتدّ في المقابل التوترات بين المتديّنين والعلمانيين ولا يظهر في الأفق المنظور حلّ معيّن لهذا الصراع.

٣ ـ التوتّر بين جيل الشباب وجيل الكبار

ثمة موضوع نزاع ثالث في اسرائيل حيث يتجابه القدامى والقادمون الجُدد وبوجه خاص «الصاباريم» والمهاجرون الوافدون. في الواقع، حتى الاندماج الاجتماعي والاقتصادي الناجح لا يلغي عند المهاجر الجديد، سواء كان من أصل غربي او شرقي، كل تعلّقاته بالدياسبورا. فنمط عيشه يبقى، رغم التكيّف، متأثّراً بماضيه الثقافي. والحال ان الشباب الذين كبروا في اسرائيل يرفضون هذا الماضي الدياسبوري ومخلّفاته. فالسلسلة الطويلة من الآلام والاضطهادات التي ميّزت تاريخ يهود الدياسبورا لا تعني الشيء الكثير بالنسبة الى هؤلاء «الصاباريم» (المولودين في اسرائيل). كما ان ايديولوجيات «الآباء مؤسسي الدولة العبرية» هي بالنسة الى هؤلاء الشباب أشبه بالخرافات والأساطير. زد على ذلك ان العديد من المهاجرين أنفسهم ما عادوا يقبلونها. واللغة نفسها قد تخلق تبايناً بين الشباب وجيل الآباء. حتى ولو تعلّم المهاجر اللغة العبرية فانه لم يمتلك هذه اللغة ـ وهذا هو شأن الاكثرية الكبرى ـ مثلما يفعل المراهقون الذين تعلّموا في النظام المدرسي الاسرائيلي.

---

(١٠) قواعد الشريعة اليهودية.

إن الفتى الاسرائيلي، خصوصاً اذا كان شرقياً، يرى نفسه ممزّقاً بين عالمين، بين نموذجين حضاريين: نموذج عائلته حيث لا تزال العادات السلفيّة هي السائدة، وحيث لا تزال لغة البلد الأصلي مُتكلّماً بها احياناً، والنموذج التي تقدّمه المدرسة والذي ينطوي على نظرة الى حضارة جديدة. في ١٩٨٨، احتفلت اسرائيل بعيدها الأربعين الذي كشف أن ساعة البديل قد حانت. «فالصاباريم» باتوا الأكثرية بالنسبة الى المهاجرين. ولما كان عددهم يتزايد اكثر فاكثر، فإنهم يشغلون المناصب الرئيسية في المجتمع الاسرائيلي. إنهم متأصّلون في هذا البلد الذي وُلدوا وتربّوا فيه، والذي يدافعون عنه. لذلك، فان «الصابار»، الذي هو أول المشاركين على جبهة القتال ضد العرب هو ايضاً ضحية الحرب الأولى. ويتطلّع هذا «الصابار» الى مجتمع على غرار المجتمعات الاستهلاكية الغربية دون ان ينسى بانه يعيش في الشرق الأوسط.

وعلى الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، يواجه هذا الصابار الشاب صعوبات عدة كما يجد صعوبة متزايدة في فهم المنافع المادية المقدَّمة للمهاجرين الجُدد. من هنا، يتحوّل صراع الأجيال في اسرائيل الى تنافس بين «الصاباريم» والمهاجرين الوافدين. وينجم عن هذا الصراع من اجل تأكيد الخصوصية الثقافية والاندماج في الحياة الاقتصادية نوع من انطواء «الصاباريم» على أنفسهم: ذاك أن ٨٠٪ من الشباب اليهود المولودين في اسرائيل يتزوّجون فيما بينهم!

الوافدون السوفيات في مواجهة بؤر التوتر

بعد هذا العرض المسهب لواقع الاختلافات والتباينات الإتنية والاجتماعية والاقتصادية داخل المجتمع الاسرائيلي، يجدر بنا التساؤل عن التأثير الذي قد تتركه هجرة اليهود السوفيات، الوافدين الآن بكثافة، على هذا الواقع بمختلف تشعّباته.

لقد بات من المعروف ان عدد الوافدين السوفيات الى اسرائيل سيقارب المليون نسمة حسب تصريحات مختلف المسؤولين الاسرائيليين وتقديرات مختلف الأجهزة المعنيّة بهذه المسألة. وهذا يعني على الصعيد الديموغرافي ان هؤلاء المهاجرين سيزيدون عدد سكان الدولة العبرية بنسبة ٢٥٪ تقريباً. ومن البديهيّ، والحالة هذه، ان يكون لهذا الدفق البشري المعادل لربع السكان انعكاس ذو دلالة على التركيبة المجتمعية الاسرائيلية.

اولاً، من الناحية الديموغرافية، سوف يختلّ الميزان السكّاني ثانية لمصلحة اليهود الغربيين (الأشكناز) بعدما سجّل الشرقيون في السنوات الأخيرة تقدماً ملحوظاً في هذا المجال، لا سيّما بين «الصاباريم» المولودين في دولة اسرائيل (٦١٪). ومن الطبيعي ان يلتقي هذا التطور السكّاني مع التوجه القديم لمؤسسي الدولة، منذ أيام بن غوريون والرامي الى استبعاد «شَرْقَنَة» المجتمع الاسرائيلي بكل الوسائل الممكنة والمتاحة.

ان هذا «التغربن» الزائد ينطوي في طياته على مضامين ثقافية عدة، سواء لجهة نمط العيش (الملبس، المأكل، السلوكات، الحياة العائلية الخ...) أم لجهة تعزيز موقع الثقافة الأشكنازية في نظام التعليم الاسرائيلي بعدما خاض ا ـفارديم نضـالاً طويـلاً ومريـراً لانتـزاع قرار بتضمـين المناهـج التعليمية بعض الـدروس المتعلقة بأدبهم وتـاريخهم وموسيقاهم وجغرافية بلدانهم الأصلية!.

وهنا، يجدر التوقف عند التركيب المهني للمهاجرين اليهود الوافدين من الاتحاد السوفياتي[١١] لنشير، استناداً الى وقائع الماضي، (أنظر الجـدول رقم ٦) الى ان هؤلاء تميّزوا بارتفاع نسبة «العلماء والاكاديميين» بينهم وكذلك نسبة مَن يرتبط بهم من «الفنيين والتقنيين الآخرين» كما تميّزوا بارتفاع نسبة «العمّال المهرة» العاملين في الصناعة والنقل والبناء، وهي فئة شكلّت ما يفوق عن ثلث مجموع العاملين طيلة الفتـرة التي تناولتهـا الدراسة، في حين شكّل العلماء والاكاديميون الخمس في بداية الثمانينات و١٤٪ و١٧٪ من العاملين خلال النصف الأول والثاني من السبعينات، على التوالي.

ويمكن القول إنّ هذه السمة الغالبة للمهاجرين السوفيات ستبقى هي ذاتها انطلاقاً من كون يهود الاتحاد السوفياتي يتميّزون بمستوى مرتفع من التعليم قياساً الى اجمالي السكّان السوفيات: فمع ان عدد اليهود لا يتجاوز ١,١٪ من مجموع السكّان السوفيات، فان اليهود يشكلّون ١٤,٧٪ من مجموع أطباء الدولة و١٤٪ من الكتّاب و٢٣٪ من الملحنين والمؤلّفين و١٣٪ من الفنّانين و١٠,٤٪ من المحامين[١٢].

باختصار، لقد ثبت من خلال الدراسات السـابقة في هـذا المضمار ان مهـاجري الاتحاد السوفياتي الذين وصلوا الى اسرائيل خلال فترة ١٩٧٠ ـ ١٩٨٣ يتمتعّون بثقافة أكاديمية عالية، ويتميّزون بنسبة هجرةٍ معاكسة منفخضة (مغادرة اسرائيل) وبمستـوى دخلٍ شهري متوسط.

تأسيساً على ذلك، يمكن الاعتبار بأن هؤلاء الوافدين الجُدد سيفرضون على سلطات الدولة العبرية ايجاد وظائف جديدة متلائمة مع إعدادهم الاكاديمي، وسيزيدون من حدّة ازمة البطالة بوجه عام (أكثر من ١٠٪ من القوى العاملة في شهر آب ١٩٩٠) وازمة بطالة المثقفين بوجه خاص.

من جهة أخرى، اذا أخذنا في الاعتبار كون اليهود السوفيات من المهاجرين الذين يستقرّون في الدولة العبرية بدرجة كبيرة وقلّما يفكرون في مغـادرتها من جـديد، بعكس

(١١) جورج القصيفي: «الهجرة اليهودية الى فلسطين في اربعين سنة» جريدة الديار،في ٩ و١٢ و١٥ أيار ١٩٩٠.
(١٢) ارشيف دار الجليل، نقلاً عن نبيل خليفه: «اليهود السوفيات بالأرقام» دراسات الفجر المقدسية، مذكور في المرجع السابق.

جدول رقم ٦:
التوزيع النسبي للمهاجرين الناشطين اقتصادياً (١٥ سنة واكثر) حسب المهنة ١٩٧٠ ـ ١٩٨٣

المهنة	١٩٧٠ ـ ١٩٧٤		١٩٧٥ ـ ١٩٧٩		١٩٨٠ ـ ١٩٨٣	
	المجموع	الاتحاد السوفياتي	المجموع	الاتحاد السوفياتي	المجموع	الاتحاد السوفياتي
المهن العلمية والاكاديمية	١٥,٧	١٣,٩	١٧,٧	١٦,٥	١٨,٨	٢٠,٠
المهنيون والفنيون الآخرون	١٦,٤	١٦,٦	١٨,١	١٧,٥	١٩,١	١٨,٧
الاداريون والكتبة	٢١,٢	١٦,٩	١٨,٣	١١,٩	١٧,٥	١٢,٢
العاملون في الانتاج والنقل والبناء	٢٨,٨	٣٥,٢	٢٧,٨	٣٩,٤	٢١,٩	٣٤,٣
غيرهم	١٧,٩	١٧,٤	١٨,١	١٤,٧	٢٢,٧	١٤,٨
المجموع	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠
الأرقام المطلقة	٧١,٦	٣٧,٤	٤٠,٤	١٩,٧	١٥,٤	٤,١
متوسط سنوات الدراسة[1]	١١,٥	٠٠٠	١٢,١	٠٠٠	١٢,٧	٠٠٠

المصدر: المجموعة الاحصائية الاسرائيلية. Israël, 1988, pp. 156, 166-167 مذكور في: د. جورج القصيفي، الحاشية رقم ١٠.

الوافدين من اميركا واوروبا الغربية، فانه يمكن القول إن زيتاً جديداً سيُصَبّ على نار صراع الأجيال المتمثّل خصوصاً بالتنافس بين المهاجرين الوافدين وبين «الصابايريم»، لا سيما مع ازدياد حجم التقدمات والتسهيلات المعطاة لهؤلاء الوافدين الجُدد على حساب تحسين أوضاع «الصابايريم» الذين تحمّلوا سابقاً اعباء مرحلة التأسيس ومشقّاتها وصعوبتها والذين سيُطلب منهم اليوم مجدداً المزيد من التضحيات.

أخيراً، ما هي انعكاسات الهجرة السوفياتية المحتملة على الحياة السياسية في اسرائيل وعلى موازين القوى الحزبية، السياسية والدينية؟ من المعروف ان اليهود القادمين من الاتحاد السوفياتي عاشوا عقوداً من الزمن وسط نظام توتاليتاري تغيب عنه حرية التعبير وممارسة النشاط السياسي. مما يعني ان توقهم الى التعويض عن غبن الماضي وكبته قد يتمخّض عن سعي حثيث وبارز الى لعب دور سياسي جماعي في المجتمع الاسرائيلي. ومن الطبيعي ان ثقلهم الديموغرافي المنتظر سيطرح في الدرجة الاولى مسألة تمثيلهم، وتالياً، زيادة عدد مقاعد الكنيست بما يتناسب مع الزيادة السكّانية المرتقبة، ثم مسألة تعديل قانون الانتخاب. وهذا الموضوع الأخير مطروح للمناقشة والمساومة منذ سنوات، لا سيّما بين العلمانيين والدينيين، وقد تشكّل حتمية البتّ فيه، مع استكمال مجيء اليهود

السوفيات، مناسبة لحسمه. على ان حسمه يعني،في ما يعنيه، تأجيج الجدل السياسي وربما النزاع الحادّ بين مختلف التيارات والنزعات السياسية الاسرائيلية، العلمانية منها والدينية. اما دور اليهود السوفيات في ميزان القوى السياسية الإسرائيلية، فمن الصعب التكهّن به، منذ الآن، وإن كان بالامكان إثارة بعض التساؤلات في هذا الصدد، أهمّها:

أ ـ هل سيكوّن جمهور الوافدين السوفيات المتأثر حُكماً بالنظام الاشتراكي العلماني الذي عاش في ظلّه عقوداً من الزمن دفقاً سياسياً جديداً يصبّ في مصلحة التيار الاشتراكي الاسرائيلي، وتالياً في مصلحة حزب العمل بوجه خاص، وبقية الحركات اليسارية الموجودة على الساحة الاسرائيلية، ام ان هذا الجمهور المتفلّت حديثاً من قيود الشيوعية السوفياتية والمتحرّر بفضل نهج البريسترويكا الليبرالي، ستكون له ردّة فعل عكسية ضد التوجهات الاشتراكية، خصوصاً اذا أحسنت الحكومة اليمينية ـ الدينية الحالية في اسرائيل استقطاب غالبية المهاجرين السوفيات من خلال الاهتمام بانجاح استيعابهم ودمجهم في المجتمع الاسرائيلي على نحو يرضي هؤلاء ويضمن ولاءهم السياسي؟

ب ـ هل ستظهر عند جمهور الوافدين السوفيات العائشين والمتربّين في ظل نظام علماني نزعة رافضة ومستهجنة للتيّار الديني المتعاظم في دولة اسرائيل، والذي يدعو الى التقيّد بقواعد «الهالاخا» في الحياة الاجتماعية والى إقامة دولة يهودية خاضعة لأحكام الشريعة الدينية، ام انه ستبرز عند غالبية هؤلاء الوافدين السوفيات، المعانين من كبت ديني متمادٍ طوال سنوات من الحكم الشيوعي الملحد، ردّة فعل عكسية، هنا أيضاً، بحيث تتوزّع أصوات ناخبيهم على مختلف الأحزاب الدينية بما يعزّز مواقع هذه الأحزاب، بعد التقدم الذي أحرزته في الأعوام الأخيرة.

لئن كان من الصعب التنبّؤ بالمنحى السياسي الغالب الذي سيسلكه جمهور الوافدين السوفيات الجُدد، فانه من السهل بالمقابل ان نتوقع حصول تزاحم شديد بين اليمين واليسار وبين العلمانيين والدينيين على استمالة هذه الشريحة الاجتماعية الجديدة التي سيكون لها، لا محالة، وزن سياسي هام انطلاقاً من وزنها الديموغرافي الكبير (ربع سكان اسرائيل)، والتي من المحتمل ان تبدّل صورة التركيبة السياسية للدولة العبرية، اذا ما حافظت على قدر معقول من التماسك بين الفئات الداخلية.

مراجع البحث

١ Klein Claude, Le système politique d'Israêl, Paris, P.U.F., 1983;
٢ Cohen Shalom, Dieu est un baril de poudre, Calmann-Lévy, 1989.
٣ Merhav Peretz, La gauche israélienne, Paris, Authropos, 1973.
٤ Rodinson Maxime, Peuple juif ou problème juif? Paris, Maspero, 1981.
٥ Bensimon Doris et Errera Eglal, Israéliens des juifs et des arabes, Ed. Complexe, 1989.

شركة جورج متى ش.م.ل.

للمفروشات

المنزلية — الفنادق

المدرسية — الشاليهات

المكاتب — الحدائق

العاب الأولاد

المعمل والادارة

٤٨٤٨١٥ ـ ٤٨٤٨١٦ ـ ٤٨٤٨١٧

فرع الدكوانة

٣٩٣٤١٠/١/٢ ص.ب. ٥٥٠٨٨ سن الفيل تلكس: JOMATA ٤١٢١٤ LE العنوان البرقي: جو متى

جل الديب

الاوتستراد: هاتف ٤١٢٤٦٧ ـ ٤١٣٣٢٢

الجمهور

الطريق العام: هاتف ٤٢٠٨١١

شركة الأنابيب الوطنية

شركة مساهمة لبنانية رأس مالها ٤٨,٠٠٠,٠٠٠ ل.ل.
(سجل التجارة: ٥١٦٨)

المركز الرئيسي:
الإدارة العامة
قسم المبيعات
المعمل:
دكوانه - لبنان

الهاتف: ٤٨٢٥٧٦-٤٨٢٢٦٤
العنوان التلغرافي:
سوناتوب - بيروت
صندوق البريد: ٤٢٨٦

مجهّز بأحدث الآلات الكهربائية

لإنتاج الأنابيب الفولاذية لجرّ المياه والغاز

مصنوعاته: قساطل سوداء ومزيبقة

من قياس: ½" - ¾" - 1" - 1¼" - 1½" - 2" - 2½" - 3" - 4" - 5" و 6"

من نوع الخفيف والمتوسط

أزمة الخليج

ظروفها الدولية، الخيارات المطروحة ونتائجها المرتقبة

العميد الركن أديب سعد*

مقدمة

بغية إزالة التوتّر الذي ساد العلاقات العراقية ـ الكويتية قبيل الهجوم العراقي على الكويت، عُقد في جدة بتاريخ ٣١ تموز الفائت لقاء بين وفد كويتي برئاسة الشيخ سعد العبدالله الصباح رئيس وزراء وولي عهد الكويت ووفد عراقي برئاسة السيد عزت ابراهيم، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة. قبل دخوله الى الاجتماع صرَّح رئيس الوفد الكويتي ان النزاع مع العراق هو «أزمة عابرة» فيما كانت الصحف العراقية الصادرة صباح ذلك اليوم تؤكّد «أن العراق متمّسك ومصمّم على استرداد حقوقه المشروعة كاملة وغير منقوصة». وكان العراق قبل اسبوع من الاجتماع، أي في الرابع والعشرين من تموز، قد دفع الى حدوده مع الكويت بفرقتين مدرَّعتين اشترط لسحبهما الحصول على تعويض قدره مليارين واربعمائة مليون دولار[١]. أما الأوساط الكويتية فقد فسَّرت هذا الحشد في حينه بأنه يهدف الى ممارسة ضغط إضافي في اثناء اجتماع «اوبيك».

---

* عميد متقاعد ـ قائد المدرسة الحربية سابقاً.

(١) Express - 10 Août 1990 - p. 24

لم تمرّ ست وثلاثون ساعة على لقاء جدة حتى كان الجيش العراقي قد أتمّ احتلال الكويت بهجوم مفاجىء وصاعق شنّه صباح الثاني من شهر آب.

بهذه الطريقة وبقوة السلاح، حلّ الرئيس العراقي صدام حسين أزمة اقليمية مزمنة بين حكّام العراق وامراء دولة الكويت، مفادها أن إمارة الكويت هي برأيه جزء من الأراضي العراقية. لكن هذا الحل أدّى الى نشوء أزمة عالمية حادّة لا تقلّ خطورة عن الأزمتين اللتين سبقتا الحربين العالميتين، الأولى والثانية.

والخطير في هذه الأزمة هو أنها الأولى التي يشهدها العالم بعد نهاية الحرب الباردة وتراجع الصراع الستراتيجي والايديولوجي، وأنها تأتي في وقت ينتظر العالم حلول نظام عالمي جديد ينعم فيه بالسلام والحرية والاستقرار.

واجه العالم التصرف العراقي بردّات فعل على كافة المستويات حيث نشطت المساعي الديبلوماسية وتكثّفت الاجتماعات في قاعات البنك الدولي لمعالجة الانعكاسات الاقتصادية الخطيرة على دول العالم الغنيّة والفقيرة، وأصبحت اجتماعات مجلس الأمن شبه متواصلة. استنكرت معظم الدول العدوان. وفي حين اكتفى بعضها بالإدانة، لجأ البعض الآخر الى حشد الجيوش والأساطيل وفرض الحصار وإطلاق التهديدات والكل يبحث عن الوسائل والحلول الكفيلة بإرجاع الوضع الى ما كان عليه قبل الثاني من آب، مع أخذ الاحتياطات التي تحول دون تكرار ما حصل في المستقبل.

قبل البحث في الحلول المطروحة لتسوية هذه الأزمة والنتائج التي سوف تترتّب عليها، لا بدّ من تسليط بعض الأضواء على الأوضاع العامة التي تسود المنظمات الدولية والدول المعنيّة بتلك الأوضاع، والتي ساهمت في الوصول الى هذا المأزق أو قد تساعد في ايجاد الحلول الملائمة له.

أولاً ـ الوضع العام للمنظمات الدولية والدول المعنيَّة بالازمة

قلّما عرف العالم أزمة عنته بالقدر الذي حصل له مع ما أُطلق عليها تسمية «أزمة الخليج». فدول هذه المنطقة هي أعضاء فاعلة في عدة منظمات دولية كالأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، ورابطة الدول الاسلامية، ومجلس التعاون الخليجي، و«اوبيك» وغيرها. كما أنها دول تزوّد بالنفط الكثير من البلدان الأخرى أو تستثمر أموالها لديها في مشاريع عمرانية، أو تقدّم المساعدات لبعضها. ولضيق المجال، سيتناول هذا البحث من المنظمات: الأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية، ومن الدول، تلك التي تعنيها الأزمة بنوع خاص واكثر من غيرها.

ـ أ ـ منظمة الأمم المتحدة

تعتبر هذه المنظمة المرجع الدولي الأعلى في المحافظة على السلام والأمن الدوليين؛ وقد حلّت بعد الحرب العالمية الثانية محل عصبة الأمم لعدم تمكّن هذه الأخيرة من القيام بما أوكل إليها.

تعرّضت منظمة الأمم المتحدة خلال السنوات الأخيرة الى عدة اتهامات كان من بينها الهيمنة الاميركية على تصّرفاتها الى درجة حملت بعض المسؤولين السوفيات على تسميتها «الكونغرس الاميركي».

واتُّهمت بالتقصير لعدم توصّلها الى نتائج في عدة انتهاكات للقوانين الدولية منها: ضمّ القدس الشرقية الى اسرائيل العام ١٩٦٨، واحتلال جزر تومب من قبل شاه ايران العام ١٩٧٤، وضم الجولان الى اسرائيل العام ١٩٨١، وعدم تنفيذ القرار رقم ٢٤٢ الذي ما زال منذ العام ١٩٦٧ يدين اسرائيل لاستيلائها على اراضٍ عربية.

أما محكمة لاهاي الدولية التي تشكّل أحد فروع هذه المنظمة، فقد بقيت عاجزة تجاه عدم اعتراف الولايات المتحدة الاميركية بصلاحيتها للنظر في خرقها للقانون الدولي، بإقدامها على قصف ليبيا وتلغيم مرافىء نيكارغوا.

إضافة الى ذلك، فإن عدة قرارات لم تشهد النور بسبب حق النقض (الڤيتو) الذي كان يتسلّح به الاتحاد السوفياتي حيناً والولايات المتحدة أحياناً.

إن ضعف هذه المنظمة، المتمثّل بعجزها عن تنفيذ قراراتها خصوصاً في منطقة الشرق الأوسط، قد يكون سبباً من الأسباب التي دفعت بالعراق الى أخذ ما يعتبره حقاً له بقوة السلاح.

يبقى أنه مع الأزمة الحالية، حيث للمرة الاولى منذ خمس واربعين سنة، يتّفق الجباران دون أن يستعمل أحدهما حق النقض ويعجزا عن ردع دولة من العالم الثالث تعدّ سبعة عشر مليون نسمة، فإن مصداقية هذه المنظمة أصبحت موضوعة على المحكّ وأصبح مصيرها مرشّحاً ليؤول الى ما آل اليه مصير عصبة الأمم.

من هذا المنطلق، نرى هذه المنظمة تتعامل مع الأزمة الحالية بجدّية لم يسبق لها مثيل. فمنذ اليوم الأول للأزمة انعقد مجلس الأمن وأصدر البيان رقم ٦٦٠ بأكثرية أربعة عشر صوتاً من أصل خمسة عشر، أدان فيه الغزو العراقي وطالب بغداد بسحب قواتها فوراً من الكويت وبدون شروط. تلا ذلك القرار رقم ٦٦١، الذي فرض عقوبات على بغداد، ثم القرار رقم ٦٦٢ الذي صدر بالإجماع رافضاً ضم الكويت الى العراق ومنذ ذلك الحين، ما زالت جلسات مجلس الأمن شبه مفتوحة وما زالت قراراته تتوالى الى ان بلغت العشرة

فارضة العقوبات التصاعدية على الأرض وفي البحر والجو.

ـ ب ـ جامعة الدول العربية

إن أكثر ما كانت تركّز عليه جامعة الدول العربية في مؤتمراتها، ومنها مؤتمر بغداد الذي انعقد في أواخر شهر أيار الفائت، هو: «ضرورة وحدة الكلمة والصف والهدف وتعزيز التضامن العربي وتنقية الأجواء العربية...». هذه المقررات كانت غالباً ما تبقى حبراً على ورق بحيث يُنتهك مضمونها قبل أن يجفّ الحبر.

وبدلاً من وحدة الكلمة، لجأت الدول العربية الى سياسة المحاور، فكان مجلس التعاون الخليجي ذات البنية الاقتصادية ـ العسكرية الذي تأسّس بناء على المساعي الكويتية، وكان يهدف الى الوقوف بوجه الأطماع العراقية. ولتطويق هذا المجلس، عُمد الى انشاء مجلس التعاون العربي. أما دول شمال افريقيا فقد أسّست مجلس التعاون المغاربي.

مع حصول الأزمة الأخيرة، تفكّكت هذه المجالس بدلاً من أن تتوحّد وتسعى الى الحلّ الناجع. هكذا، تجلّى عجز الجامعة العربية وفشلها في بلورة حلّ عربي للأزمة الخليجية واتّخاذ موقف موحّد من التدخل الأجنبي.

يُحكى حالياً عن حل ضمن اطار عربي، وهذا مستبعد دون مساعدة اجنبية في وقت تعيش الجامعة العربية أعمق انقسام عرفته منذ تأسيسها، العام ١٩٤٥، حيث أصبح يُحكى عن جامعتين، إضافة الى الخلافات حول وجود مقرّها في تونس او في القاهرة، وقد أضحت بلا رأس بعد استقالة أمينها العام الشاذلي القليبي إبان هذه الأزمة.

ـ ج ـ الولايات المتحدة الاميركية

يبلغ مصروف الولايات المتحدة الاميركية من النفط ربع الاستهلاك العالمي وتستورد منه يومياً ٢٠٠ الف برميل من الكويت وما بين ٥٠٠ و٦٠٠ الف برميل من العراق[٢].

وكان الرئيس كارتر قد وجّه في مطلع العام ١٩٨٠، رسالة الى الشعب الاميركي جاء فيها: «إن أية محاولة من جانب أية قوة أجنبية للسيطرة على منطقة الخليج الفارسي (العربي) سوف تُعتبر بمثابة عدوان على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الاميركية، ولسوف يقابَل مثل هذا العدوان بكافة الوسائل الضرورية بما في ذلك القوة العسكرية[٣]».

لقد تُرجم مبدأ كارتر هذا بانشاء قوات التدخل السريع المؤلّفة من ثلاثمائة الف

---

(٢) البيان، عدد ايلول ١٩٩٠ ص ٧٠

(٣) القومي العربي، العدد ٧٢ (١٠ ـ ٢٣) ايلول ١٩٩٠ ص ٣٤

مقاتل بمن فيهم مائة الف من الاحتياطيين(٤).

ولمّا كانت الدول الخليجية قد رفضت ان تستضيف حتى قيادة هذه القوة على أراضيها، كونها تثير الحساسيّات لدى شعوبها، فقد اتّخذت قيادة القوى مقراً لها في فلوريدا على بعد سبعة آلاف ميل بحري من منطقة تدخّلها، مكتفيةً، لحماية وتأمين تدفق النفط الى الغرب، بقواعد وتسهيلات بحرية وجوية على امتداد خطوط الملاحة النفطية في عمان، والصومال، وكينيا، وجزيرة ريوجرسيا في المحيط الهندي.

بقي تركيز قوة عسكرية على أراضي الخليج الهاجس الرئيسي للسياسة الاميركية التي كان عليها أن تنتظر وتتحيّن الفرص المناسبة ليُطلب منها ذلك. فاذا بأمنياتها تتحقّق كاملة، فتدخل الى المنطقة بناء على طلب من دولها وتحت غطاء الأمم المتحدة.

لم يكن قد مضى شهر على دخولها المنطقة الخليجية حتى باشرت بعض الصحف الاميركية والبريطانية بشن حملة على واشنطن، متّهمة إياها بأنها كنت وراء تشجيع العراق على القيام بعمله العدواني الى درجة أنه حُكي عن فضيحة «عراق غيت» (Iraq Gate)، وتبرر الصحف اتهاماتها بما يلي:

- منذ اوائل شهر آب وأحد مستشاري البيت الأبيض يردّد الجملة التالية: «لدينا شعور بأننا أوصلنا صدام حسين الى حيث نريد»(٥).
- قبل اسبوع من الغزو العراقي صرّحت سفيرة واشنطن لدى بغداد السيدة ابريل غلاسبي للرئيس العراقي بأنه «ليس لدولتها رأي في الخلافات العربية، كالنزاع بينه وبين الكويت وأن وزير الخارجية جيمس بايكر كلّف الناطق الرسمي باسم الادارة الاميركية التركيز على هذه الناحية»(٦).
- كان قد رافق ذلك تصريح للناطقة باسم وزير الخارجية الاميركي السيدة مرغريت تاتويلر ولمساعده لشؤون الشرق الأوسط جون كيلي، جاء فيه: «إن الولايات المتحدة الاميركية ليست مجبرة لمساعدة الكويت في حال هوجمت هذه الإمارة»(٧).

وتخلص الصحف الى القول إن هذه التصريحات جعلت الرئيس صدام حسين يعتقد أنه «أعطي الضوء الأخضر للقيام بعمله ضد الكويت».

---

(٤) الفكر الستراتيجي العربي، العدد ٨ ـ ٩ (تموز ـ تشرين الأول) ١٩٨٣ ص ٣٩١ نقلاً عن كتاب «قوة الانتشار السريع والتدخل العسكري الاميركي في الخليج»، لجيفري ريكورد.

(٥) Newsweek 20 Août 1990 repris dans le Monde diplomatique octobre 1990 p. 17

(٦) Washington Post repris dans International Hearald Tribune 15-16 septembre 1990 et le Monde diplomatique octobre 1990 p. 17.

(٧) Washington Post - Hearald Tribune 15-16 septembre 1990, Time et Newsweek, octobre 1990, Le Monde Diplomatique octobre 1990 p. 17

مهما يكن، فانه بعد انسحاب الاتحاد السوفياتي، الخصم التقليدي، عن الساحة الدولية، لم يعد أمام واشنطن مَن ينازعها في ترتيب الكون وفق متطلّباتها الستراتيجية، وان نجاحها في حل أزمة الخليج سيقرّر ما اذا كانت فعلاً قد أصبحت الدولة العظمى الوحيدة بعد نهاية الحرب الباردة.

يبقى أن هذه الدولة العظمى لم تعد تملك وسائل سياستها، فميزانها التجاري هو في عجز دائم، وهذا العجز الذي بلغ ٢٢٠ مليار دولار العام ١٩٨٦ يُنتظر أن يصل هذه السنة، بسبب أزمة الخليج وفي حال حصول صدام عسكري، الى ٢٥٠ أو ٣٠٠ مليار دولار[٨]. من هنا، كان تقاسم مصاريف الحملة الخليجية على الدول الغنية التي تستفيد من نفط هذه المنطقة.

ـ د ـ الاتحاد السوفياتي

ليس الاتحاد السوفاتي بحاجة الى نفط من الخارج، فإنتاجه يفيض عن استهلاكه. لكن، يوجد بينه وبين العراق تبادل اقتصادي كبير، فهو يقايض الأسلحة بالنفط العراقي ثم يعمد الى بيع النفط في الأسواق العالمية محقّقاً بذلك ايراداً بالعملة الصعبة التي هو بحاجة ماسة اليها، لا سيّما في الوقت الحاضر.

وبين العام ١٩٨٠ والعام ١٩٨٩، ابتاعت بغداد من موسكو أسلحة بقيمة ثلاثة عشر ملياراً وثلاثمائة وستة وتسعين مليون دولار[٩]. كما أن عدداً من الخبراء والمدرّبين العسكريين السوفيات كان يعمل في العراق وما زال يعمل فيه حالياً نحو مائتي مدرب عسكري[١٠].

ينصرف الاتحاد السوفياتي حالياً الى تدبير أموره الداخلية كالتوازن الاقتصادي الداخلي والتموين، حيث توجد أزمة يصعب على المراقبين تفسيرها. وهناك مشكلة الانتقال من النظام الاشتراكي الى نظام السوق الحرة والوقت الذي ستسغرقه فترة الانتقال هذه. وعلى كل حال، فهو بحاجة ماسة الى مساعدات اقتصادية يلتمسها أينما وُجدت.

إن هذه الانشغالات تُظهر وكأن موسكو قد تخلّت عن دورها القيادي في العالم مقابل واشنطن، لا بل وكأنها أصبحت تدور في فلكها، وكأن ما يجري حولها في العالم لم يعد يعنيها.

هذا ما جعل القادة العسكريين في الجيش الأحمر يشعرون بالقلق على المصير نظراً

---

(٨) Le Monde Diplomatique Septembre 1990

(٩) - Le Monde diplomatique - septembre 1990 p. 6

(١٠) - L'Express no 2044-14 septembre 1990 p. 6

لما يجري من حولهم ويعمل على تطويقهم. فعلى حدودهم الغربية تتوحّد المانيا وتقوى، ومن الشرق تنمو وتزدهر الدولة اليابانية، ومن الجنوب تحتشد القوات الأطلسية في منطقة الخليج والمحيط الهندي، ولم يبق أمامهم سوى الشمال حيث الجليد الدائم في القطب الشمالي.

مع هذا الوضع، لم يعد ما يمكن أن تقدّمه موسكو للعرب هو الوقوف بجانبهم واستعمال حق «الفيتو» ولا إمدادهم بالأسلحة كما تشاء بل تقدمة النصائح والإرشادات بتوحيد صفوفهم مما يجري في الخليج.

ويذهب وزير الخارجية أدوارد شفردنادزه إلى أبعد من ذلك عندما يدلي بتصريح للتلفزيون الأميركي أذاعته قناة إن.بي.سي (NBC) في ٣٠ أيلول الماضي وجاء فيه أن الاتحاد السوفياتي سيشارك بعمل عسكري ضد العراق وضمن نطاق الأمم المتحدة في حال قرّر مجلس الأمن ذلك[١١] وكان سبق لشفردنادزه أن شنّ، من على منبر الأمم المتحدة في ٢٥ ايلول الفائت، أعنف هجوم كلامي على العراق متّهماً إياه بأنه ارتكب عملاً ارهابياً ضد النظام العالمي الجديد. ولا يزال غورباتشوف على موقفه المتشدّد تجاه العراق.

ـ هـ ـ دول الخليج

أعطى هالفورد ماكندر[١٢]، في نظريته الشهيرة عن «قلب العالم»، منطقة الخليج أهمية خاصة كونها تربط بين قلبي العالم الغربي والجنوبي مستنداً بذلك الى موقعها الجغرافي. ولو قدّر لعالم الجغرافيا السياسية هذا أن يبقى حيًّا بعد ظهور أهمية البترول واكتشاف ما تحتويه هذه المنطقة من مخزون نفطي، لكان جعلها قلب العالم الوحيد وبدون منافس.

تنبّهت دول الخليج الى أطماع الغير في ثروتها الطائلة فحاولت حمايتها. فمنذ العام ١٩٨١، عمدت الى انشاء مجلس التعاون الخليجي لتنسيق الدفاع وحماية الاستقرار الداخلي. وانضمّت الى المجلس كل من المملكة العربية السعودية والكويت ودولة الامارات العربية المتحدة وقطر عمان والبحرين. كانت فكرة الانشاء كويتية وكأن هذه الإمارة تعرف ما يخبّئه لها المستقبل.

حاولت هذه الدول تقوية قواتها المسلّحة بشراء أسلحة حديثة ومتطورة إلاّ أن قلّة الخبرة في المجال العسكري وانعدام اليد المتخصّصة حالا دون تحقيق جيش قوي يمكنه

---

(١١) - Le Monde No 2187 (27 sep - 3 oct.) 1990 - p. 2

(١٢) عالم جيوبوليتيك بريطاني (١٨٦١ ـ ١٩٤٧) من نظريته «ان اوربا هي قلب العالم» ومن يسيطر على قلب العالم يسيطر على العالم بأسره عاطيا الأهمية للقوة البرية على القوة البحرية.

حماية الأنظمة والثروات الوطنية. مع ذلك، فقد رصدت لتجهيزاتها العسكرية، لعام ١٩٨٢، مبلغ سبعة واربعين مليار دولار وحقّقت معظم مشترياتها من الولايات المتحدة الأميركية ومنها صفقة طائرات الإواكس(١٣).

تشعر هذه الدول بأن أنظمتها ضعيفة وأنها بحاجة الى جيوش أجنبية تتمركز على أرضها لحمايتها، لكن شعوبها ترفض ذلك. وبعد اجتياح العراق للكويت والشعور بالخطر الداهم، اضطرت لاستقبال الحشد العسكري الغربي الكبير للدفاع عنها.

بالمقابل، يرى العالم الغربي أنه بحاجة ماسة لدول الخليج كونها تختزن، مع ايران، ٥٥٪ من مجموع الاحتياطي النفطي العالمي، وتنتج اكثر من ٢٥٪ من الانتاج العالمي، وتشرف على مضيق هرمز حيث يمرّ النفط الى اوروبا واميركا واليابان(١٤).

لهذه الدول سياستها الخاصة، وعلى الرغم من محاولات التغلغل من قبل دول شرق أوسطية اخرى، فنادراً ما عملت بتوجّهات وسياسات هذه الأخيرة.

ـ و ـ باقي الدول العربية

اذا استُثنيت من الدول العربية دول الخليج وليبيا، لا تبقى بينها أي دولة غنية، وكل هذه الدول تضرّرت، وإن بدرجات متفاوتة، من جراء ازمة الخليج، لكن الاردن ومصر يأتيان في رأس لائحة المتضررين.

إن جزءاً كبيراً من اقتصاد المملكة الاردنية الهاشمية يرتكز على ثلاثة مقوّمات: الصادرات لدول الخليج والعراق، المساعدات التي تأتيها من دول الخليج، والسياحة. وهذه المقوّمات الثلاثة أصبحت معدومة نتيجة الموقف الأردني المؤيّد للعراق.

أما مصر فكان نحو ثمانمائة ألف من أبنائها يعملون في العراق وحدها، وهؤلاء كانوا يحوّلون الى دولتهم ملياربن ومائتي مليون دولار سنوياً(١٥).

ومع الأزمة الحالية، بلغت الانقسامات بين هذه الدول أشدّها، ولم يبقَ من صديق للعراق سوى الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية والسودان وموريتانيا والجزائر وتونس.

---

(١٣) The Middle East. January 1982 - p. 16

(١٤) يؤمن الخليج: ٩٠٪ من حاجات اليابان
٧٠٪ من حاجات السوق الاوروبية المشتركة
٥٠٪ من حاجات الولايات المتحدة الاميركية

(١٥) U.S News and World Report - August 13 - 1990 p. 19

ـ ز ـ اسرائيل

إن الحشد العسكري الغربي في الخليج الموجَّه اصلاً ضد العراق يجعل من هذه الجيوش، بصورة غير مباشرة، قوات حليفة لإسرائيل. فالعراق هو، بين الدول العربية، من أقوى خصوم الدولة العبرية وألدّ أعدائها، وهو الذي هدَّدها قبل اجتياحه الكويت بأربعة أشهر بأنه «سيدمّر نصفها بالأسلحة الكيماوية المزدوجة في حال أقدمت على مهاجمة العراق».

وتفيد اسرائيل من أزمة الخليج بتحويل أنظار العالم عما تقوم به في الأراضي المحتلّة من توطين للمهاجرين الجدد ومن قمع للانتفاضة. ولولا مجزرة المسجد الأقصى، بتاريخ ٨ تشرين الأول، ولو لم يذهب ضحيتها نحو عشرين قتيلاً وما يقارب المائتين جريح، لما تنبّه العالم لما يجري هناك ولما انعقد مجلس الأمن وأدان تصرّفها.

كما تفيد اسرائيل من الحشد العسكري في وجه العراق لإكمال تسلّحها بهدوء وطمأنينة بتحقيق الأقنعة الواقية من الغازات السامة واستلام الصواريخ المتطورة من نوع «باتريوت» والمروحيّات الحديثة من نوع «أباتشي».

بالمقابل، فان تل ابيب، بوصول الجيش الاميركي الى منطقة الخليج دون أن يكون لها دور في ذلك، تفقد من أهميتها الستراتيجية بالنسبة لواشنطن كقاعدة قريبة من مصادر النفط يمكن الإفادة منها كمحطة وسيطة للدفاع عن المصالح الأميركية في هذه المنطقة.

أما أكبر فائدة تجنيها اسرائيل من الأزمة، فهي في حال حدوث صدام عسكري لأنه سيؤدي على الأرجح الى تدمير الآلة العسكرية العراقية.

ـ حـ ـ العراق

خرج العراق من حربه مع ايران مديوناً بمبلغ ثمانين مليون دولار(١٦). وفي حربه هذه، قدّم هو المقاتلين، لكن التمويل كلّف التحالف الدولي اربعمائة مليار فرنك فرنسي لمساندته وللتضييق على ايران(١٧). وبالرغم من دخله القومي من النفط، الذي يبلغ خمسة عشر مليار دولار(١٨)، فانه يواجه صعوبات داخلية أهمها مشكلة البطالة. تقابل ضعفه الاقتصادي هذا قوته العسكرية. فمع نهاية الحرب، كان لديه جيش قوامه مليون مقاتل ومجهّز بأحدث الأسلحة والأعتدة.

أوقف الحرب مع الفرس وتابع تطوير ترسانته الحربية ساعياً الى **وضعية الدولة**

---

(١٦) Le Point No 938 - 10 septembre 1990 - p. 12
(١٧) Le Monde diplomatique. septembre 1990 - p. 14
(١٨) البيان ـ ايلول ٩٠ ص ـ ٧١

الاقليمية الكبرى. ويعتقد بعض الخبراء أنه، خلال سنتين، سيكون بحوزته القنبلة النووية. فإذا أضيفت هذه الأخيرة الى ما لديه من أسلحة كيماوية، وبوجود الصواريخ التي بامكانها نقل القنابل المدمّرة الى مسافة ألف كيلومتر (الحسين والعباس) والى مسافة ألفي كيلومتر (العابد) فإنه يهدّد عواصم المنطقة كافة، إضافة الى القسم الجنوبي من الاتحاد السوفياتي.

وقد أفاد مؤخراً ضباط سودانيون يعملون في الخليج أن العراق نشر صواريخ مضادة للطائرات وصواريخ أرض ـ أرض على طول الساحل الشرقي للسودان بإشراف سبعة آلاف جندي عراقي موجودين هناك، منذ العام الماضي، مظهراً بذلك قوته وقدرته على التحرك بحرية[١٩].

لدى العراق أسطول جوي مؤلّف من نحو خمسمائة طائرة بمختلف وجهات الاستعمال من مقاتلات وقاذفات وطائرات نقل يقوم بخدمتها نحو أربعين ألف رجل.

ولديه اسطول بحري مؤلّف من نحو ستين قطعة من فرقاطات وزوارق وكاسحات ألغام وسفن انزال ودعم يقوم بخدمتها خمسة آلاف رجل. كما انه أوصى، في أوائل العام ١٩٨٩، على إحدى عشرة قطعة بحرية حربية من ايطاليا بمبلغ اربعة مليارات دولار[٢٠].

إن هذا العتاد الحربي الضخم الموضوع بين أيدي مليون مقاتل ممن اختبروا الحرب وخرجوا منتصرين بمعنويات عالية إضافة الى الذين استدعوا من الاحتياط والمتطوعين الاختياريين الذين بلغ عددهم اكثر من ثلاثة ملايين جندي يجعل من العراق دولة حربية قوية يصحّ فيها ما كان يقال عن بروسيا «إن لكل دولة جيشها، أما بروسيا فهي جيش له دولته». يبرّر الرئيس العراقي صدام حسين اجتياحه للكويت بادّعائه أن هذه الأخيرة كانت خلال العهد العثماني قائماقامية تابعة لمحافظة البصرة. كما يتّهم الحكام الكويتيين بأنهم استفادوا من انشغال العراق بالحرب مع ايران لاستغلال بعض آبار النفط الداخلة في الأراضي العراقية الواقعة في منطقة الحدود المتنازع عليها وأنهم حالياً يسرفون في الانتاج، الأمر الذي أدّى الى تدني سعر النفط وألحق بالتالي الضرر في اقتصاده الوطني.

إثر اجتياح الكويت، واجه التهديد العالمي بحجز الآلاف من الرعايا الغربيين الذين كانوا يعملون في العراق والكويت وبإعلان الحرب المقدّسة.

---

(١٩) الشراع ـ العدد رقم ٤٤١ ـ ١٠ ايلول ١٩٩٠ ص ٢٣

(٢٠) Le Monde diplomatique septembre 1990 p. 16

ـ ط ـ الكويت

تعرّضت إمارة الكويت منذ نشأتها لخصومات شديدة ونزاعات تاريخية بين العثمانيين والبريطانيين. ثم كان على البريطانيين أن يمنعوا العراق كما السعودية من محاولة ضمّها.

في العام ١٩٣٨، أعلنت وزارة الخارجية العراقية تأييدها لضم الكويت الى العراق وتكرّر هذا الطلب مراراً من محطة الإذاعة الشخصية والخاصة بالملك غازي، الذي لاقى حتفه في العام التالي بحادث سير غامض[٢١].

بلغت الأزمة أشدّها في عهد الرئيس عبد الكريم قاسم، العام ١٩٦١، حين ادّعى أن هذه الإمارة هي أرض عراقية، فقوبل تهديده آنذاك بتدابير وقائية إذ سارعت المملكة العربية السعودية الى إرسال ألفين من جنودها لحماية الكويت، كما سارعت بريطانيا الى إنزال ستة آلاف جندي فوق الأراضي الكويتية للغرض ذاته. انتهت هذه الأزمة بنهاية حكم عبد الكريم قاسم. أما الرئيس احمد حسن البكر، فقد تخلّى العام ١٩٦٣ عن المطالبة بالكويت كجزء من أراضيه[٢٢].

يبلغ الدخل القومي السنوي الكويتي من البترول عشرين مليار دولار، كما تبلغ الثروة الكويتية والاستثمارات في الخارج نحو مائة وعشرين مليار دولار[٢٣]، وهذا المورد الأخير الذي لا يقلّ أهمية عن البترول، توظّف منه إمارة الكويت حوالي خمسة وثلاثين مليار دولار في الولايات المتحدة الاميركية. أما الباقي فموزّع بين اسبانيا والمانيا وفرنسا واليابان وبريطانيا وهونغ كونغ وغيرها.

تنتج الإمارة يومياً مليونين ونصف مليون برميل من النفط ويقدَّر احتياطيها من البترول بثلاثة عشر مليار طن، أي ما يعادل ١٣٪ من الاحتياطي العالمي[٢٤]. وهي تأتي من حيث الاحتياط في المركز العالمي الثالث بعد المملكة العربية السعودية والعراق.

الكويت دائنة للعراق بمبلغ عشر مليارات دولار بسبب حربه مع ايران. ومؤخّراً، كان النظام الكويتي يواجه معارضة تطالب بمزيد من الممارسة الديمقراطية. فالشعب غير ممثّل، لكون مجلس النواب قد حُلّ منذ شهر تموز ١٩٨٦، ولم يُنتخب بديلاً عنه.

باختصار، تملك الكويت ثروة من أهم ثروات العالم نسبياً، ولم تكن محميَّة سوى

---

(٢١) مارشادوكاس، أزمة الكويت ١٩٦١ ـ ١٩٦٣، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٣

(٢٢) المصدر نفسه ص. ٦٨.

(٢٣) Le Monde diplomatique septembre 1990 p. 18

(٢٤) المنبر، ايلول ١٩٩٠

بسبعة عشر ألف جندي، وقد اجتاحها الجيش العراقي في الثاني من آب الفائت دون أن يلاقي مقاومة تذكر، ثم أعلنها الرئيس صدام حسين المحافظة العراقية التاسعة عشر.

ثانياً ـ الخيارات المطروحة

إن ما ورد في دراسة الأوضاع العامة للدول المعنية بالأزمة، إضافة الى ما نُشر في الصحف والمجلات العالمية والإقليمية وما تتناوله باقي وسائل الاعلام من بيانات رسمية وتصاريح صادرة عن مسؤولين سياسيين وعسكريين، كل ذلك يشكّل، اذا ما وُضع ضمن إطار مفهوم الأزمة الدولية لدى مدرسة صنع القرار كما رسمها «هيرمن كاهان» و«انطوني فينر»[٢٥] معطيات من شأنها أن تضع بين يدي الباحث ما يلي:

١ ـ في الحقائق

تمكّن الرئيس صدام حسين بضمّه الكويت من السيطرة على الجزء الكبير من النفط الخليجي، وهو يحمي ذلك بأخذه آلاف الرهائن الغربيين وبإعلانه حرب الجهاد إضافة الى قوته العسكرية وترسانته من الأسلحة الكيماوية، ثم يصرّح بأنه سيقاتل ألف عام من اجل الاحتفاظ بالكويت.

٢ ـ في المقابل

تعرف القيادات السياسية والعسكرية أن نتائج الحروب تتوقّف الى حدّ كبير على تحديد أهداف الحرب. وقد أخذت هذه الأهداف، مع مرور الوقت، تتبلور تدريجياً. وبعد أن كانت مقتصرة في البدء على الدفاع عن المملكة العربية السعودية، انتقلت الى **تحرير الكويت وتأمين تدفق النفط الى الغرب**. في هذه المرحلة، وزّع بريجنسكي المستشار السابق في البيت الأبيض المسؤوليات حين صرّح: «إن حماية النفط هي مسؤولية اميركية، أما تحرير الكويت فهي مسؤولية المنظمة الدولية»[٢٦].أما الآن، ومع الأخذ بعين الاعتبار، وجهات النظر الاميركية والغربية والعالمية فقد أصبحت هذه الأهداف تتمثّل بالآتي: **إطلاق رهائن الغربيين ـ تحرير الكويت ـ تأمين تدفّق النفط الى الغرب ـ تحجيم قوة العراق العسكرية**، مع الإشارة الى أن هذا الترتيب لا يقوم على معيار الأهمية.

٣ ـ في التصرف

يرى المسؤولون الغربيون والشرقيون أنه بعد نهاية الحرب الباردة يجب أن يكون

---

(٢٥) - Crisis and Arms Control (New - York: Hudson Institute 1962) p. 23

(٢٦) - International Hearald Tribune August 17th 1990

الحل نموذجاً للنظام العالمي الجديد، وأن يردع في المستقبل كل من يحاول الاقتداء بالرئيس العراقي صدام حسين. لذلك، وبغية تحقيق الأهداف المرسومة، فالجهود المبذولة تتقدم على ثلاثة محاور: **ممارسة ضغط اقتصادي ـ ممارسة ضغط ديبلوماسي ـ تحضير عمل عسكري.**

ـ أ ـ الخيار الاقتصادي

يتمثّل هذا الحل بالحصار المفروض على العراق وإن كان بواسطة وسائل عسكرية. فهو يهدف الى التضييق عليه اقتصادياً بمنعه من أن يتلّقى الواردات، من أي نوع كانت، باستثناء الدواء والغذاء وبمنعه من الإفادة من صادراته التي تصل الى حوالي مائة مليون دولار يومياً من النفط فقط.

وتدبير الحصار هذا يلقى إجماعاً عالمياً بحيث يساهم في القوة المتعددة الجنسيات التي تشارك بتنفيذه اكثر من خمس وعشرين دولة، وان أكثر من مائة دولة في الأمم المتحدة وافقت على قرارات مجلس الأمن في هذا الصدد داعيةً العراق الى احترام القانون الدولي(٢٧).

وبعد أن طُبِّق الحصار براً وبحراً، اتّخذ مجلس الأمن قراراً بأن يشمل الجو أيضاً. وفي هذا الصدد، شنّ وزير الخارجية السوفياتي ادوارد شفردنادزه امام الجمعية العمومية للامم المتحدة، في الخامس والعشرين من ايلول الفائت، أعنف هجوم على العراق وذكّره «أن الأمم المتحدة لها سلطة قمع الأعمال العدوانية، وهذا ما سيحصل في حال استمرار احتلال الكويت»(٢٨).

يستند الحصار بمسوّغاته القانونية الى ميثاق الأمم المتحدة:

فالبدء به جاء بناءً للمادة ٥١ منه التي تعطي حق الدفاع المشروع الجماعي او الفردي في مواجهة أي عدوان. من هذا المنطلق، حملت الولايات المتحدة في البداية لواء المباشرة بهذا العمل، ثم شاركتها باقي الدول إن في الحصار أو في تقاسم التكاليف. وهكذا تدوّلت الأزمة استناداً للفصل السابع من الميثاق وأصبح العراق بمواجهة الأمم المتحدة بدلاً من أن يحصر نزاعه مع الولايات المتحدة الاميركية، كما حدث سابقاً في كوريا وڤيتنام وانعكس على واشنطن ضعفاً ستراتيجياً.

وفي غياب النقض السوفياتي (الڤيتو) عن قرارات مجلس الأمن، أصبح من السهل تطبيق المادة الأولى من الميثاق والتي تفرض: «أن يعمل الأعضاء في الامم المتحدة معاً

---

(٢٧) Express 14 septembre 1990 - p. 7
(٢٨) Le Point No 941 - (1-7) octobre 1990 - p. 34

لاتخاذ تدابير جماعية لمنع وإبعاد أي تهديد ضد السلام ولإزالة الأعمال العدوانية». وبالرغم من كون هذا الحصار هو أقوى ما عرفه العالم في وقت السلم، وبالرغم من أن العقوبات المفروضة هي أشدّ ما يؤخذ بحق دولة حتى الآن، فلا يزال لدى الأمم المتحدة مجال لتضييق الحصار بحيث قد يلجأ بعدالحصار الجوي،استناداً الى المادة٤١ من الميثاق الى اجراءات قاسية «كقطع البريد والاتصالات السلكية واللاسلكية والبرقية وغيرها من وسائل الاتصال، إضافة الى قطع العلاقات الديبلوماسية» حيث يصبح المحاصر بعزلة تامة.

ويذهب الميثاق الى أبعد من ذلك في حال عدم جدوى التدابير المتخذة فينص في المادة ٤٢ على أنه «يحق لمجلس الأمن أن يلجأ الى استخدام القوى الجوية والبحرية والبرية التابعة للدول الأعضاء في الأمم المتحدة لتنفيذ عمليات محدّدة».

هذا هو السقف الأعلى الذي يمكن أن يبلغه الحصار في اتّخاذ تدابير زجرية وفقاً لميثاق الأمم المتحدة. يبقى للدول المصمّمة على الوصول الى نتيجة أن تفعّل الحصار بافتعال أحداث داخل العراق من شأنها إضعاف النظام العراقي من الداخل ومنها:

١ ـ دفع الأكراد للتحرك، خصوصاً في الشمال واحياء المشكلة الكردية المزمنة. وقد لوحظ في الآونة الأخيرة تحرك كثيف لرؤساء المنظمات الكردية، المنضوية تحت لواء «جبهة كردستان العراق» وذلك في العواصم الغربية، ولا سيما في باريس وواشنطن[٢٩]. وفي هذه الحالة، يُخشى أن تكون ردّة فعل النظام العراقي عنيفة ولا سيما وأن الأكراد سبق أن ذاقوا طعم الغازات السامة في حلبجةوغيرها إبان الحرب العراقية الايرانية ومن الصعب أن يلجأوا الى أعمال تخلّ بالنظام في هذا الظرف بالذات.
٢ ـ دعم المعارضة العراقية وإن كانت التصريحات الصادرة عنها لا تزال خجولة.
٣ ـ العمل على إذكاء الفتن الطائفية بين السنّة والشيعة، وقد سبق لايران أن حاولت افتعال ذلك في اثناء الحرب ولم تفلح، مع أنها مهيّأة اكثر من غيرها للعب هذه الورقة.
٤ ـ خلق مقاومة محليّة داخل الكويت للقيام بأعمال الغرية على الجيش العراقي، لكنّ جغرافية الكويت الطبيعية لا تساعد على عمليات كهذه، ثم إن الطبع الكويتي يختلف عن الطبع الجزائري والطبع الفيتنامي.
٥ ـ تدبير اغتيالات او انقلاب عسكري. وهنا يلاحظ المراقبون أن المرشحين لخلافة صدام حسين لا يقلّون عنه تطرّفاً وأفكاراً توسعية.

بالمقابل، يعتري الحصار نقاط ضعف وإن لم تكن كبيرة الأهمية. لكنّ تضافرها سيخفّف من وطأته ولا شك.

---

(٢٩) الدولية ٢٩ ايلول ١٩٩٠، العدد ٢٠، ص ٢٠٠

١ ـ إن العقوبات لا تشمل الغذاء والدواء وفقاً لقرارات الأمم المتحدة، الأمر الذي يجعل الحصار مستمراً لوقت طويل كي تظهر نتائجه.

٢ ـ إن الحظر الجوي لا يسمح بإطلاق النار على الطائرات المدنية وهي في الجو بعدما أدخل بند في هذا الصدد على معاهدة شيكاغو لعام ١٩٤٤، إثر اسقاط طائرة ركاب كورية فوق فلاديفوستوك العام ١٩٨٣.

٣ ـ ان الحصار سهل الاختراق من قبل شعوب الدول المجاورة حيث لا يمكن ضبط عمليات التهريب بسهولة نظراً لطول الحدود العراقية مع هذه الدول ولاعتياد سكان المناطق الحدودية على ممارسة عمليات التهريب منذ زمن بعيد وفي الظروف العادية.

٤ ـ إن تيّسر وجود البترول، لدى العراق يفتح المجال امام إقامة المشاريع وتحريك الآلات والمعامل والزراعة وكافة وسائل الانتاج، الأمر الذي سيخّفف من وطأة الحصار. واذا اضطر الشعب العراقي للعيش بدون بحبوحة، فهذا التقشّف سبق واعتادعليه خلال ثماني سنوات من حربه مع ايران. فقد لجأت بغداد منذ بداية الأزمة الى فرض التقنين على المواد الأساسية، وحتى تاريخه لم يُحكَ عن فقدان هذه المواد بصورة نهائية كما تشجّع الحكومة العراقية القطاع الزراعي وتقدّم للعاملين فيه ما يمكن من التسهيلات بقصد التخفيف من وطأة الحصار.

إن من شأن ما سبق أن يفرض انتظار وقت طويل قبل أن يعطي الحصار نتائجه، لكن من المحتمل في أحسن الأحوال أن يؤدّي هذا الحظر الى تحقيق ثلاثة أهداف من أصل الأربعة المرسومة، وهي الانسحاب من الكويت، واطلاق سراح الرهائن الغربيين ومعاودة تدفّق النفط نحو الغرب. أما الهدف الرابع، وهو على درجة من الأهمية، إذ يفترض أن تدمَّر الآلة العسكرية العراقية، فيبقى بدون تحقيق الأمر الذي ينذر بتكرار الأزمة في أي وقت ويجعل مصير دول الخليج في تهديد دائم.

ـ ب ـ الخيار الديبلوماسي

يفترض هذا الخيار التوصل الى ايجاد حلّ للأزمة عن طريق مفاوضات داخل الأمم المتحدة أو جامعة الدول العربية أو بواسطة دول صديقة. ويسهل هذا الحل عند توفّر امكانية تقديم تنازلات متبادلة من قبل طرفي أو أطراف النزاع.

مع بداية الأزمة، شهدت الديبلوماسية العالمية أكبر تحرك عرفته حتى الآن، إن في الاجتماعات المتتالية لمجلس الأمن او اجتماعات جامعة الدول العربية او اجتماعات ثنائية أو متعددة الأطراف عُقدت توخيّاً لإيجاد حل سلمي.

صدرت عن مجلس الأمن عدة قرارات، وكلها تدين العراق لإقدامه على انتهاك القانون الدولي. ورافقت هذه القرارات زيارة الأمين العام للأمم المتحدة الى الشرق الأوسط، حيث التقى وزير خارجية العراق طارق عزيز. وُصفت تلك الزيارة بأنها مهمة مستحيلة

وصل فيها ديكوبار الى حائط مسدود لتمسك الرئيس صدام حسين بموقفه المتصلّب.

تلا تلك الزيارة، في أوائل ايلول، ما سُمّي بالمبادرة الليبية التي قام بها الرئيس معمر القذافي وضمّنها شرحاً لكيفية إعادة الأمور الى ما كانت عليه قبل الثاني من شهر آب.

ثم تبع ذلك المشروع العربي لسحب القوات العراقية من الكويت، وهو مشروع مثلّث الأطراف أعدّه الأردن واليمن ومنظمة التحرير الفلسطينية. وفي أواخر ايلول الفائت، جمعت قمة الرباط العاهل الأردني الملك حسين والعاهل المغربي الملك الحسن الثاني والرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد دون التوصل الى نتيجة.

وكان سبق الملك حسين أن قام بعدة جولات مكوكية من شمال أفريقيا الى عواصم دول القرار الغربية حاملاً مشروعاً يدعو الى انسحاب متزامن للقوات العراقية من الكويت وللجيوش الأجنبية من الخليج.

أما المجموعة الاوروبية، فقد مارست تصعيداً ديبلوماسياً بتضامنها مع فرنسا في ردّها على اجراءات التضييق التي تعرّضت لها بعثتها الديبلوماسية في الكويت؛ وإن لم تقطع دول المجموعة هذه علاقاتها الديبلوماسية مع العراق، فذلك للمساعدة في ايجاد الحل وكي لا تتوقّف الجهود الديبلوماسية وتجمّد التسوية.

ومع بداية شهر تشرين الأول الجاري، عرفت المنطقة عدة جولات لسياسيين غربيين وشرقيين، منها زيارة الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران الى دول الخليج وزيارة رئيس الوزراء الياباني توشيكي كينو الى الشرق الأوسط، حيث التقى في عمان بنائب رئيس الوزراء العراقي طه ياسين رمضان.

وتندرج قمة هلسنكي الأخيرة بين الرئيسين بوش وغورباتشوف ضمن اطار الحل الديبلوماسي، إذ تقرّر فيها العمل المشترك لإرغام العراق على الانسحاب من الكويت وعدم التعايش مع الأمر الواقع.

إن ما يساعد الرئيسين الأميركي والسوفياتي على القيام بالعمل الديبلوماسي هو مركزهما السابق كرئيسين لوكالة الاستخبارات في دولتيهما والعلاقات التي رسّخاها بحكم عملهما هذا مع سياسيّي معظم الدول. يضاف الى ذلك المركزان الهامان اللذان تولاّهما الرئيس بوش في السابق كممثّل لبلاده لدى الأمم المتحدة وكنائب لرئيس الجمهورية خلال ولاية الرئيس ريغن.

لتفعيل الديبلوماسية والحصول على الدعم من أكبر عدد من الدول، كان لا بدّ من اللجوء الى عامل المال، فكان من ضمن ذلك إقرار التعويضات للدول المتضرّرة من الحظر الاقتصادي على العراق (مصر والأردن وتركيا) ومن ثم الإفراج الاميركي عن أموال ايرانية

بقيمة اربعمائة مليون دولار كانت لا تزال مجمَّدة في البنوك الاميركية منذ حجز الرهائن العام ١٩٧٩. كما أقدمت واشنطن على اعفاء مصر من دين يبلغ سبعة مليارات ومائة مليون دولار.

من ناحيته، لم يقف الرئيس صدام حسين مكتوف الأيدي تجاه عزله الديبلوماسي، فمدّ الجسور مع ايران وقبل بمعاهدة الجزائر لعام ١٩٧٥ وسحب جيشه من أراضٍ ايرانية تبلغ مساحتها ألفي كيلومتر مربع كان لا يزال يحتلّها، وعمد الى الإسراع في تبادل أسرى الحرب وإعادة التمثيل الديبلوماسي مع عدو الأمس.

بعد ذلك، أعلن عن استعداده لتقديم النفط هبةً الى دول العالم الثالث كما أفرج عن بعض المحتجزين الغربيين وعن جميع المحتجزين الفرنسيين.

وكان الرئيس العراقي قد شدّد في الثاني عشر من آب الماضي على «ضرورة تقديم تسوية شاملة لكل المشاكل العالقة في المنطقة ولا سيّما منها القضية الفلسطينية والأزمة اللبنانية»(٣٠). وهذا ما يحبّذه الاتحاد السوفياتي والدول الأوروبية في حين أن الولايات المتحدة الاميركية لا تزال متمسّكة بعدم ربط مشاكل الشرق الأوسط بالأزمة الخليجية، وجل ما أدلى به الرئيس بوش في خطابه في الأمم المتحدة، في مطلع تشرين الأول الفائت، هو «أن انسحاب العراق من الكويت يفتح الطريق نحو التسوية في الشرق الأوسط»(٣١).

في الاسبوع الأخير من تشرين الأول، نشطت الاتصالات الديبلوماسية بشأن الأزمة الخليجية الى درجة بدا فيها الحل السلمي للأزمة متقدّماً على ما عداه من الحلول، وقد برز ذلك من خلال:

١ ـ التصاريح الصادرة عن الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران السعودي. والتي تركزّ على حلّ المشكلات بين العراق والكويت بالحوار سواء ما يتعلق بالحدود أو ما يعود الى الديون المترتّبة على العراق منذ زمن الحرب(٣٢).
٢ ـ الاتصالات المكثّفة بين باريس والعواصم المغاربية، التي يجري معظمها في الكواليس، والتي تسعى الى إبعاد شبح الحرب والضغط على العراق للانسحاب من الكويت لقاء إعفائه من الديون المترتّبة عليه لهذه الإمارة والحصول على حق قانوني من خلال الجامعة العربية يسمح له بالإطلال على البحر عبر جزيرتي وربه وبوبيان(٣٣).
٣ ـ دعوة الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف، بعد لقائه الرئيس الفرنسي فرنسوا

---

(٣٠) الديار ٥ تشرين الأول ١٩٩٠

Le Monde du 27 septembre au 3 octobre 1990

(٣١)
(٣٢) الأسبوع العربي، ٢٩ ـ ١٠ ـ ١٩٩٠، ص ٤.
(٣٣) المصدر نفسه ص ٩.

ميتران في باريس، العرب الى عقد اجتماع يضع موضع التنفيذ الفوري ما وصفه «بنظام التعامل مع العرب»[٣٤]. وتندرج ضمن هذا الإطار زيارة الموفد الشخصي للزعيم السوفياتي يفغيني بريماكوف للعراق والسعودية والتي قيل عنها إنها أحرزت تقدماً على طريق الحل السلمي.

خلاصة القول إنه ببلوغ الديبلوماسية هدفها قد تتحقّق النتائج التي بإمكان الحصار تحقيقها. أما فيما يتعلّق بتحجيم القوة العسكرية العراقية، فهو أبعد من أن تطاله المفاوضات، اذ لا يمكن التطرّق الى هذا الموضوع إلاّ من خلال مفاوضات لنزع التسلّح من منطقة الشرق الأوسط.

ـ ج ـ الخيار العسكري

في حال فشل الحلّين الاقتصادي والديبلوماسي لا يبقى سوى الحل العسكري. وتكون الحرب، كما حدَّدها كلوزفيتش، «متابعة السياسة بغير وسائل».

صدر الكثير من النظريات حول كيفية تنفيذ العمل الحربي فمنهم من حضرّ له بهجوم جوي لتدمير الطيران وقواعد الصواريخ العراقية وأرفق ذلك بتشويش من البحر، ومنهم من حصره بقصف النقاط الحيوية الستراتيجية كمصافي النفط والقواعد العسكرية والمصانع الكيماوية، ومنهم من أشرك تركيا وايران في الهجوم. يبقى كل هذا من باب التنظير لأن الخطط الحقيقية لا يعرفها سوى المعنيين بها وتظلّ طيّ الكتمان حتى تنفيذها.

يقتصر محبّذو الخيار العسكري حتى الآن على بعض الأفراد، وإن كانوا من المسؤولين، فان تصاريحهم لا تتعدّى الرأي الشخصي دون أن يحصلوا على الضوء الأخضر من حكوماتهم وممثّلي شعبهم.

في بريطانيا، كانت رئيسة الوزراء مرغريت تاتشر في البداية، من أكثر المتحمّسين لهذا الحل، لكنها في الآونة الأخيرة عادت الى صفوف المتريّثين. اما وزير خارجيتها، دوغلاس هيرد، فقد أعلن قبل أن تمرّ ثلاثة أسابيع على الأزمة «أن الحرب لا يمكن تجّنبها»[٣٥].

أما في الولايات المتحدة الاميركية، فالرأي منقسم ويبقى هنري كيسنجر وزير الخارجية السابق من بين الأكثر حماساً لتوجيه ضربة عسكرية. فمنذ منتصف آب ١٩٩٠، صرح: «ان الولايات المتحدة الاميركية تجاوزت نقطة اللارجوع، فالأوضاع السياسية في الدول العربية كما في الولايات المتحدة لا تسمح طويلاً بهذا الانتشار الكثيف للقوى. على

---

(٣٤) السفير، ٣٠ ـ تشرين الأول ١٩٩٠

(٣٥) Le Monde 22 Août 1990

الولايات المتحدة أن تعمل لتدمير الوسائل العسكرية العراقية». ثم عاد بعد مرور شهر على هذا التصريح وذكّر به ثانية قائلاً: «إن إطالة الأزمة سيزيد المشكلة تعقيداً وسيهدّد الاستقرار الداخلي في الدول العربية الحليفة. فمن الضروري تحديد مهلة زمنية لنجاح العقوبات»(٣٦).

ويلتقي مع هنري كيسنجر بعض الأعضاء في مجلس الشيوخ، بينهم ريتشارد لوغر، سناتور انديانا، وڤيكتور روث، سناتور ديلاور، اللذان صرّحا في أثناء اجتماع مصغّر في البيت الأبيض، بتاريخ ١١ آب ١٩٩٠، «إنهما مع هجوم ساحق لخنق صدام حسين(٣٧). يبقى ان الكونغرس الاميركي بحدّ ذاته غير متحمّس للضربة العسكرية ويفرض موافقته المسبقة على عمل من هذا النوع.

أما الاتحاد السوڤياتي فيشارك في العمل العسكري ضمن نطاق الأمم المتحدة في حال أقر مجلس الأمن ذلك، وهو يكرّر مطالبته بتنظيم لجنة الأركان لدى الأمم المتحدة التي ينصّ عليها الميثاق.

تبقى اسرائيل المستفيدة الأكبر من الحسم العسكري، لأنه وحده الكفيل بتدمير الآلة العسكرية العراقية. ولكن، بعد التصاريح المتعددة للرئيس العراقي بأن الردّ سوف يشملها، أصبحت تفضّل تأخير هذا الحل لتتمكّن من أخذ احتياطاتها ضد الأسلحة الكيماوية ولتكمل تجهّزها بالأسلحة المتطورة.

ومن أبرز معارضي كيسنجر ومحبّذي الحل العسكري الباحث الاميركي «آرثر شيلسنجر الذي يردّ على العملية العسكرية «بأن أحدث الطائرات الاميركية، وهي من نوع ستيلث لم تصب أهدافها بدقّة في اثناء عملية بناما»(٣٨). وتلتقي مع رأي شيلسنجر وزارة الدفاع الاميركية التي تبدو غير راغبة في الانتقال الى المواجهة المسلّحة، لأنها تعرف اكثر من غيرها ويلات الحروب التي لم تعد مجرّد نزهة بعد أن اختبرتها في كوريا وڤيتنام. يبقى أن وزارة الدفاع لا يمكن أن تبوح بأسرارها وتكشف نواياها لجهة التصميم على القيام بعمل عسكري.

على أي حال، هناك عقبات تؤخّر أو تقف بوجه الحسم العسكري وتتمثّل بما يلي:

١ ـ تعرّض حياة الرهائن الغربيين للخطر إما بإصابتهم مباشرة، لأن العراق وزّع البعض منهم حول النقاط الحيوية الستراتيجية المحتمل قصفها، واما بالانتقام منهم.

---

(٣٦) Le Point N° 936 du 22 Août 1990 p 7

(٣٧) Le Nouvel Observateur (27 septembre - 3 octobre) 1990 p. 14

(٣٨) الأسبوع العربي، ٨ ـ ١٠ ـ ١٩٩٠، ص ١١.

٢ ـ تدمير أكبر حقول نفطية من قبل العراقيين بإضرام النار فيها اذا كانت تحت سيطرتهم وقصف الخارجة عن سيطرتهم بواسطة الصواريخ العراقية البعيدة المدى. وسبق للرئيس العراقي أن هدّد مراراً بذلك. هذه الحقول يصعب الدفاع عنها، فمعظم الآبار النفطية موجودة على الساحل وهي غير محميّة بالحواجز الطبيعية كما لو كانت في الأودية أو وراء الجبال. كذلك هي الحال بالنسبة الى الأنابيب وخطوط الضخ ومعامل التكرير، فهي كالآبار مكشوفة بحكم طبيعتها، ويمكن النيل منها بسهولة. واذا تمّ ذلك فإن إعادة ضخ البترول كما كان عليه في السابق تتطلّب حسب الخبراء النفطيين سنتين على الأقل، فيكون الاقتصاد العالمي قد أصيب بنكسة قوية. يضاف الى ذلك التلوث في الجو الذي سيحدثه حريق النفط.

٣ ـ وفي حال اندلاع حرب، فسيبلغ العنف منذ البداية أقصى درجاته، لأنه بوجود الأسلحة المدمّرة لا يمكن الانتظار حتى تتدمّر وسائل الرد المضاد، الأمر الذي سيؤدّي الى خسائر جسيمة بالأرواح.

٤ ـ إن اضطرار المهاجمين لاستعمال السلاح النووي لحماية أنفسهم سيؤدّي الى قتل الكثير من الأبرياء وتلويث الجو بالغبار النووي. صحيح أن بامكان القوى المهاجمة أن تنتصر، لكن الثمن من دم ومال سيكون غالياً. ويتوقع عسكريو البنتاغون، في حال حصول معارك، أن يبلغ عدد الضحايا الاميركيين من عشرين الى ثلاثين ألفاً بين قتيل وجريح[٣٩]. وهم يعلمون جيداً أن جنودهم لم يسبق لهم أن خاضوا حرباً حقيقية على أرض صحروية، وهي تختلف عن طبيعة القتال في كوريا وفيتنام وغرينادا وبناما. وبدون قتال، فَقَدَ الاميركيون خلال الأشهر الثلاثة الأولى ثلاثة وأربعين عسكرياً بحوادث مختلفة!

٥ ـ تعرّض التحالف الدولي المشترك في الحصار الى التفتت لأنه، حتى تاريخه، لم يوافق الجميع على قرار الحرب. فَمنهم من يحارب ضمن نطاق الأمم المتحدة، ومنهم سينسحب في حال حدوث صدام عسكري. فالدول العربية وبخاصة مصر ترفض الاشتراك في هجوم على العراق، والسعودية ترفض انطلاق العمليات العسكرية ضد العراق من أراضيها. وهنا، يجدر التنويه الى أنه في حال اندلاع القتال، لا تعود ثمة حاجة الى دول تشارك في الحصار وان قبول السعودية أو رفضها لأن تشكّل أرضها قاعدة للهجوم على العراق لن يقف حجر عثرة، فالعمليات العسكرية ستنطلق من المكان الملائم.

٦ ـ اتخاذ العراق الاحتياطات الدفاعية اللازمة منذ حربه مع ايران، ومنذ أن قصفت اسرائيل معامل «وزيراك» النووية. فقد روى بعض الخبراء الغربيين أن القواعد

---

(٣٩) Le point, 22 Août 90, No 536, p. 7

الجوية موجودة داخل ثمانية مجمعّات محصّنة ضد الضربات النووية والكيماوية، وحتى مدارج الطيران محميّة بسبعة أمتار من الإسمنت المسلّح[٤٠] إن هذه الاحتياطات تجعل من أية عملية، ولو مفاجئة، عاجزة عن تدمير جميع وسائل الردّ العراقية. يضاف الى ذلك أن الضربة، بأية وسائل كانت، لا يمكنها أن تدمّر أهدافها مائة بالمائة، وأكبر دليل على ذلك قصف ليبيا العام ١٩٨٦ وما سبق وتكلّم عنه شيلسنجر خلال عملية بناما[٤١]. اذاً، فإن إمكانية الردّ المعاكس تؤخذ بالحسبان.

تلك هي الصعوبات التي تعرقل اللجوء الى الحل العسكري. مع ذلك، تبقى المواجهة العسكرية غير مستبعدة في المطلق للأمور التالية:

١ ـ حصول حادث مهم عن قصد أو غير قصد كخرق الطيران للمجال الجوي العراقي أو إسقاط طائرة. ويُخشى هنا أن يكون العراق هو البادىء. كما أن قيام القوات الاميركية بأعمال تخريبية او إرهابية او حتى استفزازية قد يؤدّي الى الانفجار العسكري.

٢ ـ دخول طرف ثالث بين المستنفرين وإفتعال حادث ما. وليس بالضرورة أن يكون هذا الطرف اسرائيل.

٣ ـ فشل الحصار والديبلوماسية في إضعاف الرئيس صدام حسين الى درجة تحقيق الأهداف المرسومة. وهذه هي الحالة الأهم حيث يصبح لا مفرّ من الحسم العسكري.

إن الخيار العسكري هو الخيار الوحيد الذي بامكانه ان يحقّق الأهداف المرسومة كافة وان وسائله أصبحت جاهزة ويُعمل على تعزيزها. وهي لا تنتظر سوى القرار السياسي لتحديد ساعة التنفيذ.

وقد تم الحصول في مجلس الأمن على قرار يسمح باللجوء الى القوة في حال فشل الحلول السلمية، وقد صدر هذا القرار دون أن تصطدم من قبل أية دولة من الدول الكبرى.

هكذا، يظهر أن التهويل باستعمال القوة قد كثر في الآونة الأخيرة. ومع عدم استبعاد حصول الضربة العسكرية، يبقى القول إنه من تقنية حلّ كل أزمة، وإن بالطرق السلمية، أن يمارَس ضغط عسكري وأن تظهر القوة وكأنها وشيكة الاستعمال. وهذا ما يلجأ اليه حالياً الرئيس جورج بوش الذي اشتهر بحنكته في حلّ الأزمات حين كان ممثّلاً لبلاده في الأمم المتحدة.

---

(٤٠) L'Expres, 14 septembre 1990, p. 19

(٤١) الاسبوع العربي، ٢٩ ـ ١٠ ـ ١٩٩٠، ص ٤.

ثالثاً ـ النتائج

تنشأ الأزمة الدولية إثر تغيّر في البيئة الداخلية أو الخارجية للأطراف المعنيّة. الأمر الذي يؤدّي الى تدهور خطير في العلاقات بين دولتين أو أكثر. وتُحلّ الأزمة بتغيير الوضع القائم من جرائها وتسوية الوضع السابق الذي أدّى الى خلقها.

لذلك، فالأزمة بحدوثها وانهائها ترتّب على الأطراف المعنيّة نتائج سلبية أو ايجابية. وهذا ما آلت أو ستؤول اليه أزمة الخليج.

١ ـ بالنسبة الى الولايات المتحدة الأميركية.

مع هذه الأزمة، سواء حُلّت جزئياً أو كلّياً أو لم تُحل حتى، تكون الولايات المتحدة الاميركية قد حقّقت حلمها بإرساء قوة عسكرية لها على أرض الخليج. وهي لن تغادر كلياً، ولو انسحب العراق من الكويت، فستبقى لحماية الأنظمة التي تحكم هذه المنطقة، وبالتالي لحماية مصالحها الذاتية. بهذه الطريقة ستضمن الدولة العظمى نفطها وستتحكّم بالنفط المتدّفق الى اوروبا واليابان، الكتلتين المرشحتين في المستقبل ليحلاّ محلّ الاتحاد السوفياتي وينافساها في تقاسم زعامة العالم.

٢ ـ بالنسبة الى دول الخليج

ستفقد هذه الدول من استقلاليتها بقدر ما تفقد من ثروتها في تحمّل نفقات الجيوش التي أتت للدفاع عنها وتحمّل عبء مساعدة الدول التي تضرّرت من الحظر الاقتصادي. وفي حال حصول صدام عسكري، لا شك بأنه يتوجّب عليها تحمّل تعويضات الخسائر في الأشخاص والعتاد.

إن هذه الدول، شأنها شأن دول العالم الثالث، ستعمل لتقوية جيوشها وتحديث أسلحتها وعتادها الحربي كي لا يكون مصيرها كمصير إمارة الكويت. وهذا الأمر سيؤدّي الى تنشيط تجارة الأسلحة بعد الهبوط الملموس الذي اعتراها إثر نهاية الحرب الباردة بين الجبارين.

والوجود الغربي الكثيف في الخليج سيترك أثره في تقاليد وعادات شعوبه التي تطبّق الشريعة الاسلامية، كمنع شرب الكحول، ومنع النساء من قيادة السيارات، والتحجّب والاحتشام في اللبس، تلك العادات يصعب على الأجانب تطبيقها والتي قد يقلع عنها ابناء المنطقة انفسهم اقتداءً بالأجانب.

واذا استمر الوجود الغربي طويلاً في الخليج، فان الحساسيات التي قد يثيرها ستولّد على الأرجح حقداً لدى الشعب الخليجي تجاه هؤلاء الأجانب، فتنمو التيارات القومية والاسلامية المتطرّفة.

وتبقى من أهم النتائج المرتقبة الإنعكاسات الداخلية في دول الخليج، إن من حيث تغيير هيكلية هذه الدول وإن من حيث تغيير أنظمتها ونمط الحكم فيها وحلول الديمقراطية محل الوضع السائد حالياً.

٣ ـ بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي

قد يفيد من الأزمة لبيع أسلحة الى دول العالم الثالث لا سيّما وأنه بصدد تخفيض جيشه، ولم يعد بحاجة لكامل العتاد العسكري الذي بحوزته. لكنه دون شك لا ينظر بعين الرضى الى تمركز قوى أطلسية بهذا الحجم، وبصورة مستمرة، على مسافة خمسمائة ميل من حدوده الجنوبية. وهذا ما قد يدفعه الى تحبيذ الحلّ العسكري لتعود بعده هذه الجيوش من حيث أتت.

٤ ـ بالنسبة الى العراق

في حال رضوخه للحلّين السلميين، الاقتصادي والديبلوماسي، قد يحافظ على قوته العسكرية وربما استفاد لجهة سداد قسم من الديون المترتّبة عليه ولجهة بتّ مسألة الأراضي المتنازع عليها مع الكويت أو الحصول على واجهة على البحر.

أما في حال حصول الصدام العسكري، فان آلته العسكرية ستتحطّم وسيضعف كدولة، الأمر الذي قد يؤدّي الى قيام دويلة كردية في شماله أو الى تجزئته كلياً الى دويلات.

٥ ـ بالنسبة الى الكويت

هذه الإمارة الضحية، كانت ثروة بحدّ ذاتها. في حال استعيدت من العراق، ستتحمّل معظم النفقات المترتّبة على الأزمة؛ اذا حدث ذلك سلماً، قد يتحتّم عليها إرضاء العراق إما بدفع قسم من ديونه وإما بالتخلّي له عن المنطقة المتنازع عليها. واذا استعيدت بالحسم العسكري، فالمعارك سوف تجري على أراضيها وفي مدنها ويلحقها الكثير من الدمار، خصوصاً في المنشآت البترولية التي قد يقدم العراق على إضرام النار فيها.

وفي أي حال، يبدو من الصعب عودة الكويت الى ما كانت عليه قبل الاجتياح من حيث هوية الحكّام السابقين او نظام الحكم فيها.

٦ ـ عالمياً

بدأت نتائج هذه الأزمة تظهر بانحسار شعبيّة المتحمسين لحلّها عسكرياً. ففي بريطانيا، أدّى الأمر الى استقالة رئيسة الوزراء مرغريت تاتشر. وفي الولايات المتحدة، كثرت نسبة المروّجين للخيار العسكري ولا تزال شعبية الرئيس بوش آخذة بالتقهقر.

الخاتمة

قد يكون الرئيس العراقي صدام حسين أقدم على احتلال الكويت وضمّه بدوافع اقتصادية لسداد الديون المترتّبة عليه من حربه مع ايران، أو بدوافع جغرافية - ستراتيجية للحصول على شاطىء وموانىء بحرية حُرم منها، أو بدوافع شخصية كي يعزّز مكانته، وبدوافع تاريخية علّه يؤمن بصدق واخلاص انه ينفّذ قسماً من المصير التاريخي للشعب العراقي، لأن المطالبة بالكويت كانت قائمة قبل استلامه الحكم. كما لا يُستبعد أن يكون قد وقع في خدعة سياسية دولية ترمي الى الهيمنة على نفط الخليج أو تدمير قوته العسكرية.

يبقى أن العراق ما كان ليقدم على عمله هذا لو لم تكن الظروف الدولية ملائمة، وبخاصة عدم وجود رادع للانتهاكات التي تُرتكب بحق القانون الدولي في هذا المجال. فالولايات المتحدة الاميركية اجتاحت بناما في كانون الأول ١٩٨٩، وتركيا لا تزال تحتلّ عسكرياً شمال قبرص، والمغرب ضمّ الصحراء الغربية، واسرائيل التي أدينت عدّة مرات من قبل مجلس الأمن لا تزال تحتل اراضٍ عربية ضاربةً بالقرارات الدولية عرض الحائط.

ربما يكون الرئيس صدام حسين قد فوجىء بهبّة الدول قاطبة ضده بعدما قام بعمله هذا. لماذا تقوم القيامة ضد عمل أصبح مألوفاً لدى العالم! ولماذا اصدقاء الأمس الكثر في أثناء حربه مع ايران يصبحون أعداء الساعة بعد اجتياحه للكويت؟ إن الإجماع في الرأي العالمي ضد العمل العراقي، هو إجماع لم يشهد له العالم مثيل، وهو رهيب لا يمكن للعراق كما لأية دولة الوقوف في وجهه.

من هذا المنطلق، يبقى الحلّ السلمي بالنسبة الى العراق هو الأفضل بين سائر الخيارات. مع هذا الخيار، تكون محاولة ضم الكويت قد فشلت، ولكنّ قوة العراق العسكرية قد سلُمت. وفي حال حصول بغداد على تنازلات كويتية، فإن هيبة العراق بعد الحل تزداد مناعة.

أما اذا كانت المؤامرة تهدف الى الإطاحة بالآلة العسكرية العراقية، فقد يعمل المتضرّرون بطريقة أو بأخرى الى أن يقع الصدام العسكري حيث لا تتوقّف النتائج عند إضعاف العراق عسكرياً بل تتعدّى ذلك إلى تجزئته جغرافياً. كثر الكلام في الآونة الأخيرة عن إقامة نظام عالمي جديد. وبالرغم من التصريحات المتعددة للرئيس جورج بوش ووزير خارجيته جيمس بايكر وغيرهما، فإن صورة هذا النظام لم تبدُ جليّة بعد.

في خطاب له أمام الكونغرس، في الحادي عشر من ايلول الفائت، صرّح الرئيس بوش «أن أزمة الخليج تشكّل فرصة نادرة للتقدّم نحو مرحلة تاريخية من التعاون بين الشعوب

حيث تحلّ القوانين محل شرعة الغاب»(٤٢).

هذا ليس بجديد، وقد بشّرت به عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى والأمم المتحدة إثر الحرب العالمية الثانية، بينما لم ينعم العالم حتى تاريخه بما وُعد به من أمن واستقرار.

ويرى وزير خارجية فرنسا رولان دوما في إحجام الاتحاد السوفياتي عن استعمال حق النقض عند التصويت على قرارات الأمم المتحدة المتتالية بعد اللجوء اليه طيلة اربعين عاماً الأساس الجديد للشرعية الدولية(٤٣).

إن حق «الفيتو» هذا لم يكن استعماله مقتصراً على الاتحاد السوفياتي سابقاً كما أن أحداً لن يمنع فرنسا أو الصين أو الولايات المتحدة الاميركية من استعماله في المستقبل.

أما وزير الخارجية الاميركية جيمس بايكر فيقول «إن نموذج هذا النظام هو النظام الأمني الاوروبي(٤٤)». ولكن، أنّى لباقي دول العالم مستوى الرقي والتقدم الذي بلغته الدول الأوروبية لتحذو حذوها.

إن التكنولوجيا الحديثة وضعت بين أيدي البشر آلات تدمير هائلة لا يمكن للانسان السيطرة عليها. ومع وجود هذا الخطر، أصبح من واجب الدول أن تسعى الى التعاون بدلاً من التصادم، وهذا التعاون يكون من الناحيتين الأمنية والاقتصادية بحيث تمتدّ يد الدول القوية والغنية لمساعدة الدول الضعيفة والفقيرة. عندئذ يسود الأمن والوئام. فإذا كانت أزمة الخليج هذه حافزاً لتسريع إقامة هذا النظام العالمي الجديد، فستكون قد أدّت مع كل سلبياتها الى نتيجة ايجابية على قدر كبير من الأهمية.

٢٥ تشرين الثاني ١٩٩٠

* * *

---

(٤٢) Le Point, no 939, 17 septembre, 1990. p. 64

(٤٣) المرجع نفسه.

(٤٤) الاسبوع العربي، ٨ تشرين الأول ١٩٩٠، ص ١١.

TOP COOL

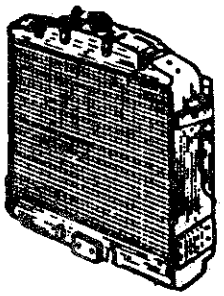

NRF LEBANON

nehme radiator factory

MANUFACTURER'S AUTO RADIATORS

نعمه راديانور فاكتوري

صناعه راديانورات للسيارات والاليات

نعمه راديانور فاكتوري

nehme radiator factory

MANUFACTURER'S AUTO RADIATORS

راديانورات مصنوعة من النحاس الصافي ١٠٠/١٠٠ ذات التبريد العالي

المعمل والمبيعات: الكلس - الطريق العام بناية نعمه راديانور

تلفون: ٣٩٣٨٢٢ (٠١) - ٣٩١٢٥٦ (٠١)

تلكس: N.R.F. ٤٢٩٠٨ - تلفون: ٤٩٧٠٤٥ (٠١)

برقياً: نعمتنكوم ص.ب: ٤٤٢-٥٥ سن الفيل بيروت لبنان

الاسلحة البيولوجية
أنواعها وسبل الوقاية منها

محمّد عطوي*

الأسلحة البيولوجية أو الجرثومية Biological Weapons هي عبارة عن إستخدام الجراثيم أو سمومها في المعارك لفرض إصابة العدو بالأمراض الوبائية أو السموم القاتلة أو المثبِّطة.

والجراثيم ـ الميكروبات ـ هي كائنات حيّة لا يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة بل بالمجهر، وذلك لصغر حجمها (حوالي ميكرون واحد). ومن أمثلتها البكتيريا والفطريات والفيروسات. وهي تتكاثر عن طريق الإنقسام كل بضع دقائق. لذا، فإنه خلال يوم واحد يتكّون من الجرثومة الواحدة أكثر من مائة مليون جرثومة.

وتعود خطورة الأسلحة الجرثومية إلى قدرتها على البقاء لفترات طويلة بالمقارنة مع الأسلحة الكيماوية أو النووية، وكذلك الأمر قدرتها على النمو وإحداث عدوى بين المصابين وقدرتها على الإنتشار. إذ ان قاذفة واحدة يمكن أن تطلق أسلحة جرثومية تستطيع الإنتشار في مساحات كبيرة من الكيلو مترات المرّبعة، كما أن مجموعة من الحشرات

(*) باحث ستراتيجي ماجستير لغة إنكليزية، له عدة مؤلّفات وترجمات عسكرية أهمها: «هجرة اليهود السوفيات»، «وقصة القوة الجوية الإسرائيلية».

الحاملة لتلك الجراثيم يمكن أن تنتشر في مساحات كبيرة جداً حسب اتجاه الريح. وفي هذا الصدد، يرى أحد المسؤولين في السلاح الكيميائي الجرثومي في الولايات المتحدة الأميركية أن العدو قد يستطيع قتل أو تعطيل ٣٠٪ من الشعب الأميركي، وذلك باستخدامه ٤٥ ألف كيلو غراماً من الجراثيم المجفّفة تستطيع أن تحملها عشر قاذفات[١].

«والحرب البيولوجية ـ الإحيائية ـ هي الإستخدام العسكري المتعمَّد للكائنات الحيّة أو سمومها بهدف قتل الإنسان وإنزال الخسائر به أو بممتلكاته من ثروات حيوانية أو زراعية، بغية إضعاف مقدرته على شنّ الحرب»[٢]. كما ان البعض يطلق على هذه الحرب مصطلح «الحرب البكتيرية» أو «الحرب الجرثومية».

الجدول رقم ١

مقارنة بين الأسلحة النووية والكيماوية والجرثومية(*)

أنواع السلاح المستخدم	المساحة المتأثّرة في الحال	نسبة المتضررين في المساحة غير المحمّية والمتأثرة في الحال
أولاً: الأسلحة الكيماوية	١٠٠ ميل مربع	٣٠٪ متضّررون وليست جميع الإصابات مميتة بالضرورة.
ثانياً: الأسلحة البيولوجية (الجرثومية)	٣٤ ألف ميل مربّع على الأقل باستخدام حوالي ٢٤٥ كيلو غراماً من السلاح الجرثومي.	٢٥ الى ٧٥٪ إصابات بالأمراض، وليست جميعها مميتة بالضرورة.
ثالثاً: الأسلحة النووية	٧٥ الى ١٠٠ ميل مربع للحلقتين أ، ب	٩٨٪ إصابات مميتة في الحلقة (أ)

(*) لقد بُنيت هذه المقارنة على افتراض أن قاذفة من نوع «B-52» أو ما يعادلها يمكن أن تحمل قنبلة هيدروجينية تعادل قوتها التفجيرية عشرين مليون طن من تي.أن.تي (TNT) أو ان هذه القاذفة مملوءة بأسلحة كيمائية أو جرثومية.

(١) راجع جدول (١) الذي يوضح المقارنة بين الأسلحة الكيماوية والجرثومية والنووية.
(٢) الموسوعة العسكرية، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

١ ـ العوامل البيولوجية عبر التاريخ.

منذ القدم، استخدم الإنسان العوامل البيولوجية. ومن الأمثلة على هذا الإستخدام المتعمَّد قيام «سولون» حاكم أثينا، في العام ٦٠٠ قبل الميلاد بقذف جذور نبات هيليبوروس (Helleborus) في نهر صغير كان يستخدمه أعداؤه للشرب، مما أدّى إلى تفشّي الإسهال بينهم، وبالتالي، هزيمتهم. وفي عام ٢٠٠ قبل الميلاد، انسحب قائدٌ قرطاجي أمام أعدائه تاركاً وراءه كميات كبيرة من النبيذ بعد أن وضع فيه جذور الماندراغور[٣]، فلمّا نام أعداؤه بعد تناولهم المشروب عاد إليهم القائد وذبحهم جميعاً.

وفي عام ١٨٤ قبل الميلاد، قام «هانيبال» بملء خوابي بالثعابين وإلقائها على ظهور سفن أعدائه، مما أدّى إلى ارتباك البحّارة، وبالتالي، هزيمتهم. وفي العام ١١٥٥، قام الامبراطور «فريدريك بربروسا» باحتلال مدينة «تورتونا» الإيطالية بعد تسميم خزّانات المياه فيها بهذه الطريقة. كذلك استُخدمت العوامل البيولوجية خلال الحروب الصليبية، وذلك بإلقاء جثث الموتى بالطاعون داخل المعسكرات لنشر مرض الطاعون بين الجنود.

وفي العام ١٧٦٣، قام السير جفري أمهرست (Sir Jeffry Amherst)، قائد الحملة الانكليزية خلال الغزو الأوروبي للهنود الحمر في القارة الأميركية، بإرسال غطائين ومنديل من مستشفى الجدري إلى رؤساء القبائل الهندية مما أدّى إلى انتشار الجدري بين الأعداء. وخلال الحرب العالمية الأولى، قام عملاء الألمان بحقن الخيول المشحونة من أميركا إلى خيّالة القوات الرومانية بالجراثيم.

في العام ١٩٣٦، بدأ النازيّون أبحاثاً واسعة حول العوامل البيولوجية مما دفع السوفيات إلى الإعلان عن استعدادهم لاستخدام مثل هذه الأسلحة إذا ما قام النازيون باستعمالها ضدهم. ورغم أن الأطراف المتحاربة في الحرب العالمية الثانية كانت قد أعدّت أسلحة بيولوجية هجومية، إلاّ أنها لم تستخدمها.

وخلال الحرب الكورية، اتّهم الصينيون والكوريون الشماليون الولايات المتحدة الأميركية باستخدام عوامل بيولوجية في كوريا، وبعد دراسة واسعة قامت بها «اللجنة العلمية الدولية للتحقيق» تقدّمت في ٨ تشرين الأول ١٩٥٢ بتقرير إلى الأمم المتحدة ورد فيه ملاحظات عن «أشياء ملوثة بجراثيم الكوليرا والجمرة الخبيثة، وبراغيث مصابة بجراثيم الطاعون، وبمرض يحمل فيروس الحمّى الصفراء، وحيوانات قاضمة مصابة كالأرانب استُعملت لنشر الأمراض الوبائية المذكورة». وليس هناك من دليل قاطع يثبت أن الولايات المتحدة الأميركية قد استخدمت أسلحة بيولوجية خلال حربها في فيتنام مع أنها مشهورة بأمراضها المستوطنة.

---

(٣) وهو نبات ذو تأثير مخدِّر.

ولمّا كانت البحوث الحديثة في ميدان العوامل البيولوجية غامضة وسرية للغاية، فإنه لا يوجد حتى الآن دليل قاطع يثبت أن هذه العوامل قد استُخدمت في الحروب الحديثة إستخداماً فعلياً وعلى نطاق واسع. إلاّ أن ذلك لا يقلّل من خطر الحرب البيولوجية، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: بما أن العوامل البيولوجية سهلة التحضير وبمصاريف زهيدة، فإن كل دول العالم، بما في ذلك الدول النامية والفقيرة، قادرة على امتلاكها.

ثانياً: تطوير عوامل بيولوجية (جراثيم) لا تتأثّر بالمضادات الحيويّة (Antibiotics).

ثالثاً: تطوير وسائل حديثة لنشر العوامل البيولوجية.

رابعاً: تعتمد الأسلحة البيولوجية على المباغتة والاستعمال الخفيّ ضد أعداد هائلة من الناس.

خامساً: صعوبة كشف نوع العامل البيولوجي المستعمل وإرسال إنذار سريع للمناطق الأخرى.

٢ ـ الخصائص العامة للعوامل والأسلحة البيولوجية.

تتعلّق البيولوجيا العسكرية[٤] فقط بتلك الأحياء التي تؤذي الإنسان والحيوان أو النبات. وقد صُنّفت المجموعات الخمس التالية، التي يُحتمل أن تُستخرَج من بينها جراثيم وسموم صالحة للإستخدام العسكري، كعوامل للحرب البيولوجية، وهي:

١ ـ الكائنات الدقيقة (micro-organisms)، مثل البكتيريا والفيروسات (كائنات طفيلية)، والفطريات والبروتوزوا (كائنات طفيلية).
٢ ـ السموم الجرثومية الحيوانية والنباتية.
٣ ـ ناقلات العدوى: مثل الحيوانات المفصلية (اللافقرية)، كالحشرات، والقمل، والبراغيث، والقردة وغيرها من الحيوانات.
٤ ـ الحشرات والنباتات المؤذية.
٥ ـ المركّبات الكيماوية المضادة للمزروعات[٥].

من جهة أخرى، هناك عدة خصائص يجب أن تتوفّر في العوامل البيولوجية ليكون بالإمكان إستخدامها في الأسلحة البيولوجية بحيث تكون فعّالة في تأثيراتها. ومن هذه الخصائص نذكر:

---

(٤) علينا التمييز بين البيولوجيا العامة (علم الأحياء العام) التي تتناول جميع الكائنات الحيّة، والبيولوجيا العسكرية.
(٥) مثل المركّبات التي توقف نمو النباتات، والمركّبات المُسقِطة للأوراق النباتية والمبيدات النباتية.

١ ـ قابلية وبائية عالية.
٢ ـ قدرة على مقاومة الظروف الطبيعية(٦).
٣ ـ قابلية التكيّف وسرعة الإنتشار.
٤ ـ القدرة على إنزال خسائر فادحة لدى بدء الهجوم(٧).
٥ ـ وجوب أن يكون العامل البيولوجي المستخدَم غريباً عن منطقة الهدف(٨).
٦ ـ ملاءمة العامل البيولوجي للإستخدام في الظروف الميدانية.
٧ ـ سهولة إنتاج العامل البيولوجي وتخزينه.
٨ ـ ضرورة ألاّ تكون للأمراض الناتجة عن الجراثيم أمصال أو علاج.
٩ ـ عدم تمتّع الشخص المُصاب بمناعة ضد تلك الجراثيم. لذلك، فإن جرثومة باستوريلاّ توليرينسيس Pasteurella Tularensis المسبِّبة لمرض التولاريميا(٩) تُعتبر من الجراثيم المستخدَمة في الحروب الجرثومية، وذلك عائد إلى عدم وجود مناعة ضدها، إن طبيعية أو مكتسبة، وأنه ليس لها دواء ناجح تماماً، كما أن اللقاح الخاص بها لا يفي كلياً بالغرض ولا يستمرّ مفعوله فترات طويلة، أي أنه يجب تحديد اللقاح خلال فترات قصيرة.

وما يزيد من خطورة الأسلحة الجرثومية انه بالإمكان تغيير الخواصّ الطبيعية للجرثومة، مثل تغيير المناعة وشكل الجرثومة واختبار الحساسية عن طريق إستخدام الطفرة (mutation)، بحيث يصعب تشخيصها. كما ان استخدام خليط من أنواع مختلفة من الجراثيم يزيد من خطورة هذه الأسلحة فيصعب تشخيص المرض ومقاومته. وأحياناً، قد يُستخدم خليط من أنواع مختلفة من الجراثيم مع خليط من أسلحة كيماوية مما يزيد من فعالية الجراثيم ضد الشخص المنهك بسبب فعل الأسلحة الكيماوية.

٣ ـ العوامل المحتمل إستخدامها في الحرب

هناك عدة عوامل بيولوجية من المحتمل استخدامها في الحرب البيولوجية، وهي:

أولاً، الريكتسيا: وهي كائنات طفيلية تعيش في خلايا الجسم وتنتقل عادة عن طريق لسعات القمل والبراغيث والقردة. وهي تُحدث أنواعاً مختلفة من الأمراض، مثل: حمّى التيفوس، والحمّى المنفطة، وحمى كيو (Q-Fever)(١٠)، ويرافق هذه الحمّى طفح جلدي أو

(٦) كالحرارة وضوء الشمس والجفاف.
(٧) عن طريق القتل أو التعجيز.
(٨) بحيث لا تتوفر المناعة الطبيعية لدى سكان تلك المنطقة.
(٩) Tularenia الذي يكون على شكل حمّى متقطعة تستمرّ عدة أسابيع تشلّ الجسم البشري وتضعفه وقد يؤدّي إلى الموت.
(١٠) مرض شبيه بحمّى التيفوس يؤدّي، في كثير من الأحيان الالتهابات الرئوية.

بقع جلدية واضطرابات في الجهاز العصبي المركزي. أما الأمراض التي تسبّبها الريكتسيا في الحيوانات فهي مرض المروج الخطير والمميت للماشية، وهو ينتقل بواسطة القردة.

ثانياً، الفيروسات: وتشمل هذه المجموعة أصغر الأحياء المجهرية وأدقّها. ومع أنها تحتاج إلى أنسجة حيّة لنموها وتكاثرها، إلاّ أنه من الممكن تطوير الوسائل الفنية لإنتاجها على نطاق عسكري، وتؤدّي بعض الأمراض إلى أمراض وبائية خطيرة تصيب الإنسان منها: النكاف، وداء الكلب، والانفلونزا، والجدري، والحمّى الصفراء. ومن الأمراض التي تصيب الحيوانات: طاعون الدجاج،وهيضة الخنازير، ومرض الفم والأظراف، وطاعون الماشية. ومن الأمراض التي تصيب النباتات: بعض أمراض قصب السكر، وفسيفساء التبغ والخيار.

ثالثاً، البكتيريا: وهي كائنات حيّة ذات خليّة واحدة تنتشر بكثرة في الطبيعة. ومن الأمراض التي تحدثها بعض أنواع البكتيريا: تسمّم الأغذية، والحمّى القرمزية، وإلتهاب السحايا. وهناك نوع من البكتيريا العضوية الذي يسبّب السلّ، والجمرة الخبيثة، والتيفوئيد، والطاعون، والسفلس. ومن الأمراض التي تسبّبها السموم (toxins) التي تفرزها بعض أنواع البكتيريا: الخناق، والكزاز، بينما تحدث البكتيريا في النباتات أمراضاً منها: الذبول البكتيري الذي يُصيب القمح والخيار.

رابعاً، الطفيليات (البروتوزوا): وهي مجموعة غير متجانسة من الكائنات الحيّة ذات الخليّة الواحدة، ومعظمها لا يؤدّي إلى أمراض بين البشر أو الحيوانات، إلاّ أن بعضها يولّد أمراضاً خطيرة مثل: الزحّار الأميبي (الديزنتاريا)، ومرض النوم الإفريقي، والملاريا، وأمراض التراييا نوسوم التي تصيب الحيوانات.

خامساً، الفطريات: وهي كائنات حيّة أحادية أو متعددة الخلايا. وتشمل الفطريات، العفنات، ويرقان النبات، والخميرة. وتسبّب أمراضاً قليلة نسبياً للإنسان أو الحيوان، مثل «قدَم العدّاء» (Athlete's Foot)، بينما تسبّب أمراضاً نباتية عديدة. وهناك نوع من الفطريات يسبّب أمراضاً خطيرة للإنسان والحيوان مثل: الهستوبلازموس (انكماش البلازما)، والكريْتوكوكوزس، والبلاستومايكوزس. ومن الأمراض النباتية التي تحدثها الفطريات: مرضَ النقطة الذي يصيب الأرزّ، وآفة البطاطا، وآفة قصب السكر، وتعفّن الحبوب.

٤ ـ وسائل إيصال العوامل البيولوجية الى أهدافها.

هناك عدة طرق لإيصال العوامل البيولوجية الى أهدافها: أهمها:

أولاً: يمكن نشر السلاح الجرثومي على هيئة ضباب دخاني سواء بتعبئته في ذخائر على شكل ضباب نشط أو بالرشّ مباشرةً بواسطة الطائرات. وبما أن كثيراً من الأوبئة

العادية تنتشر بهذه الطريقة، كالإنفلونزا، فإن أكثر طرق نشر الأوبئة فعالية هي نشرها بواسطة الهواء. ويتطلّب نشر الجراثيم على هذا النحو أن تكون جزئيات الضباب أصغر ما يمكن. ولا شك في أن طريقة نشر العوامل البيولوجية بواسطة الهواء تواجه صعوبات كثيرة، إذ أن ضوء الشمس يقتل الجراثيم في وقت قصير، وحتى في حال وجود ظروف مثلى فإن معظمها لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة أكثر من اربع وعشرين ساعة (راجع الجدول رقم ٢).

ثانياً: كما يمكن نشر السلاح الجرثومي عن طريق تلويث الطعام أو الشراب بالجراثيم أو عن طريق لدغات الحشرات الحاملة للجراثيم. إذ انه من الممكن أن يقوم أحد العملاء بتلويث مياه الأنهار والخزّانات بالعوامل البيولوجية، كما من الممكن أن يقوم العدو بقصف مصادر المياه بالقنابل التي تحتوي على عوامل بيولوجية.

ثالثاً: العدوى من خلال الجلد، كما هي الحال عندما يتعرّض الإنسان الى لدغ البعوض أو القمل أو البراغيث المصابة. وبالإمكان نشر الجراثيم عن طريق إطلاق الجرذان في حاويات خاصة يتمّ إسقاطها من الجو بحيث تنفتح تلقائياً لدى إرتطامها بالأرض. لكن، بما أن هذه العملية تحتاج الى أعداد كبيرة من الجرذان، وبما أن هذه الجرذان قد تجد صعوبة في التأقلم، فهناك صعوبة في استخدام هذه الوسيلة.

وبالإمكان القول إن الوسائل التي تُستخدم لقذف وإيصال العوامل البيولوجية الى أهدافها هي الوسائل ذاتها التي تستخدمها الأسلحة الأخرى بما في ذلك الأسلحة الكيماوية، ومن هذه الوسائل:

١ ـ حاويات خاصة تُلقى من الجو بواسطة الطائرات.
٢ ـ عمليات تخريبية يقوم بها عملاء.
٣ ـ استخدام ذخائر خاصة بالحرب البيولوجية، كقذائف المدفعية والهاون.
٤ ـ آلات رشّ ومولّدات ضباب تحملها الطائرات.

وإن أفعل وسائل القتال التي يمكن استخدامها لشنّ هجوم بالعوامل البيولوجية هي إستخدام طائرات تطلق سُحباً محمّلة بهذه العوامل. أما الشروط التي تضمن نجاح الهجوم البيولوجي بهذه الوسيلة فهي:

أولاً: أن يتمّ الهجوم بشكل سرّي في الليل(١١).
ثانياً: أن تكون تيارات الحمل الهوائية الساخنة على ارتفاعات مناسبة فوق سطح الأرض.

(١١) لأن العوامل البيولوجية لا تستطيع احتمال ضوء الشمس لفترة طويلة.

ثالثاً: أن تهبّ الرياح بثبات فوق منطقة الهدف بكاملها.

٥ ـ وسائل الوقاية من الأسلحة البيولوجية

إن هدف التطهير هو إبادة الكائنات المجهرية أو إبطال تأثير سمومها. وإذا تعذّر ذلك، فإن التطهير يكون بمنع وصول هذه الكائنات الى الناس عبر استخدام المطهّرات التي يجب أن تتوفّر فيها الخصائص التالية:

أولاً: التأثير على أكبر عدد ممكن من العوامل البيولوجية.
ثانياً: سرعة التأثير وفاعليته.
ثالثاً: توفّر المطهّرات بأسعار معقولة.
رابعاً: عدم تأثير المطهّرات على المواد والتجهيزات التي يجري تطهيرها.
خامساً: أن تكون التأثيرات الجانبية للمطهّرات قليلة الخطورة.

والمطهرات كثيرة الأنواع، أهمها: مسحوق القصر أو المركّبات التي تحتوي على الكلور، ومحلول دانك، ومحلول الفينول، ومحلول الكريزول (تركيزه ٪)، والكحول، والفورمالين، ومحاليل بيروكسيد الهيدروجين. وبرمنغنات البوتاسيوم، وفلوريد الزئبقيك، وبيتابر وبيولاكتون؛ ومن أكثر المطهّرات توفراً في الظروف العادية الماء المغليّ والصابون، أو الصابون المعقّم، وهذه المطهّرات تُستخدم لتطهير الملابس والتجهيزات والأبنية والأرض. وينبغي استخدام وسائل التطهير الفيزيائية، كالتعريض لأشعة الشمس أو الحرق عندما يتعذّر اللجوء الى استخدام المطهّرات الكيمائية.

ولأن الهجوم بالسلاح الجرثومي غالباً ما يكون عن طريق نشره على هيئة ضباب دخاني، فالإصابة تكون عن طريق إستنشاق ذلك الضباب. لذا، فان أفضل طرق الوقاية هي استخدام الأقنعة الواقية مثل القناع الأميركي «M_{17} CB» والقناع المدني «CDV - 805». كما يجب الاحتراز من الحشرات والمياه والمأكولات الملوّثة بالجراثيم. ويجب أخذ اللقاحات المناسبة ضد الجراثيم ـ أو العوامل ـ المتوقّع استخدامها من قبل المهاجم. أما في حال دخول الجراثيم الى الجسم فيأخذ المُصاب فوراً خليطاً من المضادات الحيويّة المؤثّرة في معظم الجراثيم، مثل حقنة مكوّنة من غرام واحد من الأستربتومايسين، ونصف غرام من البنسلين، ونصف غرام من الترامايسين. وبعد تحديد نوعية الجراثيم المستخدمة، يُستعمل المضاد الحيويّ أو المصل الواقي لهذه الجراثيم حسب نوعها. كما يجب عزل المصابين حتى لا تنتقل العدوى، وإعطاء غير المصابين اللقاح الواقي ضد هذه الجراثيم.

والجدير بالذكر أن هناك حالياً أجهزة متطورة لأخذ عيّنات من الهواء المحيط، بعد الهجوم مباشرةً، من أجل معرفة نوعية الجراثيم الموجودة، وبالتالي يمكن الحصول على

المضاد الحيويّ أو المصل الواقي قبل استفحال المرض. وبالإمكان الإستدلال على احتمال وقوع هجوم بالعوامل البيولوجية عندما يُشاهَد ضباب دخاني أو حشرات أو قنابل ضعيفة الإنفجار.

ومن وسائل الوقاية المهمة محاولة متابعة العدو والتنبّؤ بنوعية العوامل الجرثومية التي لديه، وبالتالي، استخدام اللقاح الواقي قبل حدوث الهجوم. مثال على ذلك أن المسؤولين في الولايات المتحدة الاميركية قد ساورهم الشك في إستعمال النازيين للقنابل الطائرة المملوءة بالمادة السامة الناتجة عن جرثومة العصيات الحاطمة (Botulinus)، فأرسلوا عشرات الآلاف من اللقاحات المضادة الى بريطانيا.

مهما يكن من أمر، ورغم أساليب الوقاية المتعدّدة، فإنه، في حالة الحرب، قد تُفْقَد السيطرة على مثل هذه الأمراض مما يؤدّي الى انتشار الوباء، وبالتالي، إضعاف الروح المعنوية لدى المقاتلين.

ما هو القناع الواقي؟

يحتوي القناع على مِرْشح بداخله حُبَيْبات بحجم حبّة الشعير من فحم نباتي ينقّي الهواء من الغازات السامة قبل أن تصل الى الفم والأنف والعينين. وقوة المرشح تعتمد على قدرة الفحم النباتي على امتصاص الغازات أو الأبخرة القابلة للتكيّف. وينبغي تنشيط حُبَيْبات الفحم النباتي قبل الاستعمال، وذلك بتسخينها حتى تبلغ درجة حرارتها ٩٠٠ م. فتخلو مسامها من المواد العضوية بما فيها الغازات، ويسهل عليها امتصاص الغازات وقت الاستعمال.

كما يجب أن يحتوي القناع على وسائد من القطن أو الصوف أو الحرير الصخري لحجز الدخان، حيث أن الفحم لا يمتصّه بسبب كبر حجم جزئيات الدخان. ويجب أن يحتوي القناع على نظام خاص لمنع تكدير جهاز الإبصار وعلى صمّامات للتحدّث.

هناك أنواع متعددة من الأقنعة الواقية مثل القناع الاميركي، والقناع السوفياتي. ويُستخدم القناع الأول (الاميركي) كقناع واقٍ ضد الأسلحة الكيماوية وكذلك الجرثومية، كما أنه يقي من الغبار الذرّي.

٦ ـ تطورات جديدة في العوامل البيولوجية

تُفيد مصادر البنتاغون في تقرير رُفع الى الكونغرس الاميركي حول برنامج الحرب البيولوجية الاميركي الجاري إعداده[١٢] أن التكنولوجيا الاحيائية الحديثة

(١٢) النشرة الإستراتيجية، عدد ١٢، لندن، ١٩٨٩.

(biotechnology) تصلح لتطوير عناصر بيولوجية مستحدثة يمكن إستخدامها لأغراض عسكرية. كما ان الاتحاد السوفياتي يقوم من جهته باستغلال الأبحاث في هذا المجال في برامجه النظيرة للبرنامج الاميركي. وتذهب المصادر العلمية الاميركية الى أنه قد يكون من السابق لأوانه تجيير التطورات الجديدة في أبحاث التكنولوجيا الاحيائية للأهداف العسكرية(١٣).

وترى بعض الأوساط الاميركية أنه ليس هناك في الواقع ما يشير الى أن الإتحاد السوفياتي يهتمّ جدّياً بتطوير جيل جديد من العوامل البيولوجية، غير أن هناك، في المقابل، دلائل عديدة تشير الى اهتمام وزارة الدفاع الاميركية بذلك وفي أواخر عام ١٩٨٤، كان قد كُشف النقاب عن قيام البنتاغون بتأسيس تسهيلات منيعة خاصة لتجربة الذُرَيْرات الصلبة (aerosol) التي تحتوي على العناصر البيولوجية الفتّاكة في قاعدة «دوغواي» بولاية يوتا المخصَّصة لتجارب الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. وقد توقّف العمل في بناء التسهيلات المذكورة مؤقتاً إثر دعوة قانونية رُفعت ضد وزارة الدفاع من قبل إحدى مجموعات حماية البيئة المحلية.

ويقول التقرير أنه نتيجة «لإهمال» البحوث في مجال الحرب البيولوجية خلال السبعينات، لم تعد الولايات المتحدة قادرة على توفير الدفاع ضد العناصر البيولوجية التقليدية، مثل مرض الجمرة (anthrax). إلاّ أن التقرير يقرّ بأن هذه العناصر قد تكون محدودة الفعالية في ساحة الحرب الحديثة. ويشير التقرير الى تقييم «الهيئة الاميركية الخاصة للحرب الكيماوية» التي تأسّست عام ١٩٨٥، والذي خلص الى «ان غياب إمكانية السيطرة المحكمة على الأسلحة الكيماوية في ساحة المعركة يجعل إستخدامها أمراً مستبعداً. كما انه بخلاف الأسلحة الكيماوية وسمومها، تحتاج العوامل البيولوجية الى فترة كبيرة، نسبياً، قبل أن يكون لها أثر فعّال».

ويركّز التقرير المذكور على أن الهندسة الوراثية (Genetic engineering) وأساليب البيولوجيا الجزئية (Molecular)، بالتضافر مع أنماط الإنتاج الحديثة، تجعل الحرب البيولوجية «أسهل وأرخص» من السابق، كما تجعل من «الأصعب بكثير» الكشف عن استخدام الأسلحة البيولوجية واتّخاذ الإجراءات المضادة المناسبة للوقاية منها.

أسلحة بيولوجية جديدة

ويقول تقرير «البنتاغون» السابق ذكره إنه بات بالإمكان تصوّر وضع يقوم به «طرف معادي» بتطوير الأسلحة البيولوجية على النحو التالي:

---

(١٣) المرجع السابق نفسه.

□ يمكن منح الأجسام الحيّة (organisms) خصائص المناعة التي تسمح لها بالتملّص من الحماية التي يؤمّنها اللقاح أو نظام الدفاع الطبيعي في الجسم البشري. وهذا، عملياً، قد يلغي أهمية التطعيم أو الدفاعات الطبيعية في مواجهة الأمراض الفتّاكة أو السريعة الانتشار.

□ يمكن تطوير السموم الشديدة الفعالية التي يمكن استخدام كميات ضئيلة جداً منها، بهدف نشر الأمراض عند الطرف الآخر.

□ يمكن تطوير السموم النباتية أو الفطرية (Fungal) التي يمكن استخدامها ضد الثروة النباتية كوسيلة حربية ضد المحاصيل الزراعية لدى الطرف الآخر.

□ يمكن تطوير «البيبتيد» (Peptides) النشطة فيزيولوجياً، والتي تؤدّي الى «تصرّفات شاذة» من قبل الأطراف التي تتعرّض لها.

ويفيد تقرير البنتاغون أنه لم تعد أكثر هذه الاحتمالات مجرّد بدائل نظرية، بل أصبحت في متناول اليد. كما ان الإستمرار في تحسين أساليب الإنتاج في صناعة المادة البيولوجية قد جعل من الممكن القيام بعمليات إنتاج سريعة وسهلة، وقليلة الكلفة نسبياً.

ويضيف التقرير أنه في حين تحتاج عملية اكتشاف وتطوير هذه العوامل المحتملة في ميدان الحرب البيولوجية الى طاقات بشرية رفيعة المستوى عند الذين يُعتبرون في «الخط الأمامي» لعملية البحث العلمي عموماً، فإن تطبيقات مثل هذه الإكتشافات لا تحتاج إلاّ لطاقات بشرية محدودة الكفاءة والخبرة التقنية والقدرة على القيام بالأعمال العلمية الروتينية. ويخلص تقرير البنتاغون الى القول بأن «الحرب البيولوجية ليست جديدة، لكنها تملك وجهاً جديداً».

من جهة أخرى، ركّز دوغلاس منيت، مساعد وزير الدفاع الاميركي، على النقاط السابقة نفسها، وهو يقول في هذا الصدد: «أصبح من الممكن تطوير الأسلحة البيولوجية التي يمكن استخدامها في طيف عريض من العمليات الحربية، بما في ذلك العمليات الخاصة والإشتباكات التي تجري على المستويات التكتيكية». وأضاف منيت: «أن هناك الآن إمكانية لتطوير عناصر بيولوجية لا يمكن كشفها. كما ان الرأي السائد في المرحلة السابقة بأن الأسلحة البيولوجية ليست ذات فائدة عسكرية رئيسية هو رأي لا يمكن الإلتزام به في الظروف الحالية»(١٤).

التنافس الأميركي ـ السوفياتي في ميدان العوامل البيولوجية

كانت الولايات المتحدة الأميركية قد اتّهمت الاتحاد السوفياتي بأنه إستخدم «المطر

(١٤) النشرة الاستراتيجية، عدد ١٢، لندن ١٩٨٩.

الأصفر» (Yellow Rain) «10» في أفغانستان، وبأنه شنّ كذلك حرباً كيماوية ضد المعارضة الكمبودية في جنوب شرق آسيا دعماً لعمليات القوات الفيتنامية. كما يقول الأميركيون إن السوفيات ينفّذون برنامجاً من الأبحاث في مجال الهندسة الوراثية التي تستهدف تطوير الأسلحة البيولوجية المستحدثة.

وهذه الإتّهامات تنطوي على أبعاد هامة، إذ أنها تترك انطباعاً بأن السوفيات قد تخطّوا الولايات المتحدة في بعض المجالات في الحرب البيولوجية. ولو كان ذلك صحيحاً، فإنه على الصعيد العلمي تتوفر لدى الولايات المتحدة الأميركية خبرة أوسع من الإتحاد السوفياتي في الأبحاث البيولوجية، كما أن أميركا متفوّقة على السوفيات فيما يتعلّق بحقل الهندسة الوراثية بالذات.

ويعتقد المسؤولون الأميركيون أن الولايات المتحدة الأميركية تواجه تهديداً في مجال العوامل البيولوجية مما يستدعي المضي بالتجارب الخاصة في قاعدة «دوغواي». وقد أجريت، في هذا الخصوص، تجربة الذرّيات الصلبة التي يمكن بواسطتها نشر الأمراض مثل «التولاريما» «وحمّى كيو»، بالإضافة إلى مرض الجمرة.(١٦).

على أن المصادر الرسمية الأميركية تصرّ على أن الولايات المتحدة لا تنوي الخوض في مجال تطوير الأسلحة القائمة على أبحاث الهندسة الوراثية رغم ادّعائها بأن السوفيات يسيرون في هذا الإتجاه. وقبل إنتهاء الحرب الباردة بين الجبارين، أعرب بعض الأوساط الأميركية العلمية عن قلقه من احتمال استخدام البنتاغون لذريعة «التهديد السوفياتي» من أجل الإنتقال إلى مرحلة جديدة من الأبحاث العلمية أشدّ خطورة، قد تؤدي في نهاية المطاف إلى إدخال عناصر يصعب السيطرة عليها أو التحكّم بها إلى ميزان القوى العسكري الاستراتيجي القائم. حتى ولو لم يكن الخطر هو احتمال استعمال هذه الأسلحة الجديدة، فإن مثل هذه الأوساط ترى أن من الإفرازات المحتملة للتوجّه نحو استغلال الهندسة الوراثية للأغراض العسكرية هو التوصل إلى ابتكارات جديدة في «هامش» حقل الحرب البيولوجية، مما قد يحفز الاهتمام العالمي بهذا الحقل ويؤدّي بالتالي إلى تآكل الضوابط السياسية والديبلوماسية والمعنوية التي ساهمت في الحدّ من استخدام هذه الأسلحة الفتّاكة في الحروب المعاصرة بشكل عام.

إتفاقيات عالمية لمنع استعمال العوامل البيولوجية

لقد عُقدت عدة إتفاقيات عالمية لمنع استعمال العوامل البيولوجية والجرثومية في المعارك ولتدمير جميع مخزون الدول من هذه الأسلحة، وذلك نظراً للخطورة التي تشكّلها،

---

(١٥) هو التعبير المستخدم لوصف المواد السامة التي يُفترض أن السوفيات يقومون بقذفها ضد مواقع الثوار الأفغان.
(١٦) مرض فتّاك بنسبة ٨٠ ـ ٩٠٪ حسب الأسلوب المتّبع في نشر الوباء.

من حيث نشوء أمراض وبائية في العالم أجمع، خصوصاً إذا ما تمّ تطوير هذه الأسلحة وأُنتجت جراثيم قاتلة ليس لها مضادات حيوية.

ومن هذه الاتفاقيات إتفاقية جنيف عام ١٩٢٥، المحرِّمة للأسلحة الكيماوية والبيولوجية، وإتفاقيات أخرى تلتها. إلا أنه تمّ خرق هذه الإتفاقيات في بعض الحروب. مثال على ذلك، ما قامت به اليابان خلال حربها مع الصين عام ١٩٤٠ لجهة نشر وباء الطاعون عن طريق إنزال كميات من الجرذان الموبوءة بالمظلات في مدن عديدة من الصين. وأدّى ذلك إلى مقتل عدد كبير من المدنيين. وتفيد التقارير، حول هذا الموضوع، أن الأسلحة الجرثومية أو البيولوجية قد استُخدمت في الحربين الكورية والفيتنامية. كما أن معظم الدول لم تدمّر مخزونها من هذه الأسلحة، بل استمرّت في اجراء الأبحاث المتقدّمة في هذا المجال.

لقد بدأ النازيون والسوفيات والبريطانيون والأميركيون بتنفيذ أبحاث مكثّفة لتطوير الأسلحة البيولوجية، وذلك قبل الحرب العالمية الثانية. وتشير الأحداث إلى أن بريطانيا فجرّت قنبلة مملوءة بجراثيم باسيليس أنتراسيس (Bacillus anthracis) المسبِّبة لمرض الجمرة الخبيثة على جزيرة «غريونارد»، مما أدّى إلى موت عدد كبير من الماشية ومنع دخول الناس إليها لأن الجراثيم ستبقى في الجزيرة لسنوات عديدة. وتفيد التقارير أن اليابانيين قد صنعوا خلال الحرب العالمية الثانية قنبلة مملوءة بجراثيم باسيليس أنتراسيس الآنفة الذكر، كما أنشأوا مختبرات أبحاث لإنتاج الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. ومن المعتقد أن هناك دولاً أخرى تجري أبحاثاً في الأسلحة البيولوجية، ومنها جنوب إفريقيا، واسرائيل، وكندا، والسويد، وبولونيا، وألمانيا الغربية، والصين الوطنية وفرنسا. إلاّ أنّه من الصعب تحديد جميع الدول التي تجري أبحاثاً في هذا المكان أو ذاك، لأنه بالإمكان إخفاء الأمر في المستشفيات والجامعات بحجة أن هدف تلك الأبحاث أغراض طبية وقائية.

اسرائيل والسلاح البيولوجي

١ ـ العوامل البيولوجية في اسرائيل.

بما أن تكاثر العرب العددي يقلق إسرائيل، فإنها لن تتوانى عن إستخدام العوامل البيولوجية إذا ما اعتقدت أن ذلك سيساعدها على تحقيق هدفها في معركة الحياة أو الموت التي ستخوضها. وما التقارير الواردة من إسرائيل والتي تفيد عن إستعانتها، في بداية الأمر، بالعلماء الألمان في بحوثها العلمية الخاصة بالحرب البيولوجية، إلاّ دليل على أنها تملك العوامل البيولوجية بكثرة.

إن العامل البيولجي هو سلاح هجومي. ولو درسنا هذا العامل وخواصه، لوجدنا أنه يُستخدم ضد السكان المدنيين في المدن والمناطق المأهولة أكثر منه ضد القوات المسلّحة في

ميدان القتال وذلك لأن الجراثيم كائنات صغيرة وضعيفة، تتعرّض بسهولة للموت من جرّاء العوامل الطبيعية كالضوء والحرارة والرياح. وإذا استُخدمت هذه الأسلحة ضد القوات المتحاربة في الميدان، فإن حرارة الجو، وأشعة الشمس وبخاصة البنفسجية منها ستقضي على كثير منها. وكذلك، فإن الرياح تعمل على تشتيت الغيوم الجرثومية عن منطقة الهدف. وإذا علمنا أن انفجار القنابل الحاوية على الجراثيم سيقضي على قسم منها، لأدركنا أن ما يبقى منها لن يؤثّر في القوات المتحاربة تأثيراً كبيراً، خصوصاً وأن هذه القوات تكون موزّعة في مناطقها. ويزوَّد أفرادها عادةً بالأقنعة الواقية التي تحول دون دخول الجراثيم إلى داخل الجسم عن طريق الفم أو الأنف. وعلينا ألاّ ننسى أن القوة البدنية لأفراد القوات المسلّحة هي أفضل منها لدى سائر أفراد الشعب، وبالتالي فإن مناعتهم ضد الأمراض التي تسبّبها العوامل البيولوجية هي أكثر من مناعة غيرهم.

من هنا نستنتج أن اسرائيل، إذا استخدمت السلاح البيولوجي ضد العرب، فستهاجم المدن والقرى العربية، وليس القوات العربية المسلّحة. ومن البديهي أن تل أبيب ستستخدم العوامل البيولوجية ضمن خطة استراتيجية، عامة تنطوي على استخدام جميع أسلحتها ذات التدمير الشامل، مع قواتها المسلّحة البرّية، والجوية والبحرية. ويرى المراقبون العسكريون، في هذا الصدد، أن اسرائيل تفضّل إستخدام العوامل البيولوجية ضد أقطار عربية بعيدة أكثر من إستخدامها ضد بلدان عربية مجاورة مع أن الأقنعة الواقية تحمي أبناءها.

٢ ـ أغراض إسرائيل من الأسلحة البيولوجية.

إن الأغراض التي تسعى إسرائيل إلى تحقيقها من استخدام العوامل البيولوجية هي أغراض استراتيجية لا تعبوية (تقنية). ويمكن حصر هذه الأغراض في ما يلي:

أولاً: إفناء القوى البشرية العربية وراء خطوط القتال، أو جعلها عاجزة عن العمل، وهذا يساعدها في القضاء على التفوق العددي العربي.

ثانياً: إشغال الحكومات العربية بالمشاكل الناجمة عن تفشّي المرض بين أفراد الشعب، وبالتدابير الواجب إتّخاذها لمعالجتهم، ولمكافحة الأمراض والأوبئة ليس بين صفوفهم فحسب، بل في أوساط الحيوانات أيضاً.

ثالثاً: إضعاف معنويّات الشعوب العربية وتقليل مقاومتها.

٣ ـ نوع السلاح البيولوجي الاسرائيلي.

تُصنّف العوامل البيولوجية التي يمكن أن تُستخدم كسلاح بيولوجي إلى نوعين:

أولاً: العوامل الثابتة: وهي أنواع من البكتيريا قليلة جداً لها قابلية للركود (الراحة والسبات) فترة من الزمن، والرجوع بعدئذ إلى حالة النمو الطبيعية عندما تسمح لها

الظروف بذلك. مثال على ذلك: البكتيريا التي تسبّب أمراض الجمرة الخبيثة.

ثانياً: العوامل غير الثابتة: وهي عبارة عن أنواع من البكتيريا الأخرى التي تموت بسرعة في الظروف غير الملائمة لها، كالضوء والحرارة والجفاف الخ؛ ومن هذه الأنواع: البكتيريا التي تسبّب الطاعون والخناق وإلتهاب الأمعاء. ومنها أيضاً الفيروسات التي تسبّب داء الكَلَب والإنفلوزا الوبائية والحمّى الصفراء.

ومن المحتمل أن تستخدم اسرائيل كلا النوعين عند الحاجة. لكن، من المرجّح أنها ستستخدم النوع الأول خلال الصيف وفي الأيام التي لا تصلح لاستعمال العوامل غير الثابتة. وبوسعها، طبعاً، استخدام الحشرات وما يشبهها، كناقلات للمرض[١١]: مثال على ذلك، القمل الذي ينقل التيفوس والبعوض الناقل للملاريا. إلاّ أن استخدام هذه الحشرات يقتصر على العمليات التخريبية المحدودة، وهي لا تشكّل خطراً كبيراً على البلدان العربية.

ومن الوجهة العسكرية، فإن أكثر العوامل تأثيراً هي التي تسبّب الموت أو العجز لوقت قصير، ووفيات قليلة، لكنها تسبّب المرض والتعب والعجز مدةً طويلة. وهذه العوامل يستطيع الإنسان أن يُشفى منها شفاءً تاماً في أغلب الأحيان.

٤ ـ الوسائل المتاحة لدى اسرائيل

ثمة طرق ثلاث لإيصال العوامل البيولوجية إلى أهدافها، وهي:
أولاً: قنابل (او حاويات) يتمّ تفجيرها في الجو.
ثانياً: نشر العوامل البيولوجية من الطائرات كسائل.
ثالثاً: التخريب.

ومن الممكن أن تستخدم اسرائيل الطريقة الأولى إذا هاجمت البلدان العربية، إذ أن السلاح البيولوجي هو أفضل الوسائل وأسهلها لمهاجمة السكان المدنيين. وأما طريقة النشر من الجو فيمكن أن تلجأ إليها اسرائيل في الهجوم على المدن العربية القريبة منها. وبالنسبة إلى أسلوب التخريب، فقد تستخدم العوامل البيولوجية بشكل محدود وضد أهداف معيَّنة. كما قد تستفيد إسرائيل من عملائها لتلويث مياه الشرب، أو للمواد الغذائية أو المحاصيل الزراعية أو الحيوانية عند الحاجة.

ويُعتبر تلويث مياه الشرب أخطر عمليات التخريب البيولوجية لأن انتشار المرض بهذه الطريقة يحصل بصورة أوسع من إنتشاره بالطرق الأخرى. لكنّ هذه العملية ليست سهلة، خصوصاً إبان الحرب حيث تكون خزّانات المياه تحت حراسة مشدَّدة، وتُرسَل يومياً نماذج من مياهها إلى المختبرات لفحصها. وإذا اكتُشفت فيها الجراثيم، فبالإمكان إبادتها، بزيادة مقدار «الكلور» الذي يُستخدم عادةً لتعقيم المياه في الخزّانات.

(١١) وذلك لمهاجمة الأغذية والنباتات بصورة مباشرة أو مهاجمة الإنسان بصورة غير مباشرة.

الجدول رقم ٢ (*).

مدة بقاء التأثير	المدة اللازمة لظهور التأثير	الأضرار الحاصلة للمنشآت المتأثّرة في الحال	وقت إحتلال المكان من قبل المهاجم
٨ إلى ٣٦ ساعة	٨ ثوانٍ الى ٣٠ دقيقة	بدون أضرار	حالاً
امكانية إنتشار مرض وبائي الى مساحات اخرى لوقت طويل	٣ الى ١٤ يوماً	بدون أضرار	بعد إنتهاء فترة احتضان المرض
ستة أشهر إخلاء للمساحة المتأثّرة في الحال، بالإضافة ألف ميل مربع	ثوانٍ	تدمير المنشآت القائمة في مساحة قدرها ٣٦ ميلاً مربّعاً	٣ إلى ٦ أشهر
مدى سهولة معرة الهجوم	طرق الحماية	مدى إجتياح العناية الطبية	تكاليف إنتاج هذه الأسلحة
يمكن معرفة نوعاً ما	أقنعة الوقاية، ملاجىء تحتوي على مرشحات.	ضروري	يحتاج تقنية متوسطة، ودعم مالي متوسط.
من الصعب معرفة الهجوم	أقنعة الوقاية، ملاجىء تحتوي على مرشحات، تلقيحات وقائية.	ضروري جداً	تقنية عادية، وتكاليف مادية زهيدة.
سهل	إخلاء المكان، ملاجىء أقنعة وقاية.	قليل	تحتاج الى تقنية عالية جداً ودعم مالي كبير.

(*) الجدول منقول عن كتاب، فهمي حسن أمين، الأسلحة الحيوية، وذلك بعد أخذ إذن المؤلف.

أنواع الجراثيم المستخدمة في الأسلحة الجرثومية ومعلومات عنها

اسم المرض DISEASE	الكائن الحي المسبب ORGANISM	جرعات العدوى INFECTIVITY	التأثير EFFECTS
أولاً: الأمراض البكتيرية BACTERIAL DISEASES:			
الجمرة الخبيثة Anthrax	باسيليس انثراسيس Bacillus anthracis	٢٠,٠٠٠ كائن وله قطر يقرب من ميكورنين اثنين	تعطيل التنفس وغالبا ما تكون مميته إذا لم تعالج
الحمى المتحوجة Brucellosis	بروسلا ميليتينسس Brucella melitensis	مرتفع تقريباً ١٣٠٠ كائن	حمى متكررة حادة ومستمرة ونادراً ما تكون مميتة
الكوليرا Cholera	فيبرو كوليرا Vibro cholera	منخفضة	تأثيرات معوية حادة، ومعظم الأحيان تكون مميتة
الرعام (مرض يصيب الخيل فيسيل لعابها) Glander	مالوميس مالي Malleomyces mallei	مرتفع ٣٢٠٠ كائن حي	نوبات حادة وحمى قاسية وغالباً ما تكون مميتة
ميليوديوسس Melioidosis	وايت موريلابسيود مالي Whitmorella Pseudomullei	مرتفع	حمى قميئة، تسبب عادة هوسا واهتياجا
الطاعون Plague	باستير يلابيتس Pasteurella pestis	مرتفع ٣٠٠٠ كائن حي	قاس جداً وغالباً ما يكون مميتاً
داء التلرمات Tularaemia	باستوريلاً توليرينسيس Pasteurella Tularensis	عال جداً، أكثر من ٥٠ كائناً	داء يصيب القوارض ويتخذ في الإنسان شكل حمى متقطعة

مدة بقاء الجراثيم SURVIVAL	طرق نقل العدوى TRANSMISSION	اللقاح VACCINES	العلاج THERAPA
الجراثيم تتمتع بمقدرة عالية للبقاء	بالاستنشاق أو العدوى عن طريق جلد الحيوانات	متوفر	مضادات حيوية
يمكن بقاؤها بالدكسترين ومنتجات البروتين	الاستنشاق عن طريق الطعام، وأيضاً من الحيوانات	متوفر في الاتحاد السوفيتي	مضادات حيوية
؟	عن طريق الطعام، وأيضاً من الحيوانات	يقلل من حدة قسوة الألم	صعبة
—	الاستنشاق، مع الطعام، وأيضاً مع الحيوانات	غير مرضية	مضادات حيوية
—	الاستنشاق، من الطعام، وأيضاً من الحيوانات	غير مرضية	صعبة
—	الاستنشاق، مع الطعام، اللدغ بواسطة البراغيث	—	مضادات حيوية
غير ثابتة	الاستنشاق، مع الطعام، ولدغ الحشرات	متوفر	مضادات حيوية

طرق الحفظ STORAGE	مدة المناعة EXTENT OF IMMUNITY	المقدرة الوبائية EPIDIMICITY	ملاحظات REMARKS
كجراثيم	محدودة	منخفضة	من الوسائل الثابتة والكثيرة الاستعمال، مدة الحضانة ١ ـ ٥ أيام
لعدة شهور	؟	منخفضة	تؤثر في كل من الإنسان والحيوانات الأليفة
—	توجد إلى مدى لا يعرف حدة	عالية جداً	لسوء الحظ تؤثر على معدل الماء في الجسم، مدة الحضانة ١ ـ ٥ أيام
—	محدودة	منخفضة	تؤثر في الإنسان والحيوانات الأليفة
—	؟	منخفضة	نادراً جداً ومرض غير معروف
—	توجد إلى مدى لا يعرف حدة	عالية	الإصابة بالطاعون فقط عن طريق التنفس وهي التي تستخدم في الحرب، مدة الحضانة ٢ ـ ٥ أيام
—	موجود	غير موجود	عامل جيد جداً في الحرب الجرثومية إلا انه غير ثابت

اسم المرض DISEASE	الكائن الحي المسبب ORGANISM	جرعات العدوى INFECTIVITY	التأثير EFFECTS
ثانياً: الأمراض الفيروسية VIRAL DISEASES:			
حمى أبو الركب Breakbone fever	دينجو فيروسا dengue viruses	مرتفع، عضة ناموسة واحدة، معدل ٢ كائن حي عن طريق الاستنشاق	غالباً ما توهن الجسم، حمى غير معروفة، نادر جداً مميتة
النكاف (أبو كعب) Mumps	—	مرتفع	يشل ويضعف ولكن ليس حاداً
شلل الأطفال Polimyelitis	—	منخفض	شلل دائم قاس وأحياناً مميت
حمى الببغاء Psittactosis	—	مرتفع	حمى خفيفة إلى حادة وأحياناً مميتة
الجدري Small pox	بوكس فايرس فاريودي Poxvirus variolae	مرتفع، قليل من الكائنات	حاد جداً وغالباً مميت
الحمى الصفراء Yellow fever	—	مرتفع، عضة ناموسة	على شكل يرقات حمى ٣٠٪ عرضة للموت

مدة بقاء الجراثيم SURVIVAL	طرق نقل العدوى TRANSMISSION	اللقاح VACCINES	العلاج THERAPY
مرتفع	لدغ بواسطة البعوض أو الاستنشاق	متوفر	صعب
—	الاستنشاق	ينتج بكميات كبيرة	صعب
٨٥٪ مقاوم لمدة ٢٣ ساعة عند ٢١ ـ ٢٤ م	مع الطعام، استنشاق الهواء الرطب	ينتج بكميات كبيرة	صعب
—	الاستنشاق، مع الطعام، لدغ الحشرات	غير مرضية	مضادات حيوية
—	الاستنشاق مع الطعام	ينتج بكميات كبيرة	صعب
—	اللدغ بواسطة البعوض، الاستنشاق	ينتج بكميات وفيرة	صعب

طرق الحفظ STORAGE	مدة المناعة EXTENT OF IMMUNITY	المقدرة الوبائية EPIDIMICITY	ملاحظات REMARKS
ثابت لمدة ٨ سنوات عند درجة ٤١ فهرنهايت	موجود	منخفضة	ممكن أن يكون عاملاً جيداً لشل النشاط والحركة
—	واسع الانتشار	منخفضة	قليل الاستعمال في الحرب الجرثومية لأن المناعة متوفرة
—	واسع الانتشار	منخفضة	قليل ومحدود والمناعة واسعة الانتشار
—	توجد لمدة غير محدودة	منخفضة	تستقبل الطيور المرض. والمناعة نوعاً ما واسعة الانتشار
ثابت عندما يجفف في حالة متجمدة.	واسع الانتشار	مرتفع	المناعة غالباً واسعة الانتشار
ثابت عند ٥ ـ ٤ م	موجود	لا يوجد	مرض شبه المناطق الاستوائية والسلالة التي يمكن أن تعيش في درجات عالية من الحرارة تكون خطرة في الغالب، مدة الحضانة ٣ ـ ٦ أيام

اسم المرض DISEASE	الكائن الحي المسبب ORGANISM	جرعات العدوى INFECTIVITY	التأثير EFFECTS
ثالثاً: أمراض الكساح RICKETTISAL DISEASES:			
حمى كيرى Q-fever	كوسيليا بيرنيتي Coxiella Burnetti	عال جداً، معدل كائن واحد عن طريق الاستنشاق	حرارة مرتفعة وقشعريرة وألم في العضلات ١٪
التيفوس الوبائي Epidemic typhus	ركيتسيا بروزوكي Rickettsia Prow azeki	مرتفع	مميتة حادة جداً، مميتة غالباً
رابعاً: الأمراض الفطرية FUNGAL DISEASE:			
كوكسيدو ميوكيس Coccidis mycosis	كوكسيدويس ايميتيز Coccidioides immitis	١٣٥٠ جرثومة	حمى خفيفة إلى حادة، مميتة في النادر
خامساً: السميات TOXIN:			
تتسم من أكل لحوم فاسدة botulism	كلوستريديم بتولينيوم علماً بأن الفطر نفسه غير سام وأنما ينتج واحد من أعظم السموم المعروفة للإنسان	٠،١٢ ميكرو جرام يقضى على الإنسان في خلال ٦ ساعات وهو أكثر ألف مرة سمية من غازات الأعصاب	سام جداً ٦٠ ـ ٧٠/ مميت

مدة بقاء الجراثيم SURVIVAL	طرق نقل العدوى TRANSMISSION	اللقاح VACCINES	العلاج THERAPA
ثابتة	الاستنشاق، مع الطعام، اللدغ بواسطة القراد	متوفر	مضادات حيوية
فقير	لدغ بواسطة القمل، الاستنشاق، الطعام	ينتج بكميات كبيرة	مضادات حيوية
طور الجراثيم، عالي الثبات	الاستنشاق	غير مرضي	مضادات حيوية؟
ينحل أو يتعفن في مدة ١٢ ساعة في الهواء	الاستنشاق أو الطعام	متوفر كسمين موهن	صعب

طرق الحفظ STORAGE	مدة المناعة EXTENT OF IMMUNITY	المقدرة الوبائية EPIDIMICITY	ملاحظات REMARKS
ثابتة	موجود	بدون	تأثير عال جداً
صعب	موجود	عال جداً، لكن لا ينتقل من إنسان لآخر	غير محتمل أن يستخدم في الحرب الجرثومية، له مقدرة ضعيفة على النبات. مدة الحضانة ٦ ـ ١٥ يوم
كالجراثيم	موجود	منخفض	ثابت جداً، عامل مناسب جداً للحرب الجرثومية إذا وجد اللقاح
البكتريا كالجراثيم أو السمين في إناء	لا يوجد	لا يوجد	سريع الفعالية جداً وأكثر من أي عامل جرثومي آخر في الحرب الجرثومية

مراجع البحث

(١) Clarke, Robin, we all fall down: The prospect of Biological and chemical ware fave, London, Allen Lane, 1968.
(٢) International Institute For peace and Conflict, Stockholm, Almquist & Wiksell; New York, Humanities press 1971.
(٣) SIPRI Year book, world Armaments and disarmament, oxford, London, 1989.
(٤) الموسوعة العسكرية الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥، بيروت، الطبعة الثانية.

* * *

NSK

ديكوري

نجيب سليم حاتم

مفروشات ديكور

المكلس
متفرع من شارع سامي الصلح
ملك كوستي جبيس - الطابق الارضي
هاتف: ٣٩٤١٨٨ - ٣٩١٩٥٣
بيروت - لبنان

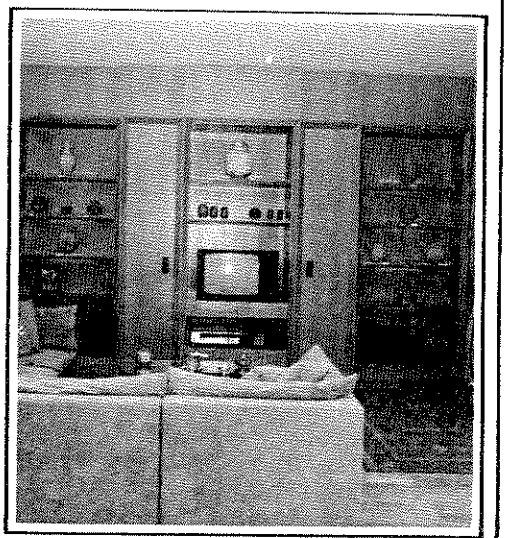

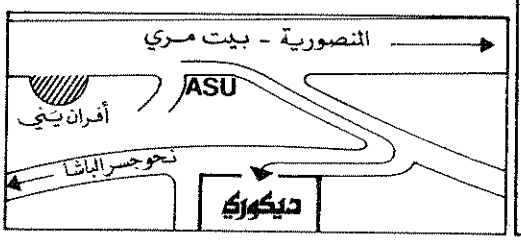

الاعلام في خدمة السلام

د. عامر مشموشي*

يقول **كينت بولنج** «إن الفارق الكيفي القائم بين هذا العمر وما سبقه من أعمار هو أننا أطعنا تيار التغيير بسرعة جعلته يفرض وجوده على إحساسنا بالزمن، أو يحدث ثورة في إيقاع حياتنا اليومية. إننا لم نعد نحسّ بالحياة كما كان يحسّها الناس في الماضي لأن التسارع هو القوة الكامنة خلف اللاثبات.

إن هذه الحقيقة التي فجرّها المفكّر بولدنج تؤكّد أن تقدّم المجتمعات الانسانية المعاصرة، وقدرتها على معالجة المشكلات العامة المصاحبة للتطور الاقتصادي والاجتماعي السريع والمعقّد مرتبطان بمدى قدرة هذه المجتمعات على تصوّر المستقبل والإعداد له والتخطيط للقائه والتعامل معه: فالفاصل الزمني بين الحاضر والمستقبل أوشك أن يكون فاصلاً إفتراضياً وحركة التغيير أسرع من أن نصوّرها في قالب زمني مما ألفناه.

ويحلّل المفكّر، **الفن ترفلر** صدمه المستقبل بأنها ظاهرة زمنية ناتجة عن الوتيرة المطرّدة للتغيير في المجتمع، وتنشأ عن عملية تركيب ثقافة جديدة فوق أخرى قديمة؛ إنها صدمة الثقافة للفرد في مجتمعه نفسه وليس في مجتمع أجنبي، فهي أسوأ وأخطر، وإنّ

---

* دكتور في الإعلام
استاذ مادة الصحافة في الجامعة اللبنانية
مدير تحرير جريدة اللواء

وقعها على جيل أو على أمة أشدّ من وقعها على مجرّد فرد، لأنها تصيب هذا الجيل بحالة من العجز الجماعي.

لقد كان لهذه الحقائق أثرها في شروع العديد من الدول النامية الى أخذ زمام المبادرة عبر وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية، وغيرها من وسائل إعلامية معروفة، في إعداد مواطنيها وتهيئتهم للتوافق مع المستقبل، وإحداث درجات ايجابية من التكيّف مع متطلّبات المستقبل من تنمية اقتصادية وإجتماعية. وقد ركّزت هذه الدول إهتمامها بشكل خاص على الجامعات بحيث لا تعود مقتصرة على كونها مجرّد منارة علمية تستوعب أعداداً متزايدة من الراغبين في تحصيل التعليم الجامعي، إنما تصبح بؤرة فكرية تلتقي خلالها المصالح والرغبات والآمال والطموحات المحلية لأبنائها من اجل صياغة مثلى لمجتمع الغد.

وللإعلام دور أساسي في دفع وخدمة قضية النمو والتطور المجتمعي، لأنه قوة حضارية تعمل بالمشاركة مع القوى الحضارية الأخرى، كالتعليم، لرفع مستوى الانسان والقضاء على عزلته، كما يساعد على خلق اتفاق عام بين فئات الأمة الواحدة، مع تقريب وجهات النظر بشأن القضايا الهامة، والمشاركة في بناء المجتمع العصري الجديد.

وليس الإعلام مجرد اعطاء معلومات أو نشر معارف الناس، إنما المقصود هنا عمليات الحفز والحثّ وتغيير الاتجاهات، وتحريك الجماعات للعمل على تحقيق الأهداف المشتركة للمجتمع والدولة؛ وليست المسألة مسألة إستغلال للجماهير ولعب بالناس، كما كان دور بعض وسائل الاعلام اللبنانية خلال فترات متقطعة من سنوات الحرب اللبنانية. وهي تكون بذلك قد خرجت عن أحد أدوارها المجتمعة، بل خرجت عن كونها رسالة وأداة تثقيف ونقلٍ للمعارف الى الجماهير ودفعها في اتجاه خدمة مصالحها الحيوية لتغدو وسيلة تحريض بشعة وأداة استغلال مقيتة.

إن المطلوب هو عكس ذلك تماماً، أي ان الإعلام هو مشاركة إجتماعية، وتفاعل مع المشكلات تفاعلاً مثمراً. فالخطوة الأولى في هذا السبيل هي دراسة الجماهير، وفهم معتقداتها، ومعرفة اتجاهاتها، والعوامل التي تحدّد أساليب حياتها؛ وعلى هذا يمكن تخطيط الإعلام على ركيزة علمية تستفيد من اتصال القادة بالقاعدة العريضة والمناقشة والإقناع، ويقوم الإعلام بوسائله المختلفة بإعطاء المعلومات اللازمة القادة والمرشدين، ولفئات الجماهير أيضاً كما يثير الاهتمام بالموضوعات المطروحة.

والتفاعل بين الجماهير وأجهزة الدولة يؤدّي الى تحويل أية خطة موضوعة الى برنامج ينفّذه الجماهير عن اقتناع ومشاركة ايجابية فعالة بنتائج التجارب التي أجراها «نويراث» في الهند والتي بيّنت أن أنجح أنواع الاتصال هي تلك التي يتفاعل فيها الاتصال الجماهيري مع الاتصال الشخصي المباشر.

وفي لبنان امكانيات هائلة ورائعة في مراكز الاعلام الخاصة والرسمية لتتفاعل بين الاتصال الجماهيري والاتصال الشخصي المباشر مع الإفادة من الفنون الشعبية، فضلاً عن الفنون الغنائية والموسيقى التشكيلية المختلفة مع إستغلال المناسبات الوطنية وحتى الدينية من اجل بلوغ غايات التنمية القومية التي تستهدف بالدرجة الأولى سعادة الانسان ورخائه والنهوض بشخصيته والاعلاء من كرامته.

وإذا كان يتعذّر الوصول الى هذه الخصائص واعتمادها في زمن الحرب، فإنه من السهل الحصول عليها واستخدامها في زمن السلم شرط أن يكون هذا الاستخدام سليماً وخاضعاً لقواعد خدمة المجتمع وتطوره في مختلف المجالات.

لذلك، لا بدّ وأن نطرح سؤالاً اساسياً: ما هو الأساس الاخلاقي الذي يقوم عليه نوع العمل الذي نستعرضه في هذا البحث؟ ثم كيف نبرّر من الوجهة الاخلاقية استخدام وسائل الاعلام الحديثة في خدمة التقدم الاجتماعي والاقتصادي في زمن السلم؟ كيف نبرر استخدام وسائل الاعلام الحديثة لتأدية المهمات التي كنّا تحدّثنا عنها، أي لتشجيع هذا التفاعل من اجل خلق المواقف الملائمة بين الاتصال الجماهيري والاتصال الشخصي رغم احتمال تمسك الناس بشدة بالمواقف المعاكسة.

قضية اخلاقية ومسؤولية:

لنطرح السؤال بعبارة صريحة: هل ننادي بأن وسائل الاعلام يجب أن تُستعمل من اجل السيطرة على الناس؟

إن «السيطرة» على الناس تختلف اختلافاً جوهرياً عن نقل المعلومات والمناقشة والإقناع والجدل من اجل الوصول الى إجماع في أي مجتمع حرّ. ومن الواضح أن وسائل الاعلام يمكن أن تُستخدم للسيطرة الى حدٍّ ما اذا أراد أصحابها أن يستخدموها لهذا الغرض، لكن من الواضح كذلك أنه كلّما زاد خط الاعلام في الحرية والانتشار ضعف الإحتمال بأن يكون للإعلام الهادف الى السيطرة أيُّ تأثير. إن النتيجة الاجتماعية الأساسية للإعلام الحر هي تحرير الانسان لا السيطرة عليه، تحريره من الجهل، ومن التوجيه المتحيّز، وهذا ما رمت اليه لجنة الأمم المتحدة لحقوق الانسان حين جعلت الاعلام "حقاً من الحقوق الأساسية.

إن انتشار المعلومات ذو أهمية عظيمة في مستوى التجاوب الاجتماعي، ووسائل الاعلام أشبه بالعامل الذي يراقب درجة حرارة هذا التجاوب؛ ففي وسعها رفع درجة الحرارة الاجتماعية برفع مستوى المطامح حين لا يكون الاقتصاد النامي مستعدّاً لارضائها وتستطيع خفض درجة الحرارة بتقديم الايضاحات وعرض ثمار التحويل، والتعجيل بالتنمية بواسطة السماح للتحويل، حسب تعبير الدكتور ميد عضو لجنة حقوق الانسان، بأن يتناول الثقافة برمّتها وبأن يجعل فوق كل ذلك كلمة الشعب مسموعة ككلمة الزعماء.

دور الاعلام

كان للمجتمع البشري حين كان قبائل بدائية تتزاحم على الكهوف هرباً من البرد والأخطار الماثلة باستمرار، بعض الحاجات الاعلامية الجوهرية بالإضافة الى ذلك النوع من الاعلام الذي كان أفراد المجتمع يتناقلونه في المجاملات الاجتماعية، والحياة العائلية، ولعب الاولاد، أو في اثناء الأحاديث العرضية، وكان لا بدّ للقبيلة من تكليف أحد أفرادها بمراقبة الأفق وإخبارها بالأخطار المحدقة والفرص المتاحة. وكان لا بدّ للقبيلة، إذا جاءها نبأ ما، من طريقة لتقرير ما ينبغي عمله. وكان يتعيّن على أحد الزعماء أو مجلس الزعماء اتّخاذ قرار بعد مناقشة أو جدل في أغلب الأحيان، وتوضيح المواقف، وإصدار الأوامر وتوزيع المسؤوليات؛ طبعاً، لم تكن سياسة القبيلة لتقرَّر برمّتها من قبل المجلس بمناسبة حادث طارىء، بل كان جانب كبير منها محدَّداً بالقانون المؤلَّف من العقائد والطقوس والقواعد، واكثر هذه الأخيرة أقدم من أكبر الناس سناً في القبيلة. لقد كانت هناك اذاً مهمة على جانب كبير من الأهمية، هي تعليم أعضاء الجماعة الصغار والجدد هذه العقائد والطقوس والقوانين والمهارات الضرورية للحياة القبلية، فكان الآباء يعلّمون أولادهم، وكان رجال الدين والأعضاء الكبار يعلّمون الأعضاء الأصغر سناً، ويتّضح من هذا أنه كان للإعلام في المجتمع البدائي الأدوار الثلاثة التالية: دورالرقيب (يرقب الأفق وينبىء القبيلة بما يرى)، ودور السياسي (تقرير السياسة، القيادة، والتشريع)، ودور المعلم (إدخال الأفراد في المجتمع بتعليمهم المهارات والعقائد التي ينظر اليها المجتمع بإحترام). وخلف هذه الوظائف الرسمية نوعاً ما، كانت توجد الاتصالات الشخصية التي لولاها لما كان في مقدور القبيلة أن تعيش: عبارات الصداقة والمحبة، التحدّيات، المناقشات والمجادلات والتجارة والمقايضة، والأغاني، والرقصات وما سوى ذلك من أشكال الاتصال العفوي الذي كان يهب المجتمع لوناً وتماسكاً ووحدة.

إن هذه الوظائف الاعلامية الجوهرية في المجتمعات البدائية بقيت هي نفسها في المجتمعات النامية والمتقدمة أو ما ندعوه بالحضارة، فصار تبادل المعلومات أقل بساطة.

في العصور التي مرّت بين الثقافة التقليدية والحضارة الحديثة لم تتبدّل وظائف الإعلام، لكن تبدّلت المبتكرات والأجهزة لتوسيع تلك الوظائف، وزيادة ميدان عملها حين نشأت الكتابة، ونشأت مؤسسات الطباعة والنشر والمدارس العامة، ثم ابتُكرت الآلات حتى ان ما كان بمقدور الانسان رؤيته لم يعد محصوراً الى حد كبير بالزمان والمكان. فجاءت اولاً الكاميرا (آلة التصوير) والأفلام وجهاز العرض (البروجكتور) وحفر الصور، ثم جاءت السينما واستديوهاتها، وتوزيع الأفلام، والمشارح، وابتُكرت الالات التي تجعل المرء يَسمع ويُسمع، يَرى ويُرى من مسافات بعيدة، وحول هذه الآلات تأسَّست مشروعات الهاتف وتسجيل الصوت والراديو، وعندما تمّ الجمع بين آلات الاستماع وآلات الرؤية توافر لنا

الأساس لصنع الأفلام الناطقة والتلفزيون، وبعبارة أخرى تعلّم المجتمع بين أيام القبيلة وأيام الحضارة الحديثة كيف يشرك الآخرين في المعلومات، وكيف يخزنها بطريقة تتقلّب كثيراً على حدود الزمان والمكان.

ولم يعد بالامكان أن نتصوّر مجتمعاً متحضراً حديثاً متعاملاً بذلك النوع من تبادل المعلومات الذي كانت تستخدمه القبيلة البدائية، كما لم يعد بالامكان تصوّر وجود قبيلة بدائية متعاملة بالنوع الذي يستخدمه المجتمع الحديث من تبادل المعلومات.

الإعلام في دولة نامية

إن الدولة الحديثة، حين تعتزم التنمية، تملك نظام اتصال يقع بين نظام الاتصال الذي تستخدمه القبيلة ونظام الإتصال الذي تستخدمه الحضارة الحديثة، فقراها غارقة، في أغلب الأحوال، في أساليب الحياة القبلية، بينما أخذت مدنها تتجاوب مع وسائل اعلام والطائرات النفّاثة، لكنّ هذه الدولة الحديثة تحسّ بحاجة لا تحسّ بها القبيلة ولا الحضارة الحديثة ـ الحاجة الملحّة الى التطور السريع الشامل، انما بأقل ما يمكن من مشقّة، وهي تستطيع أن تستفيد من موارد لم تكن القبيلة تحلم بها قط ـ أعني وسائل الاعلام الحديثة التي تُستخدم في أنحاء كثيرة من العالم.

والتنمية القومية، حين تأخذ طريقها،لا يطرأ تبدّل على وظائف وسائل الاعلام مثال ذلك:

١ ـ وظيفة الخفير الرقيب

فحين تبدأ التنمية يُطلب من الخفير أن يراقب أفقاً أوسع، تشعر النخبة في المدن والمزارعون في القرية التقليدية فجأة بأن بعضهم أخذ يهتمّ بشؤون البعض الآخر، تشعر المدينة بأنه لا بدّ من تحويل القرية وعملها الى قرية عصرية لكي تتمكّن من توسيع أساس الصناعة القومية توسيعاً كبيراً، ويشعر القرويون بأن لدى المدن أشياء تنقصهم، وكذلك الأمر بالنسبة الى القرية والحكومة اللتين تكتشف إحداهما الأخرى في ضوء جديد بعدما لم يكن يربط إحداهما بالأخرى سوى جامع الضرائب. وتلك فترة من الزمن، لا تتعدّى النصف قرن، لم تكن معظم الدول الحديثة لتهتّم كثيراً بالعلاقات الخارجية باستثناء العلاقات مع السلطات الاستعمارية حين يكون هناك شيء منها. أما الآن، فإنها تجد من الضروري أن تكون ذات نشاط على مسرح السياسة الدوليّة وان تبحث أيضاً عن العون والمعرفة لدى الأقطار الاكثر تقدماً من الناحية الفنية، وبعبارة أخرى، يتّسع الأفق، وتبحث الدولة النامية في الأفق عن قدر من المعلومات أكبر صبراً من ذي قبل.

٢ ـ وظيفة السياسة

تجد الدولة النامية أنه لا بدّ له من أن تنشر قرارها الجوهري وتجعله أوسع نطاقاً.

أولاً، لأنها تطالب شعبها بالمشاركة الفعّالة، وثانياً، لأنها تطالب شعبها بأن يتّخذ أفراده قرارات على أعظم جانب من الصعوبة والأهمية، والحق انها تطالب باتخاذ قرار في تأييد التجديد، وتأييد تحويل حياتهم ومعتقداتهم تحويلاً يساير التجديد المطلوب. إنهم مطالبون بقبول أهداف جديدة، وهذا يقتضي إعلاماً وإقناعاً، أضف الى ذلك أنه لا بدّ من اذاعة المعلومات، ومناقشة التبدّلات في تيار يسير ليس فقط من الأعلى الى الأسفل، من الزعماء الى القرويين، لكن أيضاً، من أسفل الى أعلى، الى الزعماء، وافقياً بصورة تجعل الشعب يناقش الأمور ويصل الى قرارات جماعية... إن عدد الناس الذين يودّون تناول الشؤون العامة بالحديث فيما بينهم يزداد شيئاً فشيئاً، وتزداد الحاجة الى الاستماع للحاجات المحلية والأصوات المحلية، وبعبارة أخرى، لا بدّ من توسيع الأساس الذي تُبنى عليه السياسة الهامة.

٣ ـ وظيفة التعليم.

عندما تسير التنمية سيراً حسناً يكون كل فرد من أفراد الدولة منهمكاً في التعليم، وكل دولة نامية تقريباً تحاول تحقيق زيادة سريعة في عدد المدارس وفي الخدمات التربوية والإرشادية، ووسائل الاعلام... كل قطاع من قطاعات المجتمع يضطر الى تعلّم مهارات جديدة، زراعية، ميكانيكية، الكترونية، صحية، تربّيه تربية أساسية. وتستخدم الدولة الإعلام لزيادة التعطش الى المعرفة لتشجيع الناس على البحث عن المشورة لدى المرشد الريفي أو الاختصاصي التقني، ولتشجيعهم على ارسال اولادهم الى المدارس وعلى أن يتعلّموا القراءة هم أيضاً، وتُعتبر مكافحة الأمية في معظم الدول النامية ميداناً رئيسياً من ميادين الكفاح، وفي بعض الأحيان، يصعب فهم الأثر الذي تحدثه القدرة على القراءة في سرعة التنمية ومجهودها... إن الانسان الذي يتعلّم القراءة يكتسب اكثر من القدرة على قراءة وسيلة الاعلام المكتوبة، بحيث تصبح القراءة بالنسبة اليه كما يقول دانييل لِرْنِر «العامل الأساسي لتحديد كل مظهر من مظاهر الحياة... المهارة الشخصية الأساسية التي تستند اليها كل جهود التحديد. انه يكتسب جسراً يعبر عليه الى عالم أوسع».

ولعل الأسلوب الأكثر شيوعاً لوصف ما يؤدّيه التوزيع الزائد للمعلومات في الدولة النامية هو القول بأنه يهيّء المناخ للتنمية القومية بحيث أن الإعلام يجعل المعرفة الخبيرة موفورة حيث تظهر الحاجة اليها، ويهيّء، ميداناً للمناقشة والمبادرة واتّخاذ القرارات، فهو يساعد في رفع المستوى العام للطموح. إن عملية التحوّل الى الحياة العصرية تبدأ حينما يكون هناك ما يُرغِّب الفلاح في أن يغدو مزارعاً مالكاً حرّاً، ويدفع ابن الفلاح الى الرغبة في تعلّم القراءة لكي يصبح في مقدوره العمل في المدينة، ويدفع زوجة الفلاح الى ارتداد ثوب جميل وتصفيف شعرها، لن يحدث التحوّل بسهولة وبصورة جدّية ما لم يرغب الشعب في التحوّل، والاعلام بصورة عامة هو الذي يزرع بذرة التحويل، كما ان الاعلام أيضاً هو

الذي يهيّء المناخ اللازم لتحويل المجتمع الى أمة. ان وسائل الاعلام الحديثة، إذا ما استُخدمت بحكمة يمكن أن تساعد في تجميع القرى المنعزلة والثقافات المحلية المبعثرة، والأفراد والجماعات المنطوية على ذاتها، وفعاليات التنمية المستقلة ومن ثمّ دمجها كلها في تنمية قومية حقيقية، وذلك بأن تتيح لأحد أجزاء البلاد معرفة الأجزاء الأخرى، سكانها وفنونها وعاداتها وسياساتها، وبأن تمكّن زعماء الأمة من التحدّث الى الشعب، وتمكّن أفراد الشعب من التحدّث الى الزعماء، ومن التحدّث بعضهم الى بعض، وبأن تجعل من الممكن الجدل على نطاق الأمة حول السياسة القومية، وبأن تضع دائماً أمام أنظار الشعب الأهداف القومية والإنجازات القومية.

موقع لبنان.

إن لبنان الذي اعتُبر في اوائل الخمسينات من الدول الشرق أوسطية الحديثة. تمكّن في فترة زمنية قصيرة من تطوير وسائل الاعلام واستخدامها على أوسع نطاق، في الانتقال من مرحلة المجتمع التقليدي الى مرحلة المجتمع العصري، على حدّ ما جاء في تقرير مكتب البحث الاجتماعي التطبيقي في جامعة كولومبيا عام ١٩٥٤ الذي أعدّه الدكتور ليرنر بعد أن أجرى مقابلات مع ١٥٠٠ شخص من شرائح اجتماعية مختلفة. وعزا ليرنر هذه العملية الى حصول ثلاث مراحل يأتي في مقدّمها بناء المدن، لأن المدن وحدها هي التي طوّرت مجموعة المهارات والموارد المعقّدة التي يتميّز بها الاقتصاد الصناعي العصري، وكانت بمثابة الرحم الذي كما فيه التعليم ووسائل الاعلام، وهما الصفتان اللتان تتّسم بهما المرحلتان التاليتان. وبين التعليم ووسائل الاعلام علاقة متبادلة وثيقة لأن المتعلمين يطوّرون وسائل الاعلام، ووسائل الاعلام بدورها تنشر التعليم، لكنّ التعليم هو الذي يقوم تاريخياً بدور المفتاح للمرحلة الثانية، وهو ما تميّز به لبنان من خلال الارساليات الأجنبية التي انتشرت في المدن، وفي مناطقه الجبلية.

إن القدرة على القراءة التي يكتسبها في أول الأمر عدد قليل من الناس، تهيّئهم لإنجاز المهمات المتنوّعة التي يتطلّبها المجتمع الآخذ بأساليب الحياة العصرية، وفي المرحلة الثالثة فقط حيث تبلغ التقنية المعقّدة للتطور الصناعي درجة لا بأس بها من التقدم، يبدأ المجتمع في انتاج الصحف وشبكات الإذاعة والصور المتحركة (السينما) على نطاق واسع، وهذا بدوره يعجّل في انتشار التعليم. ومن هذا التأثير المتبادل، تنمو مؤسسات المشاركة تلك التي نجدها في جميع المجتمعات العصرية المتقدمة.

وخلف هذا التطور التاريخي لعملية النمو السريع للبنان، يكمن تطور سيكولوجي يشير الى أن الانسان اللبناني هو شخصية متحرّكة يملك قدرة عالية على الاندماج مع المظاهر الجديدة لبيئته ويستطيع بصورة عفوية القيام بالمتطلبات الجديدة التي لا تدخل ضمن خبرته المعتادة. إن الشخصية المتحرّكة انسان على درجة عالية من الاندماج عن طريق التعاطف، يستطيع أن يضع نفسه في موقف الآخرين، وهذا الطراز من الانسان،

كما يقول ليرنر، هو فقط الطراز السائد في المجتمع العصري الذي يتميّز بكونه مجتمعاً مدنياً متعلّماً ومشاركاً، ويضيف ليرنر أن وسائل الاعلام في هـذا البلد علّمت الانسـان مهارات التعاطف التي تعني التجديد والأساليب العصرية، كما انها صـوّرت له الأدوار التي قد يواجهها ووضحت له الآراء التي قد يحتاج اليها. لقد لعب الاعلام الجماهيري دوراً مهماً كما قلت في انتقال لبنان من دولة نامية الى دولة عصرية، وما كان ليلعب مثل هذا الدور لو لم يكن الشعب اللبناني قـد استجاب لـوسيلة التعلم من خـلال الكتاب، وانتشاره عبر المدارس والارساليات في كل مناطقه وقراه. وقد استمر هذا التفاعل بـين الجماهير ووسائل الاعلام متماسكاً حتى العام ١٩٧٥، عنـدما بـدأت الحرب اللبنـانية لأسباب قيل إن الإعلام الذي خرج عن دوره الأساسي لعب دوراً أساسياً أو جانبياً فيها؛ وعندها بدأت مرحلة جديدة كان للإعلام فيهـا دور فهمه البعض من النـاس على أنـه تحريضي وفهمه البعض الآخر على أنه استكمال طبيعي لوظائف وسائل الاعلام في نشر أكبر قدر ممكن من المعلومات بين الناس بدون أية ضوابط اجتماعية أو قانونية؛ وهذا أمر طبيعي في ظل وضع غابت فيه قدرة الدولة على التحكّم بوسائل الإعلام وتوجيهها وفق الحاجات الاجتماعية وبما يتوافق مع متطلبات مواصلة النمو المطّرد للمجتمع، مما جعل بعض الاعلام يخرج عن أهدافه الاجتماعية، ولا سيما بعد بروز وسائل إعلام خـاصة نتيجة ظروف استمرار المعارك العسكرية على الساحة اللبنانية استُخدمت كوسيلة دعائية اكثر منها كوسيلة اعلامية.

وبعد أن دخل لبنان السلام، في أعقاب حرب دامت قرابة الست عشرة سنة يُطرح السؤال التالي: هل يستطيع الاعلام بوضعه الحالي مواكبة عملية السلام، ام أنه آن الأوان لوضع استراتيجية اعلامية جديدة للسلام؟.

إن عملية إعادة تأهيل الانسان اللبناني بعد الحرب تفرض بلا شك على وسائل الاعلام أن تتبنّى فكرة الاسلام كاستراتيجية أساسية لها، تماماً كما كانت فكرة أو حالة الحرب أساساً للاستراتيجية التي بُني عليها إعلام الحرب.

وإذا كان إعلام السلم هو النقيض الكامل لإعلام الحرب، فإن الانطلاق في العملية الاعلامية الانقاذية التي تخرج لبنان من دوّامة العنف وتواكب مسيرة السلام، يتطلّب قبل أي شيء آخر القضاء على عقيدة الحرب داخل بعض وسائل الاعلام الخاصـة المرئيـة والمسموعة والمكتوبة، وإحلال عقيدة أخرى محلّها هي عقيدة السلام.

طبعاً إن إعلام السلام سيواجه صعوبات كثيرة، خصوصاً بعد التدمير الحاصل في نفوس المواطنين، وبعض الأمراض الاجتماعية والعقائدية التي أصابتهم، كما سيواجـه آثاراً سلبية برزت بغالبيتها وقد تطلّ بأشكال جديدة يتنبّأ بها علم النفس وعلم الاجتماع. إلاّ أن الواجبات الملقاة على عاتق إعلام السلم كثيرة أبرزها:

١ ـ إسقاط عقيدة أو استراتيجة الحرب الاعلامية ونسف الجسور التي قامت عليها.
٢ ـ إبراز بشاعة الحرب بكل وجوهها ونتائجها المدمّرة للوطن وللمجتمع وللانسان ولكل القيم الاخلاقية والسلوكية، في مقابل إبراز الصورة الجميلة للسلم ولعودة الحياة الطبيعية الى البلاد، وما تحمله معها من معاني التقدم والتطور وبناء مجتمع الكرامة والعدالة والمساواة.
٣ ـ اعتماد الوطنية الجامعة أساساً للتعاطي مع السلام ومع الجمهور على حدّ سواء، واعتبار اللبناني معنياً بما يريد الإعلام قوله والتوجه الى المواطنين على أنهم جمهور واحد ينتمي الى مجتمع واحد والى أمة واحدة.
٤ ـ عدم الاستخفاف بقراءة الأحداث الداخلية والمحيطة بها، وتفسيرها وتحليلها على قواعد علمية من اجل مساعدة المؤسسات والسلطات المعنيّة في تحديد وجهة سير الأحداث وانعكاساتها على المجتمع والأمة.
٥ ـ اعتبار مصلحة الدولة والمجتمع فوق أي اعتبار آخر وعدم الإفساح في المجال أمام وسائل الاعلام لأستغلال حرية الرأي والصحافة من أجل السيطرة على الجمهور وتوجيهه بما لا يخدم مصلحة السلام.
٦ ـ الترويج لوحدة لبنان ومحاربة أي فكر تقسيمي وقطع الطريق على أي فتنة من أي نوع تهدف الى تفريغ السلام من مضمونة الاجتماعي والوطني.
٧ ـ دعم نظام السلام من خلال الترويج لعصرنته ولأخذه بالتطور الكامل للشعب اللبناني. ومساعدة الدولة والمؤسسات المختلفة والتناغم معها في عملية إعادة بناء النفوس السليمة وتأهيل المواطنين وتعزيز روح الانتماء الى الدولة.
٨ ـ احترام الانسان وعدم الاستخفاف به وبقدراته وإفساح المجال أمام الناس للتعبير عن آرائهم من اجل إشراكهم في المساهمة في إعادة البناء، وذلك بالتوجه الى عقول الناس وقلوبهم وليس الى غرائزهم ورغباتهم، وتحريضهم على أعمال العقل وعدم الانسياق الانفعالي وراء أي دعوة.
٩ ـ بما أن للاعلام وظائف تربوية، يتوجّب على إعلام السلم أن يساهم في العملية التربوية الى جانب المدارس والمعاهد والكليات والجامعات، وفي عملية التنشئة الوطنية التي تشكّل دعائم السلام الأساسية.
١٠ ـ مساعدة الدولة في عملية إخراج الانسان من دائرة الفكر الميليشياوي بما يعنيه من انفلات من أي ضوابط أو روادع اخلاقية وأنظمة وقوانين اجتماعية، وذلك لتعزيز روح الانتماء الى الجماعة وإعادة الضوابط الى علاقات الناس فيما بينها والعودة الى مظاهر العصرنة والتزام جوهرها.

وفي هذا المجال، ليس لفريق أو طرف أو سلطة حق احتكار وسائل الاعلام. لذا، يصبح في سلّم مسؤوليات الدولة أن تلعب دور الموجّه وأن تترك في الوقت نفسه لوسائل الاعلام الخاصة ابداء الرأي بحرية في كل ما يتّصل بشؤون الحياة. والاعلام في هذا

المجال يتمحور حول الأداة الاعلامية الرسمية ويُسمّى الاعلام الخاص، وهذان القطاعان يتعاملان في العملية الاعلامية على أساس استراتيجية السلام. فالأول يوجّه ويضبط وينمّي، والثاني ينقل الى السلطات توجّهات الجمهور الذي يشكّل الرأي العام الضاغط وآرائه، مدلّلاً على الخلل الذي يمكن أن يحصل في السياسة العامة للسلام.

وحتى يستطيع الاعلام الخاص أن يلعب دوره، لا بدّ وأن يتحرك في إطار الحرية المسؤولة أي الملتزمة بالضوابط الاجتماعية والاخلاقية التي تصبّ في تقوية مسيرة السلام. وإذا كان على الدولة ألاّ تضع كمّا مات على أفواه الناس، فلا يمكن في الوقت نفسه، أو في ظل حالة لبنان، أي يُباح للجميع القيام بعمليات إعلامية من دون ضوابط أو روادع أو أصول وقواعد اخلاقية ووطنية. فكما أن العدالة لا تتحقّق إلاّ من خلال محاكم وقضاة وشرائع. كذلك لا يمكن للإعلام باسم الحرية، أن يُباح للجميع من اجل قول كل شيء بإباحية مطلقة لا تخدم السلام.

فإعلام السلم لا يتمتّع بحرية الانفلات من الضوابط الاخلاقية والوطنية والاجتماعية الى حدّ تهديد أمن مسيرة السلام.

إن وسائل الاعلام ذات أهمية خاصة في الحالة اللبنانية. فهي بمثابة المضاعفات العظيمة، فكما أن الآلات في الثورة الصناعية كانت قادرة على مضاعفة الطاقة البشرية بأشكال أخرى من الطاقة نجد آلات الاعلام في ثورة وسائل الاعلام قادرة على مضاعفة الرسائل البشرية الى درجة لم يُسمع بها من قبل، ودافع الاعلام في عملية السلام هو أنه ينبغي أن يتوافر وسائل إعلامية راقية وأن يكون هناك وقد يفهم معناها ويحسن استخدامها نسبياً حين يحاول إبلاغ معلومات كثيرة بالسرعة العظيمة لجمهور من الناس.

إن وسائل الاعلام أصبحت أدوات للتحويل الاجتماعي والسياسي، فالثورات في العالم والحرب في لبنان ما كانت لتتمّ لولا وسائل الاعلام المختلفة؛ وكذلك التعليم العام، فقد كان من غير المحتمل، اذا لم نقل من المستحيل أن نعيش لولا وسائل الاعلام، وقد يصحّ القول إن وسائل الاعلام توشك أن تمثّل دوراً اساسياً في أعظم ثورة اجتماعية في جميع العصور، وإذ نشدّد على ذلك، فنحن لا نقصد أن الإعلام الجماهيري قادر وحده على إنجاز هذه الثورة؛ فمن دون الزعامة الوطنية ذات التصميم ومن دون الموارد الملائمة ومصادر رأس المال، لا يستطيع أجدى أنظمة الاعلام في العالم أن يُحدث هذه الثورة. لكننا نستطيع، على الأقل، أن نقول بملء الثقة إنه إذا لم تتوافر وسائل الاعلام الجماهيري أو وسيلة إعلامية قادرة وسريعة مثلها، فإنه يستحيل تماماً التفكير في إنجاز التنمية الاقتصادية والاجتماعية لمسيرة السلام ضمن المدة المطلوبة لهذه التنمية.

* * *

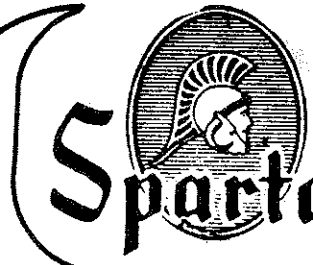

شركة سبارتن الكيماوية

المكلس

جَميع المنظفات الكيمائية السائلة
والمطهرات ومواد للتشميع
ومنع النشن

للمراجَعة إتصلوا بنا عَلى الأرقَام التالية :
٣٩٤٩٠٩ ~ ٣٩٤٩١٠ ~ ٣٩٤٩١١ ~ ٣٩٤٩١٢
ص.ب : ٧٥٤٧ ~ ١١ بَيروت ـ لبنان

Galerie

STYLART

Beyrouth Autostrade Antélias —
Tél: 412225 — 413361

DEKERCO

Gaby Dikermendjian

WATA AMARET SHALHOUB — ZALKA

Tél: 891309 — 890137 — 891334

Dom.: 411399 Telèx.: 44553

التربية في عالم القوة والسيطرة

د. طلال عتريسي*

ربما تكون التربية، بمؤسساتها وأفكارها، هي الأكثر تعبيراً عن مستوى التطور العام الذي بلغه شعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات.

إذ أن الفكر التربوي، الذي يصوغه مجتمع ما، أيّاً تكن طبيعة ومستوى ذلك الفكر وهذا المجتمع، إنما يُعبّر بشكل أو بآخر عن مجمل الأفكار الفلسفية والاجتماعية والثقافية التي تسري في قيم المجتمع وعاداته. لذلك يمكن القول، من حيث المنطلق، انه من خلال قراءة الفكر التربوي في أي عصر من العصور التي عرفتها الانسانية، نستطيع أن نسلّط الضوء على أسس الحضارة في ذلك العصر، ونستطيع أن نتبيّن معالم النظام الفلسفي الذي يتغذّى من ذلك العصر ويغذّيه في آن معاً. وهذا يعني أنه من الصعب على الباحث، بل من غير الممكن، فصل الفكر التربوي عن الأفكار الأخرى داخل المجتمع الواحد والحضارة الواحدة. كما يعني أيضاً أنه من الخطأ العلمي دراسة وتقويم هذا الفكر بتفاصيله وأهدافه كافة دون العودة الى الفترة الزمنية والحضارية التي أنتجته وأثّرت في تكوينه أو تأثّرت به، ودون العودة كذلك الى الظروف والتحولات الاجتماعية التي لا بدّ وان

* دكتور في العلوم التربوية
استاذ مادة علم الاجتماع التربوي وعلم النفس الاجتماعي في معهد العلوم الاجتماعية ـ الجامعة اللبنانية

يتفاعل معها هذا الفكر. كما ان صلة الوثيقة، من ناحية أخرى، بين العملية التربوية ـ لأنها لا تقتصر على المدرسة فقط ـ وبين الأفكار والعادات الاجتماعية المختلفة، يجعل من العسير ايضاً، انتقاء التربية ومفاهيمها، لنقلها الى واقع حضاري آخر، دون أن تحمل في حناياها، حكماً، قيم وأفكار وعادات اولئك البشر الذي نشأت بين ظهرانهم تلك التربية ومفاهيمها، وكانت بالتالي تعبيراً عن مستوى معين من التطور الاجتماعي والثقافي والفكري لديهم. وهذا الأمر ليس ميزة أو خصوصية تقتصر على الفكر التربوي دون سواه، بل يمكن القول إنها قاعدة عامة تنطبق على كل ما يُعرف به المجتمع من أفكار وفلسفة وأخلاق... تطبعه بطابع حضاري مميّز، يختلف به عن غيره من المجتمعات.

إن للتربية مكانة خاصة لدى الشعوب، فهي تحمل تاريخهم، لأنها تنقل تراث الآباء الى الأبناء. وهي تعبّر عن مستقبلهم ، لأنها إعداد للحياة. والتربية بهذا المعنى لا تقتصر على التلقين وحفظ المعلومات، فهذا شأن التعليم، بل هي غرس القيم والعادات والتقاليد الخلقية والاجتماعية التي تُنقَل الى الطفل ابتداءً من أسرته، مروراً بالمدرسة، ووصولاً الى مؤسسات المجتمع الأخرى، كوسائل الإعلام والاتصال والمعرفة وسواها... هذه الحلقات التربوية التي تتشابك فيما بينها، ويخدم بعضها بعضاً، لا بدّ وأن تصبو نحو هدف محدَّد، إذ لا يمكن تصوّر أي إعداد تربوي يغيب عنه الهدف. من هنا كان للتربية تلك المكانة الخاصة. ومن هنا نلاحظ في اطار الدراسات التاريخية او الانتروبولوجية أن الكثير من الشعوب أو القبائل التي كانت تفتقر ربما الى الأساليب العلمية أو الفنية في تلبية حاجاتها المعيشية المختلفة، أو في إنجاز ما تصبو إليه، وإنما كانت تمتلك نهجاً خاصاً في التربية، سواء من حيث غاياتها، أو من حيث طرائق تحقيق تلك الغايات. كما اننا لا نجد، بالمقابل، مَن لم يمتلك من تلك الشعوب أو القبائل، فلسفة معيَّنة في رواية الانسان والحياة والموت...

إن هذين الأمرين ـ التصور الفلسفي عن الانسان ودوره ومعنى وجوده، والفكر التربوي ـ قد التصقا بتاريخ الانسان والشعوب، واتّسما بسمات التخلّف والتقدّم التي عرفتها مسيرة البشر منذ فجر التاريخ حتى اليوم. هذا التلازم بين الأمرين، يعطي التربية من زاوية أخرى مكانتها الخاصة، ويؤكّد على استحالة الفصل بين أي إعداد تربوي وبين الأهداف التي يسعى المجتمع، عبر الانسان، الى بلوغها.

الفلسفة والتربية:

إن التربية تفرض من خلال ما تقدّم من تشابك مع الأفكار والثقافة والمفاهيم، شمولية واضحة، تجعل الحديث عنها، حديثاً عن تاريخ الفكر التربوي عبر العصور، وعن تطور المؤسسات التعليمية والتربوية، وهي أيضاً دراسة مستويات النمو المختلف عند الطفل، وهي علاقة هذا الطفل بثقافة المجتمع، وهي البحث في الطبيعة الانسانية، وفي

الفطرة. والتربية الى جانب ذلك كله، مقياس تقدّم الأمم، وهي أيضاً مقياس تحرّرها واستقلالها الفكري والثقافي. واذا كان صحيحاً أن التربية تشمل البحث في كل ذلك، فإن السؤال الأهم الذي بدونه لا يصبح لكل التفاصيل التي تختزنها التربية أي معنى، هو لماذا نربّي؟ وبتعبير آخر: ما هو الهدف من التربية؟

واذا كانت التربية هي الحياة، أو هي الإعداد للحياة على اختلاف آراء المفكّرين التربويين[١]، فإن السؤال يصبح بحق: ما هو الهدف من الحياة عندما نسأل ما هو الهدف من التربية؟ أي اننا اذا أردنا أن نقوم بتربية الانسان بطريقة حكيمة، علينا أن نعرف ما الذي نستهدفه من تربيته؟ أي ما هي الأهداف التي يجب أن تحقّقها التربية؟ «ولكي نعرف هذا، من الضروري أن نلمّ بما يعيش الناس من أجله، أي أن ندرك ما هو هدفهم من الحياة، ومن ثم علينا أن نتساءل عن طبيعة هذا العالم، عن حدوده التي يعرفها الناس، وما لا يعرفونه، وعمّا يمكن أن يقوموا به في هذا العالم، وعن علاقاتهم فيما بينهم، وعلاقتهم مع الكون وعن مغزى وجودهم وحياتهم ومماتهم. إذاً، فالطبيعة الانسانية والحياة الصالحة ومكانة الانسان في نسق الحياة انما تقع جميعاً بين الموضوعات الفلسفية التي لا ينضب مُعينها. فإذا تأمّلنا في أهمية التربية للحياة الانسانية، فإننا ينبغي عاجلاً أم آجلاً أن نعرض للتربية بطريقة فلسفية»[٢].

ويقول ارسطو: «اننا لا ندري، هل يجب أن نعلّم الشبيبة ما يمكن أن ينفعهم عملياً في الحياة، أو ما يمكن أن يقودهم الى الفضيلة؟ أو نعلّمهم بعض الأشياء المحدَّدة؟ لأن لكل واحدة من وجهات النظر هذه مَن يدافع عنها»[٣].

ويقول أوغست كونت: «إن أي نظام تربوي حقيقي، يجب أن يتحدّر مسبقاً من عقيدة فلسفيّة واجتماعية صحيحة، تحدّد طبيعة هذا النظام وتوّجهاته».

أما ر. أوبير (Hubert) فيقول في «تاريخ التربية»: «إن المسألة التربوية هي المسألة المركزية لكل تأمّل فلسفي عن الانسان»[٤].

أما المربّي الشهير هربارت فيرى «أن مَن يريد أن يهتمّ بالتربية بدون فلسفة، يتخيّل أنه سيقوم باصلاحات هامة، بينما لن يفعل في الواقع سوى تعديل الطريقة نوعاً ما؛

---

(١) راجع حول هذه الآراء التربوية مقالة فولكييه «المدارس الحديثة»، في مجلة «المعلم العربي» عدد خاص، ١٩٥٣، ص ١٥، دون ذكر لدار النشر.

(٢) ج.ف ـ ينللر «في فلسفة التربية»، ترجمة د. محمد منير مرسي، د. محمد عزت عبد الموجود، عالم الكتب ١٩٧٢، ص ٩

(٣) Philosophie de l'éducation, J. Leif et G. Rustin, Tome I, Edition Delagrave, p 25.

(٤) المرجع السابق، ص ١٧.

إن تصوّراً فلسفياً يستند الى أفكار عامة، هو أكثر ضرورة هنا منه من أي مكان آخر»(٥).

كذلك، يعتبر جون ريوي في «ديمقراطية التربية» أن الفلسفة اليونانية، وهي أول فلسفة نظامية معروفة، لم تنشأ إلاّ تحت ضغط مسائل التربية على عقول المفكرين. فجميع مسائل التربية هي نفسها مسائل الفلسفة. فالعلاقة بين الروح والجسم وبين المعرفة والاخلاق، وبين الفرد والجماعة، أمور تبحثها التربية كما تبحثها الفلسفة في كل زمان ومكان.

لهذا السبب، ينبغي أن نحدّد من خلال أي منظار فلسفي نعرض للتربية، سواء على المستوى النظري أم على المستوى العملي، لأن الفلسفة ليست واحدة. بل هناك فلسفات متعدّدة ومختلفة ومتناقضة، ولكل فلسفة روايتها الخاصة في المعرفة، ومناهج خاصة في البحث عن هذه المعرفة، وفي تدريسها. «والفلسفة مجموعة من الأفكار المترابطة في صورة مذاهب فكرية تتّسق في بحثها عن الحقيقة الكونيّة وظواهرها الطبيعية والبشرية. وهي تبحث في أصول الأشياء ومعانيها وقيمها وعلل وجودها»(٦). اذاً، إن اختلاف الفلسفات يستتبع اختلافاً في التربية، اختلافاً في أهدافها، وفي طرائقها، وفي سيرورتها. أي في طريقة تكوين الانسان ومنهجه على المستوى الذاتي، وعلى مستوى العلاقات مع الآخرين، ومع الطبيعة، ومع الخالق؛ «فلو أخذنا مثلاً التساؤل الفلسفي: هل للحياة الانسانية هدف؟ واذا كان لها هدف فما هو؟ واذا ما استنتج أحد الطلبة من مناقشة حول التطور أن الكون ككل ليس له هدف، فإن ما يستتبع ذلك أن حياته لا يكون لها معنى إلاّ كما يرغب هو شخصياً، ويصبح السؤال في ظروف كهذه: ما هي الخطوات التي ينبغي عليه القيام بها لكي يحقّق حاجاته الفردية؟ وما هي الأهداف التي ينبغي عليه السير نحوها؟ وما النتيجة التي سوف تترتّب على تصرّفاته بالنسبة للآخرين؟»(٧).

إن هذا الترابط المؤكّد بين أهداف الفلسفة وأهداف التربية، ليس شأناً نظرياً مجرّداً، ففي كل مرحلة من مراحل التطور أو التغيّر الاجتماعي التي كانت تُواكب بإجواء فلسفية مختلفة، كان الفكر التربوي في كل مرحلة منها، يخضع للتأثير المباشر لتلك الأجواء الفلسفية المتغيّرة بدورها. ولو أردنا أن نتتبّع، على سبيل المثال، بعض مراحل التحوّل في الفكر التربوي في اوروبا، للاحظنا بوضوح دالّ، استجابة هذا الفكر للفلسفات المختلفة أو للفلسفة السائدة، وفقاً لاختلاف كل مرحلة. فالتربية في العصور الوسطى كانت تربية دينية بحتة، تعكس فلسفة الكنيسة المسيحية التي كانت تسيطر على الحياة الاجتماعية والثقافية. كما يمكن ملاحظة الأثر نفسه في عصر النهضة، وفي العصر الحديث، عندما

---

(٥) Philosophie de l'éducation, op. cit., p 17

(٦) د. منير المرسي سرحان، في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة ١٩٨١، ص ٤١.

(٧) أنظر نيللر، المرجع السابق، ص ٤١.

بدأت الفلسفة المادية تصارع وتهيمن على الفلسفات السابقة، الدينية والمثالية، وتقدّم نموذجها التربوي الخاص الذي يختلف تماماً عن التربية في العصور التي سبقت تبلور الفلسفة المادية وانتشارها[٨]. أما تفصيل ذلك ـ فالأمثلة عليه تحتاج الى مقام آخر.

اذاً، ما هي فلسفتنا التي نحملها عن الانسان، في هذا العصر الذي نعيش فيه، والتي نريد أن نستند اليها في تحقيق الغايات التربوية؟ وأي تربية نريد، لأي هدف انساني نسعى اليه؟ أي بتعبير آخر، الى أي تأمّل فلسفي عن الانسان والكون تستند التربية المعاصرة، في عالم اليوم الذي بات بلا حدود؟

إن عالم اليوم، هو عام الثورة في التكنولوجيا، وعالم الثورة في وسائل الإعلام والاتصال، وهو عالم الاختراعات والاكتشافات المتواصلة، حتى أن البعض يعتبر أن ما يحصل في العالم الآن من تغييرات سياسية، سببه وسائل الاعلام التي جعلت العالم مكاناً واحداً.

ومن أهم وأخطر النتائج التي ترتّبت على هذا التقدّم العلمي والتكنولوجي الهائل، هو هذا التغيّر السريع في كل نواحي الحياة، حتى أصبح التغيّر حقيقة تفرض نفسها، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل أصبح التغيّر فلسفة توجّه حياة الأفراد والمجتمعات، ففقدت القيم الاخلاقية والسلوكية عناصر الثبات التي تحملها، وأصبحت بدورها موضع شك وتجريب، وتقلّب لا يقرّ له قرار. وليس ذلك فحسب، بل إن عالم اليوم يقدّم للانسان نموذجاً معقّداً ومؤلماً للصراع المرير بين انسانية الانسان وبين سلطة الآلة والتكنولوجيا على حياة البشر وعلى قرارهم ومستقبلهم. وقد أصبحت هذه المسألة، نظراً لخطورة ما ينجم عنها من مضاعفات، محور اهتمام المفكّرين الفلسفي والاخلاقي والاجتماعي. كما بلغ الأمر، في نظر الكثيرين منهم، حدّ الاعلان عن فشل الحضارة الحديثة برقّتها في تحقيق سعادة الانسان التي يصبو اليها مذ لاحت في أفق التغيّرات الكبرى الآمال بمستقبل مشرق بعد الثورة الصناعية في اوروبا بشكل خاص، وما ترتب عليها من وعود بغد أفضل يحمل للانسان تلك السعادة التي ما انفكّ يبحث عنها منذ وجوده. وفي هذا الإطار، يقول اريك فروم المحلل النفسي الشهير في معرض تحليله لطبيعة هذه الحضارة الغربية المعاصرة بشكل خاص:

«ان الوعد العظيم بالتقدّم غير المحدود، وعد السيطرة على الطبيعة... والحرية الشخصية غير المحدودة.... كان محطّ الآمال، ومنبع الايمان للأجيال منذ بداية العصر الصناعي... لقد جعلَنا التقدم التكنولوجي وكأننا قادرون على كل شيء... لكنّ هذا العصر الصناعي أخفق في الوفاء بوعده العظيم.. إن التقدم التكنولوجي نفسه قد خلق مخاطر

(٨) راجع مقالنا «الحدود الاوروبية للتربية»، مجلة الفكر العربي عدد خاص عن التربية الاسلامية والتربية المقارنة، رقم ٢١، ص ٤٣٣ ـ ٤٤٧.

ايكولوجية ـ تهدّد البيئة الطبيعية ـ ومخاطر الحرب النووية. وهذه أو تلك، أو كلتاهما معاً، يمكن أن تكون، السبب في إنهاء كل أشكال الحضارة وربما كل اشكال الحياة على سطح هذا الكوكب»(٩).

ثم يورد في مكان آخر من الكتاب، نصاً لألبرت شفايتزر يقول فيه: «ليس خافياً على أحد اننا نعيش عملية تدمير ذاتي حضاري. وما بقي منها لم يعد في مأمن. إنه لا يزال قائماً لأنه لمّا يتعرّض بعد للضغوط التي قضت على ما قضي عليه. ولكن، ما بقي أيضاً مبنيّ على الرمال، والانهيار القادم يمكن أن يجرفه.. لقد اضمحلّت القدرة الثقافية الحضارية للانسان الحديث لأن الظروف التي تحيط به تسبّب اضمحلاله ودماره النفساني»(١٠).

فأي معنى يجب أن تحمل التربية في عصر يتّم بما تقدّم؟ يمكن اعتبار إشارات فروم وشفايتزر الى ما تنذر به الحضارة الحديثة، كدلالات رمزية لأزمة الانسانية الراهنة، في عالم يتّجه نحو تدمير الذات والآخر. واذا كانت التربية، كما أسلفنا، مقياس تقدّم الأمم وتحرّرها، ومقياس تطوّرها الفكري والاخلاقي، فلا بدّ في عالم اليوم، من ان تحمل تلك التربية سمات القلق النفسي والوجودي، التي تلازم حضارتنا المعاصرة. حتى بات الحديث عن «أزمة التربية» ملازماً للحديث عن كل الأزمات الأخرى التي يصطدم بها الفرد والمجتمع في آن معاً. «إن أزمة التربية، ظاهرة عالمية وهي أزمة عقلية وأخلاقية. ففي اوروبا، تعم الشكوى من انخفاض مستوى التعليم. ومن لا اخلاقية الشبيبة التي تتظاهر خارج أسوار المدارس في اطار جماعات وعصب هامشية، في كل من فرنسا وانكلترا واميركا على حدّ سواء... إن أسباب ذلك تعود الى تمزّق العائلة والى غياب التفاهم بين الزوجين؛ وفي اميركا، تجاوز الجنوح الشارع الى داخل المدرسة، كما أن المواطن الاميركي يعيش حالة من الشك في نظامه التربوي»(١١).

ان التربية في عالم اليوم، باتت بدورها، وكسائر المسائل الأخرى المتعلقة بالانسان، أسيرة هذا التقدم التكنولوجي، وثوراته العلمية والاعلامية.

لذلك، لا بدّ من التساؤل بحق: أيّ بعد انساني يُطرح اليوم، في سباق العالم المحموم نحو امتلاك القوة والسيطرة؟ وايّ تربية ستتمخّض عن كل ذلك؟

لقد انتج عالمنا المعاصر، في السياق التقدم التربوي، الكثير من الوسائط التربوية،

---

(٩) أنظر إريك فروم، الانسان بين الجوهر والمظهر، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٤٠، ص ٢٠.

(١٠) أنظر إريك فروم، المرجع السابق، ص ١٧١.

(١١) La pédagogie de John Dewey - Gérard Delédalle, Édition du Scarabeé, Paris 1965, p 13.

والكثير من الألعاب، والكثير الكثير مما يحرّك عقل الطفل وينمّي قدراته المختلفة. ولكن كل ذلك، رغم أهميته، كان ولا يزال يواكب فلسفة التغير واللاثبات، ويواكب أهداف وفلسفة القوة والسيطرة التي تمتلكها دول العالم في علاقاتها مع ذاتها ومع الآخرين، حتى باتت التربية وسيلة من وسائل الاخضاع والسيطرة، ووسيلة من وسائل التغلغل والنفوذ.

إن ما يُطلق عليه اليوم «التربية الحديثة» وُلد إثر الانقلاب على التربية التقليدية في اوروبا، إلاّ أن هذه «التربية الحديثة» أشاحت بوجهها حتى عن إعداد المواطن الذي كان هدفاً للتربية التقليدية. لقد تحوّل الطفل الى غاية بحدّ ذاته، وربما كان ذلك انتقاماً من التربية السابقة التي كانت تعامله معاملة الراشد. هذا الطفل ـ الغاية أصبح محور التربية الحديثة: له الحرية المطلقة، وكل الأبحاث تدور حول قدراته المختلفة: الذكاء، اللغة، الخيال، النمو العاطفي والنمو الاجتماعي... وكل الألعاب تخدم سنوات الطفولة وتثير هذا النوع من المعرفة أو ذاك. ويكفي أن نتأمّل ذلك الكمّ الهائل من الألعاب التربوية التي يختلط فيها الاستهلاكي، بالتافه والمفيد، لندرك الى أي مدى بلغ الطفل شاؤاً مميّزاً في موضوع التربية الحديثة، والى أي مدى أيضاً، دخل هذا الطفل وعالمه في سياق الآلة والاستهلاك.

إلاّ إن الفائدة التي قدّمتها تلك التربية ووسائطها من ألعاب ونشاطات، بقيت مبتورة جزئية، لأنها لم تلحظ الطفل اصلاً في وسطه الاجتماعي ـ وأساسه الأسرة. ان كل نظريات «التربية الحديثة» ومحاولاتها التجريبية المختلفة، ما نجح منها وما تعثر، حملت معها منذ بداياتها، هذه الجزئية، وأدّت بشكل مباشر أو غير مباشر الى تضخيم الأنا والفردية عند الطفل. كما انها لم تلحظ في رؤيتها التأملية الفلسفية عن الانسان إلاّ متغيرات القوة، ومتغيرات الأرض التي انقطعت صلتها بالسماء. وهذا ما يبدو بشكل واضح وجليّ، عندما تقسم كل نظريات التربية مراحل العمر الى طفولة، ومراهقة، ورشد، وشيخوخة، دون أن تلتفت في هذا التقسيم الى استمرارية الحياة ما بعد الشيخوخة ما بعد الموت؛ أي دون أن تلتفت اصلاً الى أن الحياة نفسها مرحلتان: واحدة في الدنيا، وأخرى في الآخرة.

هذا النوع من تربية «الفرد»، وتضخيم الأنا، وهذا التصوّر الأرضي عن الانسان وعن الحياة، هو الذي ساهم في تحويل العالم بأسره الى ساحة للقوة واغتنام المنافع. وهو الذي جعل من التربية مجرد تقنيات في الذكاء، وقوة في الشخصية وفنوناً والعاباً... دون أن تخضع كل تلك التقنيات والقوى الى الهدف الأسمى الذي يجب أن يصل مرحلتي الحياة في الدنيا والآخرة ببعضهما بعضاً. إن هذه الصلة بين المرحلتين، هي الحدّ الفاصل بين فهمين مختلفين في رواية العالم وفي رواية الانسان ودوره في هذه الحياة الدنيا؛ وبالتالي هي حدّ فاصل بين تربيتين، تحمل كل منهما سمات المنهج الذي تنطلق منه وتسعى الى تطبيقه والتعبير عنه.

إن هذا الحدّ الفاصل هو الذي يجعلنا نعيد طرح السؤال: لماذا نربّي؟

هل نريد قدرات خارقة في الذكاء؟
هل نريد مستويات عالية في النجاح؟ وفي معرفة اللغات والعلوم وسواها؟
هل نريد أجساداً قوية وعقولاً متفتّحة؟

هل نريد كل ذلك فقط؟ ام اننا نريده تحت راية الهدف الذي يرتفع عن الأرض ويسمو بالأخلاق والروح؟

أي هل نريد كما قال ارسطو: «أن نعلّم الشبيبة ما يمكن أن ينفعهم عملياً في الحياة، أو ما يمكن أن يقودهم الى الفضيلة»؟.

ان التربية في العالم المعاصر، الذي يحيط بنا، هي تربية «النفع العملي في الحياة». أما «التربية التي تقود الى الفضيلة»، فقد كانت ولا تزال جوهر الرسالات السماوية التي وصلت الى الانسان منذ فجر التاريخ، وحددت له سبل الخلاص والمعرفة. وتكاد تكون دعوات كل الأنبياء والرسل والمصلحين، في جوهر هذا السياق من التربية التي تقود الى الفضيلة من خلال تنمية الجانب الروحي في الانسان اساساً، دعوات للتغيير نحو الأفضل، «لأن الدوافع الدينية هي مصدر الطاقة الدافعة،... لإنجاز تغيير اجتماعي جذري. ويترتّب على هذا أنه يستحيل الوصول الى مجتمع جديد إلاّ اذا حدث تغيير عميق في الضمير الانساني...»[١٢]. ولهذا السبب، كانت دعوات الانبياء والرسل التي أشرنا اليها، تتوجّه الى الداخل، داخل الانسان، لتغيير الخارج المجتمع ولهذا السبب، اذا لم يتمكن العلم، بجبروته اللامتناهي في هذا العصر الحديث، من اختراق النفوس وحفظ توازنها، فإنه لن يتمكّن من التغيير نحو الأفضل، بل سيستمر الانزلاق نحو هاوية التدمير والفناء التي أشار اليها كل من فروم وشوبنهاور. إن العلم اذا تمرّد على تزكية النفس، أصبح إلهاً وشيطاناً، يمكن أن يؤدّي الى تدمير الذات والعالم، وما نشهده في عالم اليوم خير دليل على ذلك... ويكفي ما يُكتب وما يُقال عن حجم أطنان المتفجرات التي تستطيع تدمير الحياة على هذا الكوكب عشرات المرات، وعن الجرائم، والمصائب، والانتحار والإدمان، ومشكلات الأسرة والأولاد والآباء والأمهات، دون الغوص في تفاصيل ما يحصل للأطفال في كل من افريقيا والهند، ورومانيا، وحتى في اوروبا الغربية نفسها... فهذا كله يشكّل الدليل القاطع على عجز العلم بمفرده، وبسياقه الحالي، عن توفير متطلبات السعادة للإنسان، وعن حفظ توازن المجتمع واستقراره.

إن التربية في مدارس اليوم، في كل بقاع الأرض تقريباً، مأخوذة بالتقنيات، والطرائق، ووسائل النشاط والترفيه، وتنمية الفردية والانا، التي أنتجتها تربية اوروبا

(١٢) أنظر اريك فروم، المرجع السابق، ص ١٤١.

الحديثة... ولا ترى في كل ذلك إلاّ مواكبة لروح العصر التي أدمنت تلك المعايير والقيم.

أما ما يمكن أن يقود الى الفضيلة، فلا يحتلّ المكانة المنشودة، لأن خط الرسالات السماوية، الذي يمكن أن يحمل هذه الراية، لم يحتلّ موقعه المناسب في هذا الصراع المعقّد في حضارتنا المعاصرة. ربما يدرك في قرارة نفسه عالم اليوم ذلك الخلل الناتج عن غياب المسألة الانسانية والروحية، عن أولويات همومه وأهدافه. وهو لهذا السبب، يحاول ايهاماً لنفسه وللآخرين، أن يوحي بأن الانسان شغله الشاغل، فيجعل له اياماً يُحتفى بها: يوم للطفل، ويوم للأم، ويوم للمرأة، ويوم للأب،... وأيام أخرى لا نعرف متى ستأتي.. إلاّ أن كل تلك الأيام، لن تحلّ مشكلة الأمهات، ولا مشاكل الآباء، ولا مشكلة المرأة، ولا حتى مشكلة الطفل.

فالمشكلة ستبقى في النظام الكلي، في النظرة التي تجزّىء الانسان، والتي تقطع صلة الأرض بالسماء. وفي المنهج الذي يحضّ «على التملّك لا على الكينونة»[١٣].. وسوف تستمر المشكلة بتعبيراتها المختلفة، لدى الطفل، ولدى المرأة، ولدى المراهق.. ولدى الجميع، في إطار التربية، وفي اطار كل ما يتعلّق بالانسان. ستستمر المشكلة/الأزمة، طالما لن نتمكّن من استبدال التصوّر الحالي الذي ترتكز عليه التربية، بتصور مغاير، يتمكّن من الإفلات من معايير الأنا، ومعايير القوة والتملّك.

باختصار، إنها مسألة رؤيتنا الفلسفية لهذا العالم الذي ننتمي اليه.

* * *

(١٣) أنظر اريك فروم، المرجع السابق، ص ٣١.

ERWEST

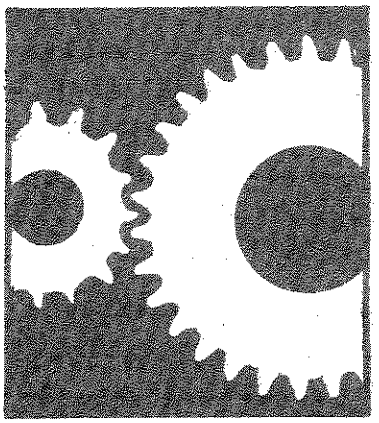

مؤسسة الياس ف. واكيم
الصناعية والتجارية

سد البوشرية ـ قرب محطة الكهرباء
سجل تجاري ٣٤٩٦ بيروت
تلفون: ٢٦٧٠٠٦ ـ تلكس ٢٣٤٤٥ LE
صندوق بريد رقم ٩٠٢٨٧

DUCALE

CERRUTI 1881
PARIS

AUTOSTRADE JAL EL DIB TEL. 410669

كتب التاريخ المدرسية
بين التعددية والتوحيد

د. محمد سعيد بسّام*

«حافظنا على التعليم الخاص وأردنا أن نوحّد في مدارسنا كتاب تاريخ لبنان وكتاب التنشئة المدنية. وهل يجوز بعد اليوم أن يكون للبنان عدة تواريخ وعدد من الكتب من دون أن نعلم أية تنشئة وطنية لبنانية ينشأ هذا الطالب؟».

صرخة أطلقها فخامة رئيس الجمهورية الياس الهراوي مرات ثلاث: مرة في الصرح البطريركي في أثناء قيامه بزيارة غبطة البطريرك مار نصرالله بطرس صفير في ١٨ تشرين الثاني ١٩٩٠. ومرتين في القصر الرئاسي المؤقّت: الأولى في أثناء استقباله لنقابة المحامين في لبنان في ١٣ تشرين الثاني ١٩٩٠. والثانية خلال الندوة التلفزيونية التي عقدها في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٩٠ وشاءها أن تكون «لقاء مفتوحاً» مع اللبنانيين بمناسبة الذكرى الاولى لانتخابه رئيساً للجمهورية(١).

بهذا الاعلان، عبّر رئيس الجمهورية عما كان يجول في أذهان الكثير من اللبنانيين، وخاصة النخبة المثقّفة منهم. كما أثبت أن المسؤولين مقدمون، بكل جدية ووعي، على بناء

---

* دكتور في التاريخ استاذ مادة التاريخ الحديث في الجامعة اللبنانية

(١) راجع جريدة «السفير». ١٤ و١٩ تشرين الثاني ١٩٩٠.

الجمهورية الثانية في لبنان، وفي أولوياتهم معالجة إحدى أهم الإشكاليات الوطنية التي كشفت عنها الفصول المختلفة للحرب اللبنانية المستمرة منذ العام ١٩٧٥. هذه الإشكالية هي: ضعف البناء الاجتماعي الوطني في الكيان اللبناني.

وقد تبدّى هذا الضعف في مظاهر عدة:

- **ضعف هيكلية البنية الاجتماعية**: مجتمع مفكّك يفتقر الى أدنى مقوّمات التماسك الاجتماعي، فبدا جماعات متجاورة متعايشة تتوزّعها الانقسامات العامودية: طائفية ومذهبية وعشائرية ومناطقية.
- **ضعف في الوطنية**: ضعف في الانتماء ناتج عن ضبابية في هوية الكيان اللبناني نتج عنه ضعف في الولاء الوطني. فتعدّدت انتماءات اللبنانيين وولاءاتهم حتى تعدّت حدود الوطن. فأصبحت الدول الخارجية تنازع الدولة اللبنانية سيادتها على أرضها بمؤازرة لبنانيين.
- **ضعف في المواطنية**: غياب أي حسّ وطني، في التعامل مع أدنى الحقوق والواجبات تجاه المجتمع والوطن؛ تجاوز البعض للحقوق واعتداء على الحرمات والأملاك الخاصة والعامة دون أي رادع قانوني أو وازع انساني وتهرّب البعض من الواجبات تجاه الوطن، لا بل اعتداؤهم على موارد الدولة وتبديد الثروة الوطنية.
- **تدنٍ في مستوى القيم الاخلاقية**: كثير من اللبنانيين، افراداً وجماعات من فاقدي الانسانية، راحوا يفترسون بعضهم بعضاً بفظاعات لا تعرف الرحمة وبوحشية تخجل من ساديّتها الشعوب البدائية.

تلك هي الصورة المأساوية للمجتمع اللبناني كما كشفتها فظائع الحرب اللبنانية الأخيرة. فما هي مسؤولية مادة التاريخ في المدارس اللبنانية في هذا الأمر؟

الاجابة على هذا السؤال تكمن في الأهداف المحدّدة لتدريس هذه المادة للناشئة.

تهدف مادة التاريخ الى تعريف الناشئة بالأمور التالية:

- ماضي الوطن كما صنعه الأجداد للتواصل مع تراثهم: فنعتزّ بانتصاراتهم ونفخر ببطولاتهم ونسير على طريقهم في التضحيات في سبيل الوطن. ونعتبر بهزائمهم فنعمل على تجاوزها وتهيئة الظروف لتفادي السقوط بمثيلاتها.
- هيكلية البنية الاجتماعية للشعب، ومسار حراكها الاجتماعي الداخلي من تعاضد أو تصارع، لفهم الجذور التاريخية لمجتمعنا الحاضر، وبالتالي للعمل على تعزيز أواصر التعايش والانصهار ومعالجة عوامل التشرذم والتفكك في المجتمع بهدف الوصول الى مجتمع متماسك متفاعل لا تستطيع النفاذ اليه الدسائس الخارجية.

والتاريخ بهذا يهدف الى الانسجام في خلق شخصية وطنية موحدة التطلعات

والتوجهات تعمر بالايمان بالوطن وتدرك مسؤولياتها التاريخية في الحفاظ على سلامته وسيادته وتقدُّمه مهما كلفتها من تضحيات. كما يهدف التاريخ الى تعريف الناشئة بواقع الوطن في محيطه:

- سياسياً: بعرض ماضي علاقاته بغيره من الشعوب القريبة والبعيدة من صداقات وتحالفات أو عداوات وصراعات.
- حضارياً: باستعراض الماضي من حضارات الشعوب وتفاعلها فيما بينها لمعرفة مراحل المسيرة الحضارية الانسانية وتواصلها وموقع بلدنا الحضاري في هذه المسيرة.

والتاريخ بهذا يهدف الى الاسهام في خلق شخصية وطنية واعية لأسس العلاقات الدولية وشخصية وطنية مدركة لموقعها الحضاري بين الشعوب واثقة مؤمنة بالتطور والتفاعل معها.

بعد هذا التحديد السريع للأغراض المرجوة من تدريس مادة التاريخ للناشئة نصل الى السؤال: أين هي كتب التاريخ المعتمدة في لبنان، على اختلاف سلاسلها المدرسية، من تحقيق الأغراض التي وجدت من أجلها؟

قبل البحث في الاجابة على هذا السؤال، تجدر الاشارة الى واقع خطير يتمثّل في عدم اعتماد بعض المدارس الخاصة تدريس تاريخ لبنان لأبنائه إلاّ في صفوف الشهادات الرسمية اللبنانية وتستعيض عنه في الصفوف الأخرى، كلياً أو جزئياً، بتدريس تاريخ آخر لبلد آخر وهذا الأمر، إن دل على شيء، فهو يدلّ على أن اعتماد تلك المدارس لتاريخ لبنان في الصفوف المشار اليها ما هو إلاّ لضرورات تعليمية (النجاح في شهادة رسمية لبنانية) وليس لضرورات وطنية. إن هذا الواقع لخطيئة كبرى بحق الوطن والناشئة لا يمكن القبول به مهما كانت مبّرراته. فهو ليس من حرية التعليم بشيء. وليس من التعدّدية الثقافية بشيء. وآثاره السياسية الوطنية الخطيرة لا تخفى على عاقل. وهو أمر لا يمكن تصوّر استمراره إلاّ اذا كان تدريس أية مادة تاريخية غير لبنانية يأتي بعد، او الى جانب تدريس تاريخ لبنان في كل المراحل التعليمية[٢].

وبالعودةالى مدى مطابقة الكتب المدرسية للمهمة الموكلة اليها في إعداد الناشئة الوطنية الصالحة. أوضح أنني لست هنا في صدد تقديم دراسة نقدية شاملة لجميع السلاسل التاريخية المعتمدة. ولكن، من خلال ممارستي للتعليم مدة تقارب العقود الثلاثة،

---

(٢) جاء في المادة ١٠ من الدستور الجديد «التعليم حرّ ما لم يخلّ بالنظام العام... ولا يمكن أن تمس حقوق الطوائف من جهة انشاء مدارسها الخاصة على أن تسير في ذلك وفاقاً للأنظمة العامة التي تصدرها الدولة في شأن المعارف العمومية».

ومن خلال اطّلاعي على العديد من تلك السلاسل على اختلافها[٣]، ومن خلال مشاركتي المتواضعة في عملية التأليف[٤]، يمكنني الاكتفاء ببعض الملاحظات العامة التي تعبّر ـ من وجهة نظر خاصة ـ عن واقع كتب التاريخ وما تعانيه من سلبيات بالمعيار التربوي الوطني.

ـ **في الشكل**: هناك الكثير من الحشو والاستطراد وتكثيف المعلومات المثقلة بالتفاصيل بأسلوب سردي مملّ، يندر فيه التحليل والتعليل، بحيث تضيع العبر التاريخية في خضم المعلومات المكثّفة. فتصبح مادة التاريخ مادة جافة ينفر منها الطلاب. وتكون المحصلة أننا نخسر كل شيء بدلاً من أن نربح بعض الشيء.

ـ **في المضمون**: هناك انتقاء واجتزاء في عرض الأحداث التاريخية، وتركيز ومبالغات في أحداث بعض المناطق اللبنانية والمراحل التاريخية، يقابله إهمال وتهميش لأحداث مناطق ومراحل اخرى. ولا يخلو الأمر من بعض المغالطات التاريخية. يقول محمد علي مكي «كثيراً ما يعمد بعض المؤرّخين، بدفع من عصبيّة دينية أو عرقيّة، الى المبالغات او حتى الى اختلاس الحقائق التاريخية واعطائها بكل بساطة وجرأة لغير أصحابها»[٥]. وهذا الأمر غير خاف حتى على بعض الطلاب أنفسهم، فراحوا يرمون تاريخ لبنان بالتحريف والتزييف والتغييب، والحكم عليه بأنه تاريخ جزئي لبعض لبنان وليس لكل لبنان. وهذا ما عبّرت الفئات بمقولة «الغبن التاريخي». وكانت محصلة هذا الواقع لجوء البعض الى استقاء تاريخ بلدهم من مصادر أخرى غير المدرسة. فكان ذلك عاملاً من عوامل تعدّد الشخصية الوطنية في لبنان وتشويهها.

ـ غياب المنحى الوطني عن سياق الأحداث التاريخية، كما تعرضها الكتب المدرسية، وصياغة ملتبسة تضيع معها المفاهيم الوطنية، بإستثناء بعض الإشارات الوطنية

---

(٣) هذه الدراسة الميدانية لكتب التاريخ المدرسية تعتمد على بعض السلاسل التاريخية. منها
- **التاريخ**. المرحلة المتوسطة. مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- **الواضح في التاريخ**. المرحلة المتوسطة. منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- **التاريخ الجديد**. المرحلة المتوسطة. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.
- **المصور في تاريخ لبنان**. المرحلتين المتوسطة والثانوية. دار العلم للملايين. بيروت، لبنان.
- **تاريخنا المصور**. المرحلة الابتدائية. دار المقاصد الاسلامية، بيروت، لبنان.
- **التاريخ الوطني**. المرحلة الابتدائية. دار المقاصد الاسلامية، بيروت، لبنان.
- **نحن والتاريخ**. المرحلة الابتدائية، الشركة العالمية للكتاب ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان.
- **التاريخ، الكتاب المدرسي**، المرحلة الابتدائية، المركز التربوي للبحوث والانماء. شركة الناشرين اللبنانيين، بيروت، لبنان.

(٤) راجع، **التاريخ الوطني**، المرحلة الابتدائية، دار المقاصد الاسلامية، بيروت، لبنان.

(٥) محمد علي مكّي. «**لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني**». دار النهار للنشر، طبعة ثانية، بيروت، ١٩٧٩، ص ٩.

المتقطّعة والتلميحات الخجولة بحيث يغيب معها أي انفعال وطني وأية قيم وطنية. نقرأ مثلاً عن شهداء لبنان سنة ١٩١٥، فنرى أنهم كانوا ضحية ظلم جمال باشا، وأن اعدامهم كان تغطية لهزيمته في قناة السويس، أو نتيجة انكشاف أمر اتصالاته بالقنصلية الفرنسية في بيروت طلباً للمساعدة للخلاص من الحكم التركي. فاتّهمهم جمال باشا بالخيانة وساقهم الى ساحة الإعدام. كما يلاحَظ، فهذه صيغة توليفية تضيع معها معاني الوطنية والشهادة وتلتبس على الناشئة مفاهيمها. حتى يكاد بعضهم يبرّئهم من الوطنية التي استشهدوا من اجلها. وتكون المحصلة ضعفاً في الحسّ الوطني وضبابية في المفاهيم الوطنية.

- غياب أو ضآلة الحيّز المعطى للمجتمع ودوره في التاريخ ليصبح تاريخ لبنان مقتصراً على سِيَر الحكّام والأمراء وصراعاتهم ودسائسهم فيما بينهم بعيداً عن أن يكون تاريخ وطن وشعب، فيغيب عن ذهن الطالب دور الجماعة في التاريخ وطبيعة المجتمع ومراحل تطوره وظروف خضوعه أو انتفاضه على الحاكم الظالم أو المحتلّ الغاشم. وتكون المحصلة غياب الحسّ الجماعي الوطني لدى الناشئة. وتتعزّز لديها الفردية ومسوّغات الخلاص الفردي.

يُكتفى بهذا القدر من التقويم الاجمالي للسلاسل التاريخية المدرسية في لبنان، شكلاً ومضموناً. وحتى لا تأتي ملاحظاتنا أحكاماً تعسّفية عليها، نذكر بعض النماذج، على سبيل المثال لا الحصر، المستقاة من أحداث مختلف المراحل التاريخية.

- **تاريخ لبنان القديم**: سريعاً، نستعرض الأحداث فنجد غزاة يدخلون، فتستقبلهم المدن اللبنانية - الفينيقية دون مقاومة. ثم غزاه يخرجون، يطردون بعضهم بعضاً دون أن يتحرّك لدى الطالب أي حس وطني وكأنه يقرأ عن تاريخ بلاد الواق الواق. مرةً، تغلق صيدا أبوابها في وجه الامبراطور الفارسي ارتحششتا وتضرم النار بنفسها مؤثرة الموت على الخضوع. ومرةً تصمد صور في وجه الاسكندر عدة شهور قبل أن يدخلها بمساعدة صيدا ويعمل القتل والدمار فيها. هذا دون أن ينبني في نفوس الناشئة حجر من أساس الوطنية.

إن قليلاً من العناية بصياغة الأحداث يحوّلها بطولات وطنية تحرّك الحس الوطني في النفوس، سواء كانت صيدا وصور فينيقيتين أو لبنانيتين لا فرق. فإن عبر التاريخ ملك للبشرية جمعاء.

والأسوأ من ذلك - من ناحية أخرى - أنك تجد في كل درس من دروس التاريخ فقرة تتحدّث عن لبنان في عهود هؤلاء الغزاة، فتجد غالباً ازدهاراً تجارياً ونبوغاً ثقافياً، ربما كان هذا هو الواقع، ولكن بهذه الرؤية للتاريخ يصبح التعايش مع الغزاة والاحتلالات ممكناً طالما أن الأوضاع الاقتصادية والثقافية مزدهرة. فأي حسّ وطني يُزرع في نفوس

الناشئة باعتماد هذه المنهجية في التأريخ؟.

ـ **تاريخ لبنان الوسيط**: يُكتفى منه بمثال معبّر في دلالاته المتعدّدة. ففي الحديث عن الحروب الصليبية، يورد أحد الكتب المدرسية أن الصليبيين دخلوا الى لبنان وتابعوا زحفهم جنوباً، حتى «وصلوا البترون فقدّم لهم الموارنة الادلاّء»(٦).

بكل غرابة يُسأل: هل هذه الواقعة تعبّر عن موقف الموارنة آنذاك؟

الدكتور كمال الصليبي يرى في هؤلاء الادلاّء «زمراً من قطاع الطرق من الموارنة... يحترفون العمل الاجرامي فيقدّمونه لمن يدفع الثمن المطلوب»(٧).

ثم نتساءل: هل هذه الواقعة تنمّ عن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين إبّان الحروب الصليبية؟. الرحالة ابن جبير يجيب «وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض... وأهل الحرب منشغلون في حربهم والناس في عافية ولا أحد يعترض الرعايا والتجار. فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أم حرباً». بعد عرض هذه الوقاع المتضاربة، أية أهمية تبقى لتلك الاشارة المثبتة في كتاب مدرسي؟ بل أية حقيقة تاريخية تمثّل؟. حتى ولو كانت تلك حقيقة تاريخية. فلمصلحة مَن تُثْبَت في كتاب مدرسي؟. كلمات ست لا أكثر تهدم بناء وطنياً اجتماعياً، ربما أجهد المؤلّف نفسه في بنائه عبر فقرات مطوّلة في دروس عديدة. ثم ماذا يغير الموضوعية التاريخية ـ وهي نسبية في كل الأحوال وباعتراف كبار المؤرخين ـ لو أُهملت هذه الجزئية التي لا تعبّر عن موقف الجماعة المسيحية؟ وماذا يُنتقص من المسار التاريخي للحروب الصليبية؟ فهل كان انتصار الصليبيين، بحملاتهم المتعددة وجيوشهم الجرّارة مرهوناً بهؤلاء الادلاّء؟ لقد أظهر البحث أن هذه الواقعة لا تمثّل موقفاً جماعياً ويمكن اعتبارها من باب التفاصيل التي يمكن اسقاطها تربوياً ويجب تغييبها وطنياً نظراً لآثارها الخطيرة على وحدة التنشئة الوطنية.

ـ **تاريخ لبنان الحديث**: تقترب هذه الحقبة التاريخية من عملية بناء الكيان اللبناني بشكله الحديث والنهائي، وبالتالي، يصبح الأمر أكثر حساسية، وتغدو مسؤولية التأليف والمؤلّفين اكبر حجماً في بلورة مفاهيم الوطنية الواحدة الموحِّدة. ونظراً لأهمية هذه المرحلة، نورد أمثلة متعددة متنوعة:

● **احداث ١٨٦٠ بين الدروز والموارنة**: يُجمع مؤلّفو كتب التاريخ المدرسية على اعتبار هذه الأحداث فتنة طائفية يرمون باعبائها على التدخل الخارجي بين اللبنانيين. لا

---

(٦) **التاريخ**، المرحلة المتوسطة، الجزء الثاني، مؤسسة بدران، ص ٨٢.

(٧) كمال الصليبي «**بيت بمنازل كثيرة، الكيان اللبناني بين القصور والواقع**»، طبعة أولى، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٢٧.

بأس، ولكن هذا التبرير لن يلغي من النفوس ما زرعته من انشقاق سياسي وتفكك اجتماعي قد ينعكسان في نفس القارىء تشكيكاً في وحدة المجتمع اللبناني ويأساً من امكانية تحقيقها بين المسلمين والمسيحيين. ربما كانت هذه الواقعة من الأهمية بحيث يستحيل إسقاطها وتغييبها من التاريخ دون افساد المسار التاريخي للأحداث وترابطها وآثارها. وفي هذا إفتئات كبير على الموضوعية التاريخية. ولكن، والحال هذه، يمكن التخفيف من وقع هذه الفتنة وانعكاساتها على الناشئة. كيف؟ ليس بالصياغات الانشائية والتفسير الاخلاقي للتاريخ، بل بواقعه ايجابية مقابل واقعة سلبية. خصوصاً اذا كانت الواقعتان مترافقتين في الحدث نفسه فان لم يتسنّ لهذه إلغاء المفاعيل السلبية لتلك، فعلى الأقل تبعث في النفوس الأمل بامكانية وصل ما انقطع واستعادة اللحمة الاجتماعية التي أفسدتها تلك.

ففي وقائع فتنة ١٨٦٠ واقعة تاريخية مثبتة تتحدّث عن لجوء كثير من النازحين الموارنة، من جرّاء هذه الفتنة، الى مناطق لبنانية مسلمة (جبل عامل على سبيل المثال) وتتحدّث عن حسن استقبال المسلمين لهؤلاء النازحين الموارنة والدفاع عنهم وايوائهم في بيوتهم وتقديم المساعدات الحياتية لهم طوال فترة تهجيرهم من جبل لبنان[٨].

هذه الواقعة أسقطت نهائياً من أحداث فتنة ١٨٦٠. فلصالح مَن، كان هذا الانتقاء والاجتزاء والتغييب للوقائع؟ أية موضوعية تاريخية اعتُمدت وأية هموم وطنية استُلهمت في هذا التغييب؟ ونكتفي بالسؤال: لو أن هذه الواقعة التاريخية أُثبتت في سياق أحداث تلك الفتنة، فهل يبقى الانطباع لدى الطالب باستحالة التعايش الاسلامي ـ المسيحي واستحالة إعادة اللحمة الاجتماعية للمجتمع اللبناني؟.

بالانتقال الى مثال آخر من أواخر العهد العثماني في لبنان، تجد أن أجنبياً تركياً يخرج فتنطوي معه «آلام الضيق والمرض والاضطهاد ليحلّ محلّها عهد مشرق جديد(؟!) كانت تصوّره باريس ولندن في بياناتها طوال زمن الحرب بأنه عهد الحرية والاستقلال»[٩]. هذه عبارة ترد في أحد كتب التاريخ لصف البكالوريا القسم الأول. انها عبارة تفصح عن مدى الجهد المبذول في صياغتها لتأتي ملتبسة بشكل عجيب غريب. فلو أن ذاكرة الطالب، بميلها نحو الاختصار، أسقطت، عمداً أو سهواً، ما «كانت تصوّره باريس ولندن...» لبقيت العبارة لدى الطالب «عهد جديد مشرق... إنه عهد الحرية والاستقلال». ولو أن التدقيق

---

(٨) محمد جابر آل صفا، «تاريخ جبل عامل» دار متن اللغة، بيروت، ص ١٥٩ ـ ١٦٠. حيث نقرأ ما يلي: «التجأ كثيرون من منكوبي المسيحيين اللبنانيين الى جبل عامل فحلّوا فيه ضيوفاً على الرحب والسعة فحماهم الشيعيون وأووهم ودافعوا عنهم دفاعاً مجيداً لم يزل يذكره فضلاؤهم الى اليوم.

«وحاول محمد بك الأسعد أن ينتصر للمسيحيين ويكبح جماح الدروز... وأسرع على رأس ألف فارس الى جبع لمهاجمة الدروز غير أن سياسة الدولة يومئذ قضت بإيقاف الهجوم».

٩ **المصوّر في تاريخ لبنان**، الجزء العاشر، دار العلم للملايين، ص ١٨.

العلمي المنطقي أسقط ما «كانت تصوّره باريس ولندن... بأنه عهد الحرية والاستقلال» لبقي العهد «عهداً جديداً مشرقاً». وأهمية هذه العبارة انها تأتي في معرض تقويم عام مسبق لعهد الانتداب الفرنسي في لبنان. إنها تحمل ضبابية وطنية لا تجد جلاء واضحاً لها في الدروس اللاحقة التي تتحدث بخجل عن عهد الانتداب الفرنسي وتحمل احياناً إدانة أخلاقية له لا وطنية. هذا في وقت أدان فيه كثير من المفكّرين والمؤرّخين والسياسيين الفرنسيين سياسة فرنسا الانتدابية في لبنان.

وبعيداً عن الاستغراق في تفصيلات الحديث عن عهد الانتداب الفرنسي كما تقدّمه الكتب المدرسية يُكتفى بالاشارة الى غائبَيْن عنها. وتغييبهما امر مستغرب بالمنظار الوطني.

الغائب الأول: غياب الاشارة الى أية مقاومة مسلّحة للانتداب الفرنسي في لبنان. وهذه المقاومة موجودة اذا أُريد البحث عنها في التاريخ[١٠]. فقط هناك إشارة يتيمة في هذا الشأن: هي محاولة اغتيال الجنرال غورو سنة ١٩٢١ على يد أدهم خنجر، وهو ثائر لبناني من جبل عامل. لكنّ هذه الإشارة ترد وقد شابتها شائبات ثلاث:

- الأولى: ورودها في غير مكانها الطبيعي. إذ أنها ترد في القسم الثاني من كتاب البكالوريا اللبنانية، الذي يتحدّث عن سورية تحت الانتداب وليس في القسم المخصص لتاريخ لبنان.
- الثانية: إهمال الإشارة الى أن أدهم خنجر ثائر لبناني. بحيث يظنّ القارىء أنه سوري. ويعزّز ظنّه هذا ورود الاشارة اليه في القسم المتعلّق بسورية وليس بلبنان.
- الثالثة: مغالطة تاريخية تجعل حادثة أدهم خنجر ومضاعفاتها سبباً من أسباب الثورة السورية بزعامة سلطان باشا الأطرش على الفرنسيين سنة ١٩٢٥[١١]. في حين ان الواقع يثبت أن أدهم، الثائر اللبناني اللاجىء الى بيت سلطان الاطرش هرباً من الفرنسيين، قد تسبّب بثورة أولى من قبل سلطان الاطرش على الفرنسيين سنة ١٩٢٢[١٢].

الغائب الثاني: غريب بغيابه أو بالأحرى بتغييبه كبير بدلالاته. ففي بلد كلبنان، يعاني ما يعاني من الانقسامات الطائفية والإشكاليات الوطنية، يقضي الواجب والمسؤولية الوطنية ببعث كل واقعة تنمّ عن أي تقارب اجتماعي بين الفئات اللبنانية. فكيف تُهمل

---

(١٠) راجع، محمد سعيد بسام، «**الاتجاهات السياسية في جبل عامل ١٩١٨ ـ ١٩٢٦**» أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة القديس يوسف، غير منشورة، الفصل الثالث بعنوان (المقاومة العاملية للاحتلال الفرنسي)، ص ٩٠ وما يليها.

(١١) راجع، المصوّر في تاريخ لبنان، الجزء العاشر، ص ١٩٥.

(١٢) راجع، محمد سعيد بسام، «**الاتجاهات**»، ص ٢٢٣.

الاشارة الى البطريرك الماروني انطوان عريضة ومواقفه التاريخية في وجه سياسة الانتداب الفرنسي الاستغلالية والاستعمارية، وتصدّيه الوطني لاحتكار شركة الريجي الفرنسية وقد تجلت في عهده الوحدة الوطنية الاسلامية ـ المسيحية بأصدق مظاهرها. فأصبح، وهو الماروني الأصيل، زعيماً وطنياً ينطق باسم اللبنانيين، المسلمين قبل المسيحيين، وأحياناً باسم السوريين. وأصبح الصرح البطريركي رمزاً للوحدة الوطنية، ترده التلغرافات المؤيّدة وتؤمّه الوفود الشعبية المبايعة من الأنحاء اللبنانية كافة، والسورية أحياناً. فقد كان لتحركات البطريرك عريضة، ودعم الفئات الشعبية له، على اختلاف مناطقها وطوائفها، الفضل الأكبر في إعادة الحياة الى الدستور اللبناني سنة ١٩٣٦، وفي عقد المعاهدة الفرنسية ـ اللبنانية سنة ١٩٣٦[١٣]. ومن مؤتمر بكركي المنعقد في ٢٥ كانون الأول ١٩٤١ بين الزعماء اللبنانيين على اختلاف طوائفهم، برعاية البطريرك، بدأت مسيرة الاستقلال الوطني التي تُوِّجت بالظفر سنة ١٩٤٣. ومن خطاب البطريرك في هذا المؤتمر، انبعثت أفكار الميثاق الوطني سنة ١٩٤٣[١٤].

أحداث مشرقة في فترة مميَّزة من تاريخ لبنان المعاصر، تحقَّقت فيها الوحدة الوطنية الصادقة بين اللبنانيين، تغيب عن التاريخ المدرسي اللبناني. لمصلحة مَن؟ وأية حكمة وطنية من هذا التغييب؟ أسئلة تبحث عن إجابتها لدى المؤرّخين الوطنيين اللبنانيين من دعاة تصحيح كتابة تاريخ لبنان.

قبل متابعة الحديث، يقتضي البحث العلمي التساؤل عن أسباب هذا التقصير الحاصل في كتب التاريخ المدرسية اللبنانية وقصورها عن اداء قسطها في خلق شخصية وطنية موحَّدة المفاهيم والتوجّهات والتطلعات؟

بادىء ذي بدء، لا يُنكر على غالبية مؤلّفي كتب التاريخ المدرسي، على اختلاف سلاسلها ودور نشرها، كفاءاتها العلمية ومستوياتها الفكرية وقناعاتها الوطنية التي تؤهّلها لعملية التأليف. على أن ثمة امراً هاماً يقع في اساس هذا القصور الوطني الشائع في الكتب المدرسية المتداولة. هذا الأمر يجب قوله بكل مسؤولية وجرأة وطنيتين، وهو عدم الوضوح في الهويّة الوطنية اللبنانية. وعن هذا الأمر، ربما نتجت بقية التقصيرات العلمية والوطنية التي وقعت فيها الكتب المتعددة.

● في لبنان، هناك هوية وطنية معلَنة ولكنها ملتبسة. وهناك هويات متعددة باطنة راسخة

---

(١٣) راجع بهذا الخصوص الجرائد اللبنانية الصادرة خلال سنتي ١٩٣٥ و١٩٣٦، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، **البيرق**، ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٥ و٤ و١٢ كانون الثاني ١٩٣٦ و٦ و٨ و١٥ آذار ١٩٣٦.

(١٤) راجع، مسعود ضاهر، «لبنان الاستقلال، الميثاق والصيغة». الطبعة الأولى معهد الانماء العربي، بيروت ١٩٧٧، ص ١٣٠ وما يليها.

في نفوس اللبنانيين على اختلاف فئاتهم وانتماءاتهم السياسية والطائفية. هذه الازدواجية في الانتماء جعلت اللبنانيين ينظرون الى التاريخ نظرات مختلفة المنطلقات متعدّدة المشارب. نظرات تعوزها، جميعها، الموضوعية ويحرّكها الهوى.

- فلبنان بلد عريق في التاريخ محدَّد المعالم والحدود بنظر فئة من اللبنانيين، وهو مولود محدَث مقتطَع من محيطه بإرادات خارجية، بنظر فئة أخرى.
- بعض الأحداث التاريخية مركزية وهامة لدى فئة وهامشية لدى أخرى.
- بعض الرجالات التاريخية أبطال وطنيون لدى فئة وحكام عاديون لدى أخرى في غمرة هذه الفوضى الوطنية تجد كل فئة تعمّم رؤاها التاريخية ومفاهيمها السياسية على اللبنانيين كافة. لذلك أصبحت المفاهيم الوطنية نسبية والانتماء الوطني نسبي. من هنا كان تعدّد الولاءات لدى اللبنانيين.

وفي خضم هذه التعددية الوطنية، جاء مؤلّفو كتب التاريخ المدرسية، وهم من هذا الشعب، بعضهم له مفاهيمه وانتماءاته الوطنية الخاصة، وبعضهم رأى أن عليه التعايش مع هذه الانتماءات المتعددة ومراعاتها في عملية التأليف. فأصبح حسّه بالمسؤولية الوطنية الحقة نسبي تحرّكه الاهواء والميول. من جهة وضرورات التسويق التجاري من جهة اخرى[١٥]. وهو في ذلك يكون قد ارتضى تجاوز الموضوعية العلمية وتخلّى عن المسؤولية الوطنية في التأريخ، وعندها، لا همّ إن تجاوز قليلاً أو كثيراً، لذلك جاءت تلك الكتب بهذا القصور العلمي والوطني.

بعد عرض الأغراض الوطنية لتدريس الناشئة مادة التاريخ وواقع كتب التاريخ المدرسية وقصورها عن اداء دورها في الإسهام في خلق الشخصية الوطنية الموحَّدة وتنمية الروح الوطنية لدى الناشئة. وبعد عرض أسباب هذا القصور، تأتي القضية الأساس لهذا البحث، وهي: كيف يكون تصحيح الخلل المتمثّل بتعددية هذه الكتب من ناحية، والأخطاء المنهجية، الواقعة فيها من ناحية أخرى؟

في الإجابة على هذا السؤال، يمكن التأكيد ان تعددية الكتب المدرسية ليست آفة بذاتها حتى يمكن تصحيحها بمجرّد توحيد الكتاب المدرسي. بل يمكن القول إن في هذه التعددية، لو أُحسن استعمالها من منظور علمي وطني، ظاهرة تنوع ثقافي ينعكس إغناءً للشخصية الوطنية، ولكن هذا بعد توحيدها وتعزيزها بشتى مقوّمات الوطنية الحقة. إلاّ أن آفة هذه الكتب، تكمن في مضمونها التاريخي: منهاجاً ومنهجية، فضلاً عن الأسلوب

(١٥) من مستلزمات التسويق التجاري نذكر ظاهرتين: الأولى هي الحرص على تأليف السلاسل التاريخية بواسطة مؤلّفين ينتمون الى طوائف ومناطق متعدّدة في لبنان. والثانية تتمثّل بميل المؤلّفين للتوسع والاستطراد في عرض التفاصيل كمبرّر لإصدار السلسلة الجديدة كي تبدو وكأنها تغطّي نقصاً علمياً في السلاسل التاريخية الأخرى.

التقليدي في التأريخ المتّبع فيها.

من هنا، فالكتاب المدرسي الموحَّد يجب ألاّ يقتصر على مجرد توحيد للصياغة في عرض الأحداث التاريخية. بل يجب تصحيح التاريخ الوطني: منهاجاً ومنهجية. من خلال رؤية وطنية شمولية تجديدية رائدها بناء الشخصية الوطنية الموحَّدة المنطلقات والتطلعات. بحيث يصبح التاريخ الوطني المدرَّس للناشئة تاريخاً شاملاً كاملاً، كلياً موحَّداً، واضحاً من حيث هوية لبنان في محيطه، تاريخاً وطنياً صحيحاً، موحِّداً، وتاريخاً اجتماعياً بأسلوب علمي مبسَّط.

تاريخ شامل وكامل: في المنهاج الرسمي الحالي للتاريخ، وكما أخرجه المؤلّفون، تجد تركيزاً وتضخيماً لتاريخ منطقة او مرحلة تاريخية وإهمالاً وتهميشاً لأخرى. ففي المرحلة القديمة من تاريخ لبنان، تجد تركيزاً على الساحل دون الداخل. وفي المراحل التاريخية اللاحقة، تجد تركيزاً على منطقة جبل لبنان، إمارة ومتصرفيّة، فيما يُهمل او يُهمّش تاريخ المناطق اللبنانية الأخرى حتى لتنطبق أطروحة «لبنان قلب و مركز وملحقات» على عملية التأريخ. وهكذا جاء التاريخ اللبناني جزئياً يزخر باجتزاء الأحداث وانتقائها. لذلك، فان تجديد كتابة التاريخ اللبناني يجب أن يقدّم تاريخاً شاملاً كاملاً لكل الوطن بكل جغرافيته وسكانه، متوازناً بين مختلف المناطق والمراحل، كي يجد كل مواطن نفسه في جذور هذا التاريخ ليتواصل معه.

ولا يمكن القول التبريري بأن منطقة أو جماعة أو مرحلة تاريخية، مهما صغر شأنها، كانت خارج التاريخ.

تاريخ كلي موحَّد: إن التاريخ الشامل لكل الوطن لا يعني استحضاراً لتواريخ المناطق ـ الملحقات اللبنانية الأخرى وإلحاقها بتاريخ القلب ـ المركز. والشمولية لا تعني تجميعاً للتواريخ المحلية للمناطق اللبنانية بل تكون عبر صياغة تاريخ كلي واحد موحَّد للبنان الوطن. والشعوب الحيّة تجتهد لكتابة تاريخها المشترك، حتى لتخلقه إن لم يكن له وجود. والولايات المتحدة الأميركية، البلد الحديث العهد في التاريخ، والمميَّز التكوين من عناصر بشرية متعددة خير مثال في هذا الخصوص.

قد تعترض الباحث في عملية التصحيح التأريخي هذه مشكلة منهجية ترى في هذه الرؤية الكلية إسقاطاً للواقع السياسي الدستوري الحاضر للبنان على ماضٍ لم يكنه ألاّ بعد سنة ١٩٢٠، تاريخ اعلان دولة لبنان الكبير.

ربما كان هذا الواقع الشكلي صحيحاً. ولكن حقيقة التاريخ الاجتماعي لجماعة أو لجماعات بشرية تتجاوز الأشكال السياسية المطابقة الى التفاعلات السياسية والحضارية بين الجماعات والشعوب. هذا من ناحية، ومن الأخرى، فإن لبنان بجغرافيته الحالية

المحدّدة، كان منذ القدم على اتصال جغرافي بين مناطقه وعلى تواصل اجتماعي بين سكانه، بحيث يمكن النظر اليه على أنه وحدة جغرافية وبشرية دون كثير تجاوز. فقد تعرّض لبنان الحالي، بكل أجزائه الى احداث تاريخية مشتركة.

منذ فجر التاريخ: فالغزاة هم أنفسهم والتحوّلات السياسية هي نفسها والتطور الاجتماعي والحضاري هو نفسه. إن أي حدث تاريخي على بعض أراضيه كان يطال بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كل المناطق وكل السكان وينـد. أن غير منطقة تفرّدت بحدث خاص دون أن تكون له امتداداته وانعكاساته في المناطق الأخرى.

من هنا، فإن إعادة كتابة تاريخ لبنان بمنهجية موحِّدة تعالج احداثه التاريخية برؤية كلية شاملة تبرز قضاياه المشتركة بعواملها وتفاعلاتها، لا تتجاوز الحقائق الاجتماعية للتاريخ مهما كانت الأطر السياسية التي أحاطت بها.

تاريخ واضح من حيث هوية لبنان في محيطه: إن بعض الغموض والالتباس في التاريخ الوطني اللبناني يعود الى خلفيات ايديولوجية تحكم المؤرخين والمؤلّفين اللبنانيين. لقد كان خوف بعض اللبنانيين على حاضر الكيان اللبناني ومستقبله وراء غموض هويته القومية أو الهروب من الإشارة الواضحة اليها خوفاً من أن يسهم ذلك في تهديد مستقبل هذا الكيان بالذوبان. ولكن غموض الهوية هذا أو تجاهلها شكّل للبعض الآخر من اللبنانيين نوعاً من الاستنفار القومي والاحساس بالغبن القومي اذا صحّت التسمية. وقد تعامل هذا البعض مع هذا الشكل من الهوية أو اللاهوية بالرفض وعدم الولاء الكلي للكيان اللبناني حاصراً ولاءه في انتماء جغرافي او طائفي داخلي أو متجاوزاً إيّاه الى الخارج، متّخذاً له ولاءات أخرى متعددة.

ازاء هذا المأزق التاريخي اعتمد بعض المؤرّخين والمؤلّفين اللبنانيين منهجية توفيقية في التأريخ واحياناً سياسة حيادية بين التيارات الوطنية المتعددة. وبذلك خضع هؤلاء للواقع اللبناني المشرذم بدلاً من أن يفعلوا فيه، وأسهموا ـ بقصد أو بغير قصد ـ في تكريس تعددية الشخصية الوطنية وتعددية انفعالها مع الأحداث.

قضية الهوية اللبنانية هذه، كانت في قلب مؤتمر الطائف الأخير وفي صلب الميثاق الوطني الذي صدر عنه، فقدّم لها حلاً متوازناً كرّسه الدستور اللبناني الجديد في مقدّمته.

فقد نصت الفقرة أ على أن «لبنان وطن سيّد حر مستقل، وطن نهائي لجميع أبنائه واحداً أرضاً وشعباً ومؤسسات في حدوده المنصوص عنها في هذا الدستور والمعترف بها دولياً».

كما نصّت الفقرة ب على أن «لبنان بلد عربي الهوية والانتماء، وهو عضو مؤسس وعامل في جامعة الدول العربية وملتزم مواثيقها (...). وتجسّد الدولة هذه المبادىء في

جميع الحقول والمجالات دون استثناء[١٦] ومنها المجالات الثقافية طبعاً.

إن حسم مسألة الهوية اللبنانية بهذا الشكل المتوازن الذي يحدّد الهوية القومية والوطنية من ناحية ويكفل نهائية الكيان اللبناني من ناحية أخرى، يقدّم صيغة يمكنها أن توحّد الانتماء والولاء بين اللبنانيين في وطنهم وتجعل إعادة كتابة التاريخ اللبناني أكثر استقامة عندما تتناول لبنان في محيطه الطبيعي، وما بينهما من تواصل وتفاعل تاريخيين. وغني عن القول إن الباحثين في التاريخ قلّما كانوا يجدون أحداثاً خاصة بلبنان الجغرافي. ويرون أن أحداثه التاريخية لا يمكن تناولها وفهمها إلاّ ضمن إطار جغرافي أوسع وأشمل هو بلاد الشام.

بناء على ما تقدّم، فإن منهجية اخرى يجب أن تُعتمد في تصحيح كتابة تاريخ لبنان. فتتناوله في محيطه الطبيعي متخلّية عن بعض المقولات الوضعية: مثال لبنان المميّز، ولبنان الملجأ. هذه المقولات التي سقطت امام حقائق التاريخ فضلاً عن وجوب سقوطها امام الضرورات الوطنية للاستمرار السياسي للكيان اللبناني.

تاريخ وطني صحيح: بعد وضوح الهوية الوطنية والقومية للبنان، يصبح من السهل اعتماد منحى وطني واضح المفاهيم والمقاييس الوطنية: في التأريخ الوطني.

فعلى الصعيد الداخلي تتمثّل الوطنية الحقة بمقاومة الأطماع الأجنبية بشتى أشكالها وبالعمل على تحقيق الاستقلال الحقيقي للوطن بشتى الوسائل والأساليب بعيداً عن المنهجية التبريريّة في التأريخ التي ترى في المساومة على الحقوق الوطنية تبعاً للظروف حكمة وفي مبدأ «خذ وطالب»[١٧] سياسة براغماتية حكيمة. فهذه السياسة تكتشفها الأجيال وتعتمدها الشعوب في التعامل المرحلي مع الأحداث، ولكنها لا تكون قيماً وطنية تربّى عليها الناشئة فتؤدّي بها الى الخنوع والخضوع والتعايش مع الاحتلالات الأجنبية. وهذه سمات لا تستقيم مع القيم الوطنية الحقة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن وضوح الهوية وتحديد المفاهيم الوطنية يمكّن من تحديد الأحداث الوطنية والرجالات الوطنيين وفقاً لرؤى وطنية واحدة، وبالتالي، يمكن إبراز تلك الأحداث وأولئك الأبطال في التاريخ لتتمثّل الناشئة بهم.

وعلى الصعيد الخارجي: يُعرض لتاريخ لبنان في محيطه ولعلاقاته بالشعوب الأخرى من منظور وطني واضح يحدّد ويميّز الاصدقاء من الحلفاء من الاشقاء من الأعداء وفق مفاهيم ومقاييس وطنية ثابتة دون مراعاة أو مداراة لأحد ولعلاقاتنا الحاضرة به. فماضي

(١٦) راجع، النص الحرفي للدستور اللبناني الجديد في «السفير» ٢٢ آب ١٩٩٠.
(١٧) راجع، المصوّر في تاريخ لبنان، الجزء العاشر، دار العلم للملايين، ص ٥٠.

العلاقات بين الشعوب يبقى جزءاً من الماضي ولا ينسحب على الحاضر أو المستقبل إلاّ بقدر استمرارية هذه العلاقات على وتيرتها السابقة، سلبية كانت أم ايجابية. فلا صداقات ثابتة ولا عداوات ثابتة في التاريخ وانما روابط سياسية ومصالح متبادلة تحدّد العلاقات تبعاً للظروف والأحداث. فإذا انقلبت الشعوب الحاضرة على ماضي تعاطيها مع الآخرين، تصبح غير مسؤولة عن اخطاء أو خطايا أسلافها. فتركيا اليوم غير مسؤولة عن خطايا الدولة العثمانية تجاه العرب. وفرنسا اليوم ليست مسؤولة عن خطايا الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان إلاّ بالقدر الذي تتابع السياسة الاستعمارية لأسلافها. والأمثلة كثيرة في التاريخ على اعتماد هذه المنهجية الوطنية في التأريخ. نكتفي بالاشارة منها الى أن التقارب الاقتصادي بين الدول الاوروبية والساعي الى شكل من أشكال الوحدة السياسية لا يستدعي تحريفاً للتاريخ الاوروبي ولا تلطيفاً للعلاقات التاريخية الصدامية التي سادت فيها قروناً طويلة.

تاريخ وطني موحّد: لقد أظهرت الأحداث أن الانشقاق العامودي في المجتمع اللبناني أمر واقع على أسس طائفية، وأن العامل التاريخي ـ بالإضافة الى غيره من العوامل العديدة ـ في هذا الانشقاق أمر مؤكد. وبيّن البحث أن كتب التاريخ المدرسية قاصرة عن حسن التعامل مع هذا العامل بما تقتضيه المسؤوليات والضرورات الوطنية. وحيث أن استمرارية هذا الانشقاق تهدّد المجتمع بمزيد من التشرذم والكيان اللبناني بالتفتت والزوال، لذا يجب تصحيح كتابة تاريخ لبنان بشكل يؤهّله لأن يلعب دوراً توحيدياً في المجتمع. وذلك يكون بالتركيز على كل الظواهر التوحيدية في تاريخ لبنان، وإبرازها بشكل واضح لتكون هي الأساس في التنشئة الوطنية للناشئة اللبنانيين بالتأكيد على تاريخية التعايش الاسلامي المسيحي عبر إبراز القضايا التاريخية التالية:

- إظهار ما في الديانتين السماويتين من تطابق أو تقارب على مستوى القيم الروحية والاجتماعية التي تدعوان اليها. كمثل إضافة فقرة بارزة عند الحديث عن الدعوة الاسلامية تظهر ما في تعاليم الديانتين من توافق، وتتحدّث عن نظرة الدين الاسلامي (من خلال القرآن الكريم والحديث الشريف) الى أهل الكتاب عموماً والنصارى خصوصاً[١٨].
- إبراز واقع التعايش التاريخي بين المسيحيين كأقلية دينية والمسلمين كأكثرية قابضة على السلطة في دولة عربية اسلامية رغم بعض الاستثناءات السلبية.
- إبراز واقع التسامح الدينين بين الفريقين ورفض المسلمين (كسلطة زمنية وروحية) لأي

(١٨) راجع رضوان السيّد، «المسيحيون في الفقه الاسلامي» في كتاب«**المسيحيون العرب**» مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الثانية، بيروت، ص ٣٥ وما يليها.

ظلم لحق بالمسيحيين، وفي هذا المجال، فإن واقعة موقف الإمام الاوزاعي في حادثة المنيطرة ليست فريدة يتيمة في التاريخ. ونكتفي بتكرار الإشارة الى مساعدة المسلمين للمسيحيين إبّان فتنة سنة ١٨٦٠[١٩].

- إبراز التقارب القومي بين المسلمين والمسيحيين وتغليبه أحياناً على الاختلاف الديني. وفي هذا المجال، تمكن الاشارة الى وقوف المسيحيين العرب الى جانب جلدتهم من المسلمين ضد أبناء دينهم من البيزنطيين المسيحيين خلال الفتح العربي الاسلامي.

أما الظواهر التقسيمية في التاريخ فينبغي التعاطي معها بمنهجية تربوية وطنية حكيمة، مشبعة بالدرس المعمّق وبكل عناية ومسؤولية وطنيتين.

في تاريخ لبنان، وفي فصول الصراع والانقسام بين فئاته الاجتماعية، هناك الكثير من الحوادث الجزئية المحدودة المضاعفات، يمكن إسقاطها أو تهميشها في تصحيح كتابة التاريخ دون أن يؤثّر غيابها على مسار التاريخ العام. خصوصاً وأن التاريخ المدرسي لن يقدّم احاطة شاملة بالتاريخ بكل دقائقه وتفاصيله. أما الأحداث الصدامية الكبرى بين الجماعات اللبنانية، والتي يرى المؤرخون أنها تفرض نفسها على التاريخ ومساره بما لها من مضاعفات وتأثيرات. فهذه إن امتنع تغييبها، فليس هناك ما يمنع من التخفيف من حدّة مضاعفاتها ومفاعيلها الاجتماعية ومن شدة وطأتها على الناشئة، وذلك يكون بأوجه عدة منها:

- التجاوز عن التفاصيل المستفيضة في وقائع الأحداث الصدامية.
- الإفاضة في تحليل وتعليل ظروفها السياسية والاجتماعية وفي تبيان المداخلات الخارجية فيها.
- إظهار الواقعة وكأنها حدث استثنائي في مسيرة التعايش بن الجماعات اللبنانية. حدث قوامه جماعة أو فئة خاصة لا تعبّر عن المواقف العامة لتلك الجماعات[٢٠].
- إبراز الوقائع الايجابية المرافقة للحدث، مهما كانت جزئيتها: مواقف عاقلة، استنكار وشجب مساعدات انسانية الخ، لأن هذه الايجابيات تسهم في إعادة منطق التعايش بين الفرقاء الى مسار التاريخ الوفاقي العام[٢١].
- وفي كل الأحوال، فإظهار هذه الواقعة الصدامية هو جزء من التاريخ يُسأل عنها الأسلاف بما كانوا فيه من تخلّف سياسي ومحدودية فكرية، ولا يتنكّر لها الأخلاف من الناشئة لأنها تقع في صلب تاريخهم الوطني، ولكنهم لا يتحمّلون وزرها طالما انهم

(١٩) راجع اعلاه فقرة أحداث ١٨٦٠ أو محمد جابر آل صفا، المرجع المذكور، آنفاً، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٢٠) على سبيل المثال واقعة اتّخاذ الصليبيين لبعض الموارنة ادلاّء لهم. راجع أعلاه فقرة تاريخ لبنان الوسيط.
(٢١) راجع اعلاه فقرة أحداث ١٨٦٠ عن مساعدة المسلمين للمسيحيين إبان صدامهم مع الدروز سنة ١٨٦٠.

يتقلّبون على حيثياتها وظروفها. والأمثلة التاريخية في هذا المضمار كثيرة، يُكتفى بالإشارة الى أن واقع العلمنة القائم في اوروبا اليوم لا يُحمَّل ولا يتحمّل وزر الحروب الدينية التي سادت فيها لعقود ماضية.

بهذه الصيغة، تصبح تلك الواقعة، بايجابياتها وسلبياتها، امام الناشئة، فتستخلص منها الدروس والعبر لفهم الحاضر ولتدارك مثيلاتها في المستقبل وتبقى العبرة الكبرى في اكتشاف وتفسير الداء الاجتماعي الذي تعاني منه لتوصف الدواء الصحيح له.

قبل متابعة البحث، ينبغي التوقف عند فكرة قد تتبادر الى ذهن البعض ممّن سيسيئون فهم هذه الأطروحة لمعالجة هذه القضية، فيسارعون الى الاتّهام بالخروج على الموضوعية العلمية في التأريخ والدعوة الى تحريف أو اجتزاء ننهي عنه وندعو الى تصحيحه.

إن هذا الحكم المتسرع ينمّ عن فهم سطحي لهذه الأطروحة أو مزايدة علمية لست قاصراً عن ادعائها أو خبث سياسي لا يُلتفت اليه. وفي توضيحي لما رميتُ اليه أقول: في كتابة تاريخ مدرسي للناشئة وفي بلد كلبنان، واقعه المشرذم معروف، أعترف، بكل جرأة ومسؤولية وطنيتين، بأنني أدعو، من منظور وطني صادق، أدعو الى موضوعية نسبية معيَّنة في التأريخ الوطني، وكسر لا بدّ منه ولضرورات وطنية.

ليس ذلك بدعة في التاريخ. فالثابت لدى معظم المدارس التاريخية، قديمها وحديثها، أن الموضوعية العلمية المطلقة أمر نظري مستحيل الوجود. كما أن الواقع العلمي يثبت أن معظم الكتابات التاريخية تحظى بموضوعية نسبية، والمؤرخون اللبنانيون عموماً ليسوا استثناء. والأمثلة على ذلك كثيرة. فما من دراسة تاريخية إلاّ وتدعى لنفسها موضوعية علمية مطلقة في حين أنها لا تقع خارج النقد التاريخي وأن أول ما يرميها به نقّادها هي قلّة الموضوعية أو نقصها(٢٢).

هذه الموضوعية النسبية التي أراها مقبولة، ودائماً من منظور وطني مسؤول ولضرورات وطنية وبخاصة في كتابة التاريخ المدرسي، لا تتمثّل في تزييف الحقائق التاريخية وتزويرها. وإنما في تعاطي المؤرّخ معها وذلك على مستويين: مستوى انتقاء الاحداث التاريخية ومستوى تفسير هذه الحقائق وتأويلها.

ومرةً أخرى، أقول ليس في ذلك بدعة في التأريخ فأساطين التاريخ لا يرون غير ذلك.

---

(٢٢) راجع كتاب احمد بيضون، «**الهوية الطائفية والزمن الاجتماعي في أعمال مؤرّخي لبنان المعاصرين**» منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٤. هذا الكتاب عبارة عن أطروحة دكتوراه نقدية لأعمال المؤرّخين المعاصرين الذين تحرّكهم خلفيّاتهم الايديولوجية والطائفية في عملية التأريخ.

فحول انتقائية الحقائق التاريخية يقول ادوارد كار في كتابه «ما هو التاريخ؟»: «إن المؤرخ هو انتقائي بالضرورة...» ويضيف إن القول بأن «الحقائق تعبّر عن ذاتها» قول غير صحيح فهي «تتكلّم فقط عندما يطلب المؤرخ منها ذلك. فهو الذي يقرّر نوع الحقائق التي ستُعطى حق الكلام وسياق هذا الكلام[٢٣]». ويؤيّده البروفسور بيركهاردت بقوله: «التاريخ هو سجل لما يراه عصر من العصور يستحقّ التأريخ في عصر آخر[٢٤]».

وحول دور المؤرّخ وتدخّله في التعاطي مع الأحداث التاريخية يرى أ. كار أن «عنصر التفسير والتأويل هذا يدخل في صلب كل حقيقة من حقائق التاريخ». ويضيف «ان الحقائق... لا بدّ أن تخضع لصنع المؤرّخ قبل أن تعمّ فائدتها[٢٥]» ويؤيّده البروفسور اوكشوت بالقول «التاريخ... ليس من صنع أحد باستثناء المؤرّخ، وكتابة التاريخ هي الطريقة الوحيدة لصنعه[٢٦]». أما المؤرخ باراكلوغ فيرى «أن التاريخ الذي نقرأ بالرغم من قيامه على الحقائق فهو ليس حقيقياً بالتأكيد، ولكنه سلسلة من الأحكام المقبولة»[٢٧]. ويذهب جورج كلارك الى نفي وجود «حقيقة تاريخية موضوعية»[٢٨].

بناء على ما تقدّم، فإن أي تاريخ لا يخلو من بعض الصناعة، وحيث أن الأمر كذلك، فإنني أفضّل، في تصحيح كتابة التاريخ المدرسي، القبول ببعض «الصناعة» الوطنية الصادقة التي تنظر الى الماضي وفي ذهنها مشاكل الحاضر، يقول المؤرّخ الايطالي كروشيه «إن التاريخ يتألّف بصورة أساسية من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله»[٢٩]. ويرى أ. كار «ان التاريخ العظيم يُكتب بالضبط عندما تكون رؤية المؤرخ للماضي نافذة في بصرها الى مشاكل الحاضر»[٣٠]. فإذا كانت «عيون الحاضر» و«رؤية المؤرخ» وطنيتين، فانهما تحسنان استخدام الماضي للإسهام في حل مشاكل الحاضر وتمكّنان الانسان من «فهم مجتمع الماضي وزيادة سيطرته على مجتمع الحاضر»[٣١]. واذا كان للموضوعية النسبية في التأريخ مسوّغات ومبّررات يجدها المؤرّخ لنفسه بما يوافق أهواءه وأهدافه، فإن أفضل هذه المسوّغات والمبرّرات هو المسوّغ الوطني الذي أدعو الى

(٢٣) ادوار كار، **«ما هو التاريخ؟»**، ترجمة ماهر كيّالي وبيار عقل، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٦٧، ص ٩ ـ ١٠.
(٢٤) المرجع نفسه، ص ٤٩.
(٢٥) المرجع نفسه، ص ١١ و١٤.
(٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٠.
(٢٧) المرجع نفسه، ص ١٢.
(٢٨) المرجع نفسه، ص ٢٤.
(٢٩) المرجع نفسه، ص ١٨.
(٣٠) المرجع نفسه، ص ٣٢.
(٣١) المرجع نفسه، ص ٤٩.

اعتماده في كتابة التاريخ المدرسي، وفقط في التاريخ المدرسي. أما في الدراسات والكتابات التاريخية الأخرى، سواء كانت للعامة أو للخاصة، فإنني أدعو الى أقصى الموضوعية العلمية. لأن قرّاء هذه الكتابات هم من الوعي والأدراك بحيث يحسنون التعاطي مع المادة العلمية بعقل منفتح ونضوج فكري يحصّنهم من السقوط في الانفعال الغريزي والعاطفي مع السلبيات التاريخية. بعكس الأجيال المدرسية الناشئة التي تكون في مستوى فكري محدود وفي مرحلة من القبول والتصديق التلقائيين وتنفعل عاطفياً مع ظاهر الأمور.

تاريخ وطني اجتماعي: يقول ابن خلدون: إن التاريخ هو خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال...[٣٢]. كما ان النظرة الحديثة للتاريخ، بما لحقها من تطور علمي، أصبحت ترى في التاريخ تاريخ المجتمعات لا تاريخ الأفراد. وحتى عندما يبرز أفراد، في مراحل معيّنة، وكأنهم محور التاريخ، فهؤلاء ليسوا مستقلّين عن المجتمع.

لذلك يجب أن تُعدَّل منهجية الكتابة التاريخية السائدة التي تُقصر التاريخ الوطني على سِيَر الامراء والحكّام. وان تُعتمد المنهجية العلمية الحديثة للتاريخ التي تعطي حيزاً كبيراً للمجتمع بقواه المنتجة وعاداته وتقاليده وقوانين تطوره الاجتماعي. فهو الأرضية الحقيقية للتاريخ. وفي هذا الخصوص، لا أجد اكثر صوابية من صيحة فولتير التي أطلقها سنة ١٧٧٤ «لم يُكتب التاريخ إلاّ بشكل سرد قصصي. وأنا كلي رغبة لكتابة تاريخ العادات والتقاليد الاجتماعية، لكتابة تاريخ العلوم والقوانين والأعراف. في كل ما قرأت، لم أرَ إلاّ تاريخ الملوك، وما أريد هو تاريخ الناس، كل الناس».

تاريخ علمي مبسط: وأخيراً لا بدّ من الاشارة الى أن كثيراً من نفور الطلاب من مادة التاريخ عائد الى الأسلوب التقليدي المتّبع في كتابة التاريخ المدرسي من سرد وحشد واستطراد وغرق واغراق في التفاصيل الثانوية[٣٣]. لذلك، يجب اعتماد اسلوب علمي تحليلي يخاطب عقل الناشئة فيزرع فيها الوعي التاريخي ولا يثقل على الذاكرة بالتطويل والتفاصيل. كذلك يجب اعتماد اسلوب واضح مبسط يحبّب المادة الى الطلاب ليقبلوا عليها برغبة في المعرفة واستعداد لاستشفاف العبر التاريخية من ماضي الأجداد.

---

(٣٢) عبد الرحمن بن خلدون، **تاريخ العلامة ابن خلدون**»، المجلد الأول، الطبعة الثانية، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩، ص ٥٧.

(٣٣) لا بدّ من الإشارة في هذا الخصوص الى الظاهرة المعروفة في المدارس باسم التسطير او التشطيب او الحذف بهدف تشذيب المادة العلمية، مما لحق بها من اثقال المعلومات التفصيلية الثانوية لا لهدف إلا للتظاهر بالكفاية والكمال في التأليف وبسدّ ثغرات علمية مزعومة في السلاسل التاريخية الأخرى. والواقع أن المعلّم، بعد أن يقوم بعملية التشطيب المشار اليها، يكون قد أخرج مؤلّفاً تاريخياً جديداً يختلف كلا الاختلاف عن الكتاب الموضوع بين أيدي الطلاب. ولكنّ الملاحظ اليوم هو أن المؤلّفين الجدد بدأوا يميلون نحو اختصار المادة وتبسيطها.

إن مسؤولية التاريخ في إعداد الناشئة الوطنية الصالحة، مسؤولية كبيرة. ولكنّ التاريخ ليس وحيداً متفرّداً بهذه المسؤولية. فالتنشئة الوطنية تُبنى من واقع الحاضر كما من غابر الماضي. لذلك، فإن عملية تصحيح التاريخ الوطني، إن لم تترافق مع سياسة وطنية موحَّدة وموحِّدة في المجالات كافة، فهي مهدَّدة بالإحباط، ودور التاريخ مهدّد بالإجهاض، والمجتمع بمزيد من التفكك والتفتت، والكيان اللبناني بالتقسيم والزوال.

* * *

YOU LIKE IT...
IT LIKES YOU...
7UP

دور صحيفتي بونابرت
«لوكوريبه دي ليجيبت» و«لاديكاد ايجيبسيين» في النهضة

د. جورج هارون *

كانت الولادة الاولى للصحافة في العالم العربي في نهاية القرن الثامن عشر عندما أقدمت الحملة الفرنسية في وادي النيل، بقيادة الجنرال بونابرت الذي ارتقى فيما بعد الى العرش الامبراطوري في فرنسا تحت اسم نابوليون الأوّل، على إنشاء صحيفتين لا عهد للشرق بمثلهما، هما «لو كوريبه دي ليجيبت» (Le Courrier de l'Egypte) أي «بريد مصر» و«لاديكاد إيجيبسيين» (La Décade Egyptienne)، والاثنتان باللغة الفرنسية.

لماذا، اولاً، صار الاهتمام بإنشاء صحيفة للحملة في مصر دُعِيَت «بريد مصر»؟

كان بونابرت يفتقر إلى أداة اتصال بين جنود جيش الشرق الذي يقوده في غزو وادي النيل، كمقدمة للاستيلاء على طريق الهند التي كانت تحت سيادة بريطانيا، وكان سيحتاج إلى منشورات ومطبوعات يوجّهها الى عسكره. من هنا استقدامه الى مصر مطبعة عُرفت به، والى جانبها بعثة فرنسية من العلماء والفنيين في مختلف حقول المعرفة، بلغ عددهم ١٦٧ عالماً. وكان

---

* دكتور في اللغة العربية وآدابها، دكتور في التاريخ.

اول فتح في التاريخ العسكري الحديث رافقه فتح حضاري.

١ ـ الطباعة وصحيفتا بونابرت

أ ـ الوضع الطباعي في المنطقة قبل مطبعة بونابرت

ما هو وضع الطباعة في البلاد العربية قبل مجيء القائد بونابرت الى وادي النيل، ومصر لم تعرف الطباعة من قبل؟ من المعلوم ان اول مطبعة استخدمت الحروف العربية في التاريخ هي التي تأسّست في روما العام ١٥١٤، وقد نشرت خلال القرن السادس عشر كتباً علمية، وبخاصة كتباً دينية أُرسلت الى الشرق لبيعها في مؤسساته وأسواقه.

اما اول مطبعة دخلت «بلاد الشام» فهي مطبعة قزحيا (لبنان الشمالي) في اوائل القرن السابع عشر (١).

واما المطبعة الثانية التي ظهرت في العالم العربي فهي مطبعة حلب، وذلك في اوائل القرن الثامن عشر، وأصلها مجهول (٢). وكانت المطبعة الثالثة التي عرفتها البلاد العربية هي مطبعة الشوير المعروفة بمطبعة زاخر. أول كتاب طُبع فيها هو كتاب «ميزان الزمان» للأب نيرنبرج اليسوعي، الذي عرّبه الأب بطرس فروماج اليسوعي، العام ١٧٣٤ (٣).

واما المطبعة الرابعة التي ظهرت في المنطقة العربية فهي مطبعة القديس جاورجيوس في بيروت، وقد كان الفضل في إنشائها للشيخ يونس ابي عسكر الشهير، الذي كان له نفوذ كبير لدى الجزّار، وقد أناط به نظارة ديوان (كَرك) بيروت وأوكل اليه تنظيم شرطتها. أول كتاب نشرتهُ هو «كتاب المزامير»، العام ١٧٥١، وكانت هذه المطبعة في خدمة الطائفة الملكية الأرثوذكسية على صعيد المطبوعات الدينية والمليّة (٤).

المطابع الأربع هذه سبقت مطبعة بونابرت التي ظهرت في وادي النيل العام ١٧٩٨، وكانت الغاية منها نشر صحف القائد الفرنسي ومطبوعاته في خدمة جيش الشرق.

لكن، ثمة فروق بين كل من المطابع الثلاث التي سبقت المطبعة الفرنسية المذكورة، وبين هذه الأخيرة. فمطبعة دير قزحيا الشهير في لبنان الشمالي، شمالي مدينة طرابلس وجنوبي بلدة إهدن، المشرفة على وادي قنّوبين، المعروف بوادي النسّاك والمحابس، كانت حروفها سريانية، وقد طُبعت فيها اللغة العربية بالكرشوني؛ لم تنشر سوى كتاب واحد، العام ١٦١٠، هو كتاب المزامير الذي طبع على قطع كبير بعمودين سرياني قعري، وبلغت عدد صفحاته ٢٦٠ (٥).

---

(١) انظر: الاب لويس شيخو اليسوعي «زمن الطباعة في المشرق» مجلة المشرق، مجلد ٣ (١٩٠٠)، ص ٢٥١ وما يليها.

(٢) الأب لويس شيخو، المصدر السابق، ص ٣٥٥ وما يليها.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٥٩ وما يليها. اما بشأن اصل هذه المطبعة فانظر المصدر المذكور وانظر ايضاً:
Basile Aggoula, Le livre libanais de 1585 à 1900, in Le livre et le Liban jusqu'à 1900, Unesco, Paris.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٠١ وما يليها.
AGECOOP, 1982, pp. 297sqq.

(٥) انظر: المصدر السابق، مجلد ٣ (١٩٠٠)، ص ٢٥١ وما يليها.

أما مطبعة حلب فقد سبقت كل البلاد الشرقية في فن الطباعة العربية، وذلك في العشر الأوّل من القرن الثامن عشر، لأن مطبعة الآستانة التي سبقتها كانت ذات حرف عبراني (٦). ان أصل المطبعة، كما أسلفنا القول، مجهول، وقد تكون حروفها قد حُفِرَت وسُبِكت في حلب بالذات، كما ان طبعها كان رديئاً، وإن جليًّا (٧).

أما مطبعة دير الشوير لزاخر، فقد سبك هذا الأخير حروفها العربية، كما كانت كل كتبها دينية أو كنسية انما متقنة الطبع، وقد أسدت إلى الطوائف الكاثوليكية في الشرق فوائد جمة (٨).

اما المطبعة الرابعة التي سبقت مطبعة بونابرت في العالم العربي، وهي المطبعة الارثوذكسية في بيروت، فقد بقيت تعمل نحو المائة سنة، وتنشر الكتب والمطبوعات الدينية والمليّة والطقسية، بحروف عربية فقط. تمتاز مطبوعاتها بجلائها وصفحاتها العريضة، يتولّى نظارتها فضل الله عازار ويصحّح منشوراتها المعلّم يواني بابا دوبولوس، ولم تتجدّد إلّا في العام ١٨٨١ (٩) ؛ لكنها كانت ثاني مطبعة تطبع بالعربية في لبنان بعد مطبعة زاخر، والثالثة بعد مطبعة حلب في العالم العربي.

كل هذه المطابع طبعت بلغة واحدة، هي العربية، ما عدا مطبعة قزحيا التي طبعت العربية بالكرشوني، ومطبعة الآستانة التي استخدمت الحرف العبري فقط. بينما كانت مطبعة الحملة الفرنسية، العام ١٧٩٨، في مصر، بقيادة الجنرال بونابرت، مزوّدة بالحروف اللاتينية والاوروبية والعربية جميعاً (١٠)، وهو ما لم تعهده المطابع في الشرق من قبل.

ب ـ مطبعة بونابرت

إن المطبعة التي نشرت اول صحيفتين في العالم العربي وفي الشرق الأوسط قاطبة، كانت حدثاً، وأي حدث! فقد وُلدت بواسطتها الطباعة والصحافة في المنطقة في آنٍ واحد. من أين اتت هذه المطبعة، وأين عملت، ومَن عمل فيها؟؟

يزعم فيليب دي طرّازي، مؤرخ الصحافة العربية الشهير، ان هذه المطبعة استقدمتها الحملة البونابرتية من باريس (١١). لكن، في الواقع، لم تكن قد قامت أبحاث حول المطبعة في عهد طرازي. من هنا كانت معلوماته ناقصة وخاطئة، بل فقيرة حول الموضوع، وهو مؤرّخ صحافة لا مؤرّخ الطباعة. ومؤخّراً، قام صلاح الدين البستاني، صاحب دار العرب للنشر في

---

(٦) انظر «المشرق»، ٣: ١٧٦.
(٧) المصدر السابق، ص ٣٥٥ وما يليها.
(٨) المصدر السابق، ص ٣٥٩ وما يليها.
(٩) المصدر السابق، ص ٥٠٠ وما يليها.
(١٠) انظر: الدكتور عبد اللطيف حمزه، «قصة الصحافة العربية في مصر»، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧، ص ٢٧.
(١١) انظر: «تاريخ الصحافة العربية»، ج ١، المطبعة الادبية، بيروت، ١٩١٣، ص ٤٥.

القاهرة، بتحريات حول هذه المسألة فحصل على معطيات جديدة كانت مجهولة من قبل في هذا الشأن.

إن مطبعة بونابرت المذكورة استولى عليها القائد الفرنسي بونابرت في الفاتيكان، وهي المطبعة العربية المعروفة في هذه الدولة، وكان يبغي بواسطتها خدمة فتحه في الشرق العربي. لدى خروج بونابرت من مرسيليا كان بمعيّته عنصران هما المدماكان للمطبعة: المستشرق جان جوزيف مارسيل، الذي يتقن الطباعة، وآخر هو المحترف الطباعي جوزيف مارك اوريل.

وعندما همَّ بونابرت بدخول أرض وادي النيل، أصدر الأوامر بإنزال جنوده على شاطىء العجمي، ثم أمر بأن ترابط السفن الحربية الفرنسية في خليج ابي قير، متخفّية عن أنظار نلسون، قائد الاسطول البريطاني الذي كان يتعقّب الحملة الفرنسية؛ كما أصدر بونابرت امراً بالعمل بسرعة على إنزال المطبعة المذكورة في ميناء الاسكندرية، بحيث نُقِلت فيما بعد الى دار قنصلية البندقية.

وفي الاسكندرية، استخدم مارك اوريل المطبعة البونابرتية لطبع منشورات وبيانات تدعو الاهلين الى القيام بتنظيف الساحات والطرقات والاسواق وما شابه بالمكانس، والى الإضاءة واستخدام الماء في النظافة ايضاً، وقد وقّعها بعض كبار سكان المدينة.

فيما بعد، نُقلت المطبعة الى القاهرة، بعد ان توطَّد الأمن فيها للفرنسيين. وهنا طبعت اول بيان عسكري الطابع في الأزبكية في ١٥ آب ١٧٩٨، وكان صادراً عن بونابرت يحيط به ضباطه وجنوده والعلماء الذين اتى بهم، فقُذِفَ المنشور في الهواء والصيحات تعلو قائلة: «تحيا فرنسا!»

لكن يبدو أن بونابرت، الذي كان يشرف على الطباعة بنفسه، رأى ان الجهود التي يبذلها العامل الطباعي مارك اوريل غير كافية، وساءهُ رداءة الحروف وقذارة الحبر المستخدم، فأعفاه من مهمّته الطباعية بأمر عسكري يحمل الرقم ٣٦٧٢، وذلك في ٤ تشرين الثاني ١٧٩٨، مستبدلاً إيّاه بجان جوزيف مارسيل، الذي أصبح رئيس المطبعة والمسؤول الأول عنها.

لم تكتفِ المطبعة بطبع المنشورات المدنية والعسكرية، بل راحت تطبع اول صحيفة عرفتها منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي وهي صحيفة «كوربيه دي ليجيبت» الإخبارية السياسية، اي «بريد مصر»، لتغطية اخبار الحملة الفرنسية وشؤونها وشجونها؛ ثم راحت، فيما بعد، تطبع اول صحيفة ثقافية علمية ظهرت في الشرق، وقد خُصِّصت لتغطية أبحاث العلماء الفرنسيين الذين رافقوا بونابرت الى مصر، وكانت تحمل اسم «لا ديكاد ايجيبسيين»، اي «العشرية المصرية».

ثم انتقلت المطبعة من حي الأزبكية بعد ثورة اكتوبر الأولى من العام ١٧٩٩ الى حي القلعة، بعد ان كانت قد طبعت ١١٦ عدداً من صحيفة «الكوربيه دي ليجيبت»، وثلاثة مجلدات من صحيفة «لا ديكاد ايجيبسيين»، كل عدد منها بثلاثمائة صفحة. بعدها انتقلت المطبعة البونابرتية، في ثورة اكتوبر الثانية، إلى حي الجيزة، حيث بقيت الى حين خروجها من مصر مع

الحملة الفرنسية الى فرنسا، وذلك بحماية البريطانيين والعثمانيين انفسهم (١٢).

ومن الطريف ان الفيكونت دي طرازي يذكر في كتابه عن تاريخ الصحافة العربية ان بونابرت وحملته الفرنسية في مصر أصدرا ثلاث صحف، من بينها «الحوادث اليومية»، وان هذه الأخيرة كان يحرّرها اسمعيل بن سعد الخشّاب، وان هذه الصحيفة هي جدّة الصحف في لغة الناطقين بالضاد (١٣). بينما في الواقع لم يحصل شيء من هذا، إنما خطر ببال الجنرال مينو، وهو من قوّاد الحملة الفرنسية في مصر التي لم تتجاوز إقامتها هناك ثلاث سنوات (من ١٧٩٨ الى ١٨٠١) أن يصدر صحيفة بالعربية، ارتائى تسميتها بـ «التنبيه». وعيّن الشيخ اسماعيل الخشّاب المذكور محرِّراً لها ومشرفاً عليها. لكن هذه الصحيفة لم تر النور والمشروع لم ينفَّذ. وقد خرجت الحملة الفرنسية من وادي النيل دون أن يظهر أي عدد من الجريدة المذكورة (١٤). أضف الى ذلك أن جرجي زيدان في كتابه «تاريخ مصر الحديث» (١٥) لم يذكر أن الحملة الفرنسية أصدرت جريدة تدعى «الحوادث اليومية» حسبما ذكر دي طرازي، او أصدرت حتى صحيفة «التنبيه»، لكنه جزم بأن بونابرت أصدر صحيفتين فقط، هما «كوريبه دي ليجيبت» و«لاديكاد ايجيبسيين».

كما ان صاحب دار العرب في القاهرة الذي عُني بنقل صحيفتي بونابرت المذكورتين الى العربية، لا يذكر للحملة الفرنسية صحيفة ثالثة صادرة عنها.

والشيخ عبد الرحمن الجبري المؤرّخ نفسه لا يأتي، في سلسلته «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، حتى على ذكر صحيفتي «كوريبه دي ليجيبت» و«لا ديكاد ايجيبسيين»، ولا أخيراً على أية منشورات للحملة الفرنسية في مصر، بل يقتصر كتابه تقريباً على الحوادث العسكرية والمدنية والسياسية، ليس إلّا (١٦)، حتى انه لا يذكر المطبعة والمجمع العلمي الفرنسي (١٧).

ونحن أنفسنا، قمنا بدورنا برحلة دراسية الى مصر، العام ١٩٨٥، لأجل البحث في الصحافة التي أنشأها بونابرت هناك، فتأكّد لنا اقتصار نشاط هذا الأخير في هذا المجال على إنشاء صحيفتين اثنتين فقط، فيما عدا المطبوعات الأخرى كالبيانات والمنشورات التي صدرت عن مطبعته.

---

(١٢) انظر: صلاح الدين البستاني، «مطبعة بونابرت واسطوله الغارق»، جريدة «الاهرام»، الطبعة الدولية، ٢٧ـ ٨ ـ١٩٨٤، ص ٧.

(١٣) طرازي، المصدر نفسه، الطبعة نفسها، ص ٤٥.

(١٤) انظر الدكتور عبد اللطيف حمزه، المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٥) الجزء الثاني المختص بالمماليك والحملة الفرنسية في مصر، مطبعة المقتطف، مصر، ١٨٨٩، ص ١٨٦.

(١٦) انظر الجزء الثاني من كتابه، المتعلّق بالحملة الفرنسية المذكورة، دار الفارس، بيروت، مطبعة سميا، دون تاريخ (٦٦٣ صفحة من القطع الكبير).

(١٧) وهذا الأمر لاحظهُ معرّب صحيفتي بونابرت صلاح الدين البستاني نفسه (انظر «التمهيد» لترجمة الجزء الأول من «كوريبه دي ليجيبت»).

ج ـ الوضع التقني والاداري لصحيفة لو كوريه دي ليجيبت.

استقدم بونابرت مع حملته العسكرية مطبعة الى مصر لتكون كما قلنا وسيلة اتصال بين جنود جيش الشرق الذي يقوده. ولقد رأى ان أنجع طرق الاتصال هذه تقوم على اصدار صحيفة دورية، فكانت «لو كوريه دي ليجيبت» (Le Courrier de l'Egypte) التي أبصر العدد الأول (١٨) منها النور في ٢٩ آب ١٧٩٨، اي بعد دخول القوات الفرنسية القاهرة بشهر واحد، وبذلك تُمت ولادة الصحافة في الشرق.

بدأت طباعة «لو كوريه» بمطبعة مارك اوريل في القاهرة، لتُستَأنَف ابتداءً من العدد ٣١ (٧ يوليو ١٧٩٩) في مطابع الحملة الرسمية بالقاهرة ايضاً. ولقد منح بونابرت مارك أوريل لقب «طابع جيش الشرق» لدى اصطحابه الى مصر.

ويمكن القول إن «لو كوريه دي ليجيبت» هي صحيفة شبه رسمية انشأها بونابرت نفسه بصفته قائد «جيش الشرق» لخدمة هذا الجيش، وأشرف عليها مع ضباطه، كما أصدر الأمر بتعيين برسفال جرانميزون (Perceval Grandmaison) لتولّي تحرير الصحيفة، وهو من الأدباء الذين رافقوا الحملة العسكرية الفرنسية؛ لكنه اعتذر، فعيّن بديلاً له العالِم الرياضي فورييه (Fourrier). ثم حلّ محلّ هذا الأخير المهندس كوستاز (Costaz) (١٩).

وعندما تولّى القائد كليبر قيادة الحملة العسكرية الفرنسية في مصر، بعد انتقال بونابرت الى فرنسا، عيّن لرئاسة تحرير «لو كوريه دي ليجيبت» ديجينيت (Desgenettes) كبير اطباء الجيش الفرنسي في مصر، وقد باشر مسؤولياته مع العدد السابع والثلاثين في ١٥ ايلول ١٧٩٩ (٢٠).

هذا لجهة الادارة والتحرير والطباعة، أما من ناحية الإشراف، فيمكن التأكيد بأن بونابرت نفسه كان يُعنى كل العناية خلال إقامته في مصر بشؤون الصحيفة. كان يهتم حتى بالأمور التفصيلية، وبالأخطاء المطبعية نفسها. وكان يتبرَّم من هذه الأخطاء إذا وقعت وكأنه يعتبر الصحيفة جزءاً جوهرياً من الحملة العسكرية التي أُنيطت به مسؤولياتها في الشرق. من هنا ان كثرة هذه الاخطاء حملته على استقدام مطابع الحملة الرسمية التي أتى بها أصلاً من روما من الاسكندرية لتكون بديلاً عن مطبعة مارك اوريل.

لكن، بالرغم من عناية القائد الفرنسي الفائقة بحسن سير «لو كوريه ، لم يكن ظهورها منتظماً تماماً. فالأعداد الستة الأولى صدر الواحد منها كل اربعة ايام، بينما صدر كل من

---

(١٨) في دار الكتب المصرية مجموعتان من هذه الصحيفة، إحداهما كاملة، والثانية ينقصها العدد ٢٤، وقد استعيض عنه بنص منسوخ باليد. وقد اعتمدنا في الدراسة اعداد الجريدة المعرّبة على أيدي دار العرب للنشر في القاهرة.

(١٩) انظر:

Charles-Roux, la presse française en Egypte, Paris, 1954, p. 145.

(٢٠) انظر:

Canviet, l'Imprimerie de l'Expédition Française, p. 15.

الأعداد اللاحقة كل خمسة ايام حتى العدد ١٢ الذي طُبع في ٢١ تشرين الأول ١٧٩٨. بعد هذه الآونة، راحت الفترة بين كل عدد وآخر تتراوح بين اسبوع وعشرة ايام. وآخر عدد صدر من «لو كوريبه» كان في ٩ كانون الثاني العام ١٨٠١. والجدير بالذكر أن هذا العدد لم يكن مقدّراً له ان يكون الأخير، ولا كان مقدّراً ان تكون شمس الحملة الفرنسية في مصر على وشك الأفول، اذ نُشر في هذا العدد مقال يتناول عادات المصريين المعاصرين وتقاليدهم، وجاء في نهايته ان تتمّة الموضوع ستُنْشَر في العدد التالي الذي لم يصدر ابداً (٢١).

د ـ مضمون صحيفة «لو كوريبه دي ليجيبت» الرائد في تاريخ الصحافة

إن معظم مواضيع وأبواب «الكوريبه دي ليجيبت» رائدة في تاريخ الصحافة بالمنطقة، بل في تاريخ المطبوعات والكتب عامة. وفي عصرنا بالذات، تصلح هذه الموضوعات والأبواب برأينا لصحافتنا المعاصرة ولمؤلّفاتنا المعاصرة. إنها تعنى بمختلف شؤون حياة الحملة الفرنسية آنذاك، بالاخص، وبالحياة العامة في مختلف حقولها الإخبارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية بوجهٍ عام. المضمون ثورة، كما وأن إنشاء الصحيفة ثورة، ومجيء الطباعة الى البلاد المصرية ثورة!

الصحيفة موجّهة أساساً الى رجال الحملة الفرنسية، ولكن الفوائد التي تضمّنتها امتدّت الى ما هو أبعد من الحملة، وأوسع من دائرة مكانها وزمانها، لتشمل كل عصر ومِصر، كما سنرى. ومن يستقرىء مواد هذه الصحيفة يجد انها كانت وسيلة إعلام ناجحة، ووثيقة تاريخية، ومادة ترفيهية، ومنهلاً ثقافياً ووثائقياً نادراً، ونموذجاً لكل صحافة تبغي الفلاح والانتشار وتمثيل دور هام في مختلف حقول الحياة والاجتماع والعلم.

هـ ـ صحيفة «لا ديكاد إيجيبسين»

لكن، اذا كانت صحيفة «الكوريبة..» انشأها بونابرت، اساساً، لتكون اداةً اعلامية لجيشه، فحوت ما حوت من الثقافة على اختلافها وكانت رائدة في أغلب الميادين، فقد كان وراء صحيفة «لا ديكاد ايجيبسين» (La Décade Egyptienne) المجمع العلمي المصري بعلمائه الفرنسيين الذين صحبوا الحملة الى مصر. من هنا كانت أدبية، وبتعبير آخر، غير سياسية وغير اعلامية وغير إخبارية، كما هي الحال مع «الكوريبه» في الأساس. فقد حوت بدورها أولى الدراسات والأبحاث العلمية والفنية والفكرية على اختلافها فيما خص مصر والشرق. كانت ولادتها العام ١٧٩٨ ايضاً، واستمرّت حتى العام ١٨٠١ عندما عادت الحملة الى فرنسا.

لا تنشر هذه الصحيفة الصادرة بالفرنسية الابحاث او التعاميم أو الأغراض العلمية إلّا بعد عرضها على المجمع او مناقشتها فيه. فتأتي محتويات «لا ديكاد» منتقاة ومدروسة ومصفّاة، الى حد انه

---

(٢١) هذا ما اتّضح لنا شخصياً لدى مطالعتنا أعداد «لو كوريبه» في البحث الذي قمنا به حول صحافة بونابرت في مصر، العام ١٩٨٥.

يمكننا ان نعتبر هذه الصحيفة سجلاً لمواضيع المجمع العلمي المصري او محاضراته او دراساته، او مقتطفات عنها.

فماذا حملت الصحيفتان الفرنسيتان اللتان أرسى مداميكهما بونابرت في مصر، ما بين ١٧٩٨ و١٨٠١، وما هو الدور الذي لعبتاه على مختلف الصعد؟

٢ ـ ادوار الصحيفتين البونابرتيّتين ومساهماتهما.

سنستعرض هنا دور صحيفتي بونابرت في البلاد المصرية وفي النهضة على مختلف الصعد بوصف وتحليل المواضيع المختلفة التي تناولتاهما وسنعالج المهمات التي اضّطلعتا بها على صعيد الإصلاح والثقافة والاكتشافات في بلدٍ غنيّ بالتراث، ومجهول نوعاً ما من أرباب العلم، بقدر ما كان انذاك غارقا في بدائيته وبُعده عن مفاهيم الحضارة الحديثة وأساليبها وأدواتها، لدرجة أن غزو بونابرت لمصر كان بمثابة غزو عسكري وثقافي بآنٍ واحد، لكنه ترك أعمق الأثر في انتشال وادي النيل والمنطقة من وهدتهما، بينما مُني الفتح العسكري بالهزيمة.

كانت صحيفة «لوكوريبه دي ليجيبت»، مثلاً، تحاول أن تربط بين جنود الحملة الفرنسية في مصر وبين قيادتهم، كما بين وحداتهم، بعضها مع البعض الآخر، كأن تنشر تنقلات القائد الفرنسي بونابرت في مصر، (رحلة الى قناة السويس مثلاً)، وكذلك إبحاره على ظهر سفينة الى اوروبة واختراقه الحصار الانكليزي البحري دون أن تلمحه السفن البريطانية (١)، وكأن تنشر الأخبار الاجتماعية في فرنسا ومصر. فالصحيفة تؤلّف سجلاً للحياة الاجتماعية التي عاشتها الحملة الفرنسية. ويمكن ان نكمل هذا السجلّ بما رواهُ عبد الرحمن الجبرتي عن الحملة في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» (٢) وبما أضافه نقولا الترك من معلومات في كتابه «ذكر تملّك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية ،والبلاد الشامية» (٣). لكن الصحيفتين المذكورتين بالإضافة الى ارشيف المجمع العلمي المصري، يبقيان المصدر الاساسي لأخبار الحملة.

أ ـ في الإعلام العسكري

على الصعيد الاعلامي العسكري، عملت صحيفة «لوكوريبه دي ليجيبت» على رفع الروح المعنوية لجنود الحملة، فعرضت على صفحاتها أنباء الانتصارات الفرنسية في مختلف الجبهات، من انتصار الفرنسيين في موقعة ابو قير البرية على القوات العثمانية التي أشادت الصحيفة بها، وقالت انها أزالت عن البلاد المصرية خطر تهديدها بغزو جديد (٤)، الى الهزيمة التي

---

(١) انظر: العدد ١٨، المجلّد المعرَّب الاول، ص ٥٩ ـ ٦٠.
(٢) انظر طبعة مطبعة «الرسالة»، تحقيق وشرح حسين جوهر وعمر الدسوقي، ١٩٦٩.
(٣) طبعة باريس، ١٨٢٩.
(٤) العدد ٣٥، ٦ اغسطس ١٧٩٩.

ألحقها جنود بونابرت في ٢٧ آب ١٧٩٩ بفرقتين عسكريتين بريطانيتين امام حصن القصير، حيث مُنيت فرقاطتان انكليزيتان بهزيمة كبرى بعد سلسلة من محاولات الإنزال وسيل من الهجمات (٥)، الى مطاردة العرب البدو الذين كانوا يقومون بغارات على المنعزلين من الجنود الفرنسيين، بقصد السلب والنهب، والاستيلاء على جمالهم وأغنامهم ومغانمهم، وأسر رجالهم ونسائهم (٦)، الى قمع حركات العصيان في القاهرة في ٥ سبتمبر ١٧٩٠ التي مهّد لها بعض الشيوخ من الرتب الدنيا في الادارات بدافع الغيرة من رؤسائهم الذين عيّنتهم القيادة الفرنسية بأمر الجنرال بونابرت لما عهدهُ فيهم من الظفر باحترام مسلمي القاهرة، وقد حُملوا على إغلاق الحوانيت والمتاجر والقيام بمسيرات (٧)، الى محاربة بقايا فلول المماليك في مصر بقيادة مراد بك وبعثرة قواتهم وقتل ثلاثة بكوات منهم وإيقاع اربعماية قتيل من مشاتهم وخيرة جنودهم والاستيلاء على مدافعهم وأمتعتهم وعلى غنائم هائلة، وذلك بفضل الفرسان الفرنسيين، وقد قتل من هؤلاء ٣٥ رجلاً فقط وجرح ٩٠ (٨)، الى غير ذلك من انتصارات كانت تلهب حماس الجنود وترفع من معنوياتهم الحربية مما لا تتسع له هذه الدراسة، لكن «لوكورييه دي ليجيبت» لم تسجّل في هذا المضمار سوى الانتصارات، فلا نرى اثراً لهزيمة واحدة مُني بها «جيش الشرق» الفرنسي بقيادة الجنرال بونابرت أو القائد كليبر من بعده، كما انه ليست هناك اية إشارة الى الضربات التي وجّهها الاسطول الانكليزي للسفن الفرنسية والى مضايقة هذا الاسطول لقوات الفرنسيين في البحر، في الحرب مع الجزّار وفي الاحتلال الفرنسي لوادي النيل. كذلك، كان شأن المتاعب التي واجهها الفرنسيون في مصر مع الفتن الداخلية، التي حرّكها المماليك والعثمانيون والانكليز وغارات البدو وسواهم، كل ذلك مرّت عليه الصحيفة مرور الكرام، علاوة على تجاهلها التام لاضطرار الحملة الفرنسية الى الجلاء عن مصر تحت الضغط العسكري البريطاني والعثماني ولأسباب قائمة داخل فرنسا نفسها!

كما إنّ الصحيفة ضربت صفحاً عن نشر أسباب الثورات والقلاقل التي قامت بوجه الحملة الفرنسية في مصر وخارجها، ولم تأتِ حتى على تفصيل مقتل كليبر والجنازة العسكرية التي شُيّعت بها جثته، وكيف تمكّن القاتل من الايقاع به، في حين انّ تاريخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي قد توسّع كل التوسّع في رواية القتل هذه (٩).

لكن الموضوعية لا تغيب عن الكثير من الانباء الحربية، كالتفاصيل الدقيقة والمعززة بالارقام والوقائع حول معركة ابي قير (١٠)، والملاحظات الجريئة الموجهة إلى الحملة الفرنسية

---

(٥) انظر الصحيفة، رقم ٣٨ من السنة نفسها والشهر نفسه، ص ١٤٨.
(٦) العدد رقم ٢١، ١٢ دسمبر، السنة ٧ للجمهورية، ١٧٩٠، المجلد الأول، ص ٧٢ـ٧٣.
(٧) العدد رقم ١٨، ٢٦ نوفمبر ١٧٩٠، المجلد الاول، ص ٥٧ وما يليها.
(٨) العدد رقم ١٣، ٢١ اكتوبر ١٧٩٠، المجلد الاول، ص ٣٥ـ٣٦.
(٩) انظر: «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، الجزء الثاني، دار الفارس، بيروت، ص ٣٥٨ وما يليها.
(١٠) العدد ٣٥ من اللوكورييه دي ليجيبت، المصدر السابق، ص ١٣٥.

في مصر بقيادة بونابرت، وذلك بقلم مواطن يُدعى فولني (١١).

ب ـ في الحقل الترفيهي.

لقد حاولت صحيفة «لوكورييه دي ليجييت»، مثلاً، أن تخفّف من وحشة الاغتراب لدى جنود الحملة بنشر ما تحصل عليه القيادة من انباء الوطن الفرنسي، فتُحدّث قراءها، مثلاً، عمّا يحصل في فرنسا من اضطرابات مبعثها الانكليز «الحريصون دائماً، بحسب الصحيفة، على إتّباع سياسة الإفساد والتفرقة»، وعلى «إثارة الفتنة في عدة مقاطعات في الغرب الفرنسي لكي تندلع الثورة فيها، ويستلّ اهل ناحية القاندي (la Vendée) بمنطقة اللوار (pays de la Loire) سلاحهم، مرة اخرى، في وجه الجمهورية»..

وتطمئن «لوكورييه» قراءها الى ان الهيئة التشريعية في فرنسا والحكومة كانتا، بالمرصاد لعملاء الانكليز في كل مكان من الوطن الأم، و«تبشّر» الصحيفة الجنود بأن حملات التفتيش تحرّكت في أحياء عدة من باريس وبأنه ألقي القبض على عدد وافر من الاشخاص الذين لا يحملون أية مستندات تدل على هويّتهم (١٢).

ومن الأخبار الترفيهية وصف الاحتفال بعيد النيل، في اول فروكتيدور من السنة السادسة للجمهورية (١٢١٣هـ)، وتقرأ مثلاً: «في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم، توجّه القائد العام وبصحبته جميع الجنرالات من هيئة اركان حرب الجيش والكنحيا والباشا (اي الكينحيات والباشاوات) واعضاء مجلسه والمُلّا وآغا حرس الباشا الى مكان مقياس النيل حيث احتشدت جماهير غفيرة على ضفافه وضفاف القناة (المقصود هو الخليج المصري). وكانت المراتب حاملة الاعلام والزينات... ولما وصل موكب القائد العام الى مكان الاحتفال، أطلقت المدافع عدة طلقات للتحية وعزفت الموسيقى الفرنسية والعربية بعض المقطوعات اثناء العمل في قطع حاجز المياه. وما ان تمّ قطعه حتّى تدفق الماء الى القناة وانساب منها بغزارة الى الريف حول القاهرة لإخصاب ارضه» (١٣).

ومن الاخبار الترفيهية ايضاً ما كتبهُ ل. كوستاز (Costaz) في العدد ٣٤ من «الكوريه» (١٤) تحت عنوان «طرفة» بان عادات الشرقيين تتركّز بالنسبة الى النساء على الحذر والشكوك. لكنّ ما يخفّف من وطأة هذه العادات انه قد تُركت لهن الحرية بأن يتقابلن في الحمامات الخاصة بهنّ. وهذا الاجتماع هو بمثابة ترويح عن النفس، إذ ان كل امرأة تتفنّن في هذه الحمّامات في الاعتناء بزينتها وملابسها، لكن ليس لاجتذاب الرجال، لأنهن لا يظهرن امام هؤلاء سافرات، بل مغطّاة بالبراقع، بل للاستمتاع بأعجاب غيرهن من النساء وإشباع حب المنافسة بينهن.

---

(١١) العدد ٣٤، المصدر السابق، ص ١٢٩.

(١٢) انظر العدد رقم ٥ من الصحيفة في ٢٨ فروكيدور (اغسطس)، السنة السادسة للجمهورية، ص ١١.

(١٣) المصدر السابق، رقم ١ـ١٢ فروكتيدور، ص ١ـ٢.

(١٤) في ١٢ ترميدور (يوليو)، السنة ٧ للجمهورية، العدد رقم ٣٤، ص ١٣١.

ويتابع الكاتب، فيذكر انه، في الواقع، مثل هذه المتعة المحدودة لا تفيد المرأة في شيء، حتى ولو توصّلت الى إثارة الغيظ في قلوب غيرها من النساء في الحمامات. فالمرأة في وضع كهذا تشعر في قرارة نفسها بأن سعادتها غير مكتملة، وهي بعيدة عن رؤية الرجال لها، لأنه محظور عليهم ولوج هذه الأماكن.

ويستطرد الكاتب، فيروي أن النساء التركيات يحببنَ كثيراً المتعة التي يجدنها في الحمامات. ففيها يعرفن جميع الأخبار المنتشرة في المدينة، ويتحدّثن عن غراميات أزواجهن، ويقارنَّ بينها، فاذا تبيّنت إحداهنّ ان زوجها لا يمتّعها بالمقدار نفسه عملت على إقلاق راحته. وبديهي أن في مثل هذا الخبر قدراً من الإثارة بالنسبة للقراء من الجنود وغير الجنود في ذلك الحين.

ومن الانباء الممتعة للجنود النوادر والطرافات في بعض الرحلات التي يقوم بها هواة فرنسيون مرافقون للحملة، وهي رحلات دراسية، مفيدة اجتماعياً وجغرافياً، لكنها تُروى بشكل قصة صغيرة او رواية او حكاية شيّقة لما فيها من جديد مجهول حتى لدى المصريين أنفسهم. ففي مذكّرة نشرتها لوكوريبه بشأن اكتشاف صحارى ليبيا للمواطن جراسيان لوبير (١٥)، يروي هذا الأخير أخبار رحلة اشترك فيها الى أدير السريان بعد اجتيازه ممرّات في جبال جيريه والوصول الى وادٍ على يمينه بحيرات النطرون. والرحلة كانت مؤلّفة من قافلة من المسافرين ضمّت الجنرال مينو وأحد المهندسين الجغرافيين والمواطن الفرنسي لوفيك (Leveque) وأحد الشيوخ، الى جانب ج. لوبير.

هذه الرواية مفيدة من حيث الوضع الجغرافي والاجتماعي للرهبان، ومسليّة من حيث الطرافة والغرابة اللذين تضمنتهما، ونافعة أخيراً بالنسبة الينا اليوم، لأنها صورة عن المجتمع الديني الرهباني في مصر في نهاية القرن الثامن عشر، خصوصاً وان لم يُشر اليه احد من المؤرّخين خارج الصحيفة البونابرتية.

ج ـ في الحقل التوثيقي عن المجتمع المصري.

في صحافة بونابرت الفرنسية في مصر معلومات نادرة عن المجتمع المصري في نهاية القرن الثامن عشر، من ذلك وجود قبائل من عرب البدو الذين يقودون الأغنام وبمعيّتهم كلاب، وتمتطي نساؤهم مؤخّرة خيولهم، ويمعنون في سرقة أمتعة الفرنسيين، ويقيمون في مخيمات بضواحي القرى المصرية، لاسيما في جنوب مدينة الاسكندرية، وهم يسيرون طوابير طوابير، بحماية العديد من الخيّالة في المؤخرة، وفي خيامهم أحمال من القمح والشعير والفول، عدا الأغطية وبطاطين الصوف والقطن، ولهم طوافيهم وأفوالهم للنسيج وأدوات مطابخهم، مع متاع الفرنسيين المسروقة، الامر الذي كان يستدعي من الحملة الفرنسية شنّ حملات عديدة

(١٥) انظر الصحيفة رقم ٤٤، ١٢ نوفمبر، السنة ٨ للجمهورية، ص ١٧٠ـ١٧٢.

لمطاردتـهـم (١٦)؛ لقد اندثرت عادات هذه القبيلة في ايامنا، والقبيلة نفسها تكاد لا تعرف أفرادها، وقد قطن السواد الأعظم منهم المدن.

وفي معلومات عن المجتمع المصري في نهاية القرن الثامن عشر انه في الطريق الى بحيرات النطرون (Natrun) التي تقع على بعد مسيرة يوم غـربي ثيـران كانت تنتشر الاديرة القبطية الخاصة بالقديس مكار (Macaire). أُنشئت هذه الأديرة في القرن الرابع للمسيح، وتقع في الصحراء بالقرب من ينابيع عذبة تغري اللصوص، لكنها محميّة بأسوار منيعة، والرهبان لا يرتدون ازياء معيّنة، وقد اكرم الرهبان الفرنسيين بتقديمهم لهم الخبز الصغير المستدير الشكل، المطبوع عليه الصليب وشعارات دينية، والمحمول على آنية بيضاء، كما هي العادة مع الاشياء المقدسة (١٧). والارجح ان عاطفة الرهبان هؤلاء نحو الفرنسيين كانت بدافع طائفي.

ومن اخبار المجتمع المصري في تلك الآونة ايضاً تلك النبذة التي نشرتها «الكوريبه» عن القافلة النوبية التي كانت تصل القاهرة بين الفينة والفينة. كانت هذه القافلة تجلب معها كل سنة بعض الجواري وبعض العبيد والرجال وأسنان الفيَلـة وريش النعام والتمـر الهندي ومسحوق الذهب (التبر) وخلافه (١٨). لا عجب في ذلك خصوصاً وأن تجارة الجواري والرقيق كانت رائجة في الشرق حتى منتصف القرن الماضي. وتقرأ الكثير عنها في صحافة الجيل الفائت، حيث عالجها بعض المفكرين الأحرار، ومنهم فارس الشدياق في مجلة الجوائب، وكانت الحملة مستعرة في صحافتنا التحررية ضد تجارة الرقيق في الشرق وضد اضطهاد البيض للزنوج في الولايات المتحدة الاميركية.

أما بعد هذا التاريخ فقد زالت هذه العادات شيئاً فشيئاً، حتى اصبحت مجرّد خبر تاريخي.

ومن اطرف ما عرفه مجتمع مصر في حقبة الحملة البونابرتية على مصر عبادة الافعى «ازمودية» (Asmodée)، وهو ما روته «الكوريبه دي ليجيبت» في عددها ٨١ من المجلّد الاول المعرّب (ص ٣٠٤ـ ٣٠٥).

ففي موعدين من السنة، الاول قبل فيضان النيل، والثاني بعد انتهائه، يحجّ عدد غفير من الناس الى معبد الثعبان ازموديه في أحد أغوار الصحراء خلف الريانة (Rayyaneh) إزاء بلدة طهطا، لزيارته. كان هذا المعبد يضمّ ٦٠ كاهناً يبلغ عمر بعضهم خمس عشرة سنة، يقومون بخدمة الهيكل وبشعائر العبادة. ومن معجزات هذا الإله الثعبان، بحسب جمهور المؤمنين به، قدرته على مساعدة النساء العقيمات على الحمل وطرد الشياطين من أجساد المرضى. لكن الكهنة هم الذين يتولّون هاتين المعجزتين. فاذا ما رغبت امرأة في الحمل عليها البقاء ٢٤ ساعة داخل

(١٦) «الكوريبه»، عدد ٢١، المصدر السابق، ص ٧٢ـ٧٣.
(١٧) العدد ٢٧ المصدر السابق، ص ١٠٤ـ١٠٥.
(١٨) العدد ٩، المصدر السابق، ص ٢٣.

المعبد. وعليها أن تدعم وسائل المعالجة بتقديم فروض الشكر للإله، وذلك بتمضية الليل بأكمله مع احد الكهنة. وهذه العبادة عريقة في القدم، كما تؤكّد الصحيفة، وقد احتفظت بوجودها بين الأديان، حتى السماوية منها.

قام مواطنان فرنسيان من الحملة الفرنسية بزيارة المعابد المخصّصة لهذه الديانة، وهي بشكل مغاور تقوم على النيل في نواحي بني حاسم وخلف جهة الشيخ عبادة. وقبّة اكبر هذه المعابد محمّلة على اعمدة مضلّعة ذات تيجان ومنحوتة على الصخر، والجدران مطليّة بألوان زاهية، وعليها رسوم، وداخل المعبد تماثيل اثرية أشبه بالتماثيل المصرية.

وهكذا، فإن صحافة بونابرت ـ وتقارير المجمع العلمي المصري الذي انشأه ـ تكوّن سجلاً للمجتمع المصري إبان ذلك العهد.

د ـ في نقل التطور الصناعي والتقني والفنّي.

وفي الصحافة البونابرتية إيّاها تقارير عن الانقلاب التقني الذي أحدثتهُ الحملة الفرنسية في مصر وعن تدريب المصريين على الصنائع والفنون وعن كيفية تغيير المجتمع المصري من قبلي ـ بدائي الى تقني ـ صناعي، اشبه بمجتمعات اوروبة.

لقد ذُهل الفرنسيون لدى وصولهم الى مصر، إذ رأوا شعباً عظيماً محروماً من التمتّع بالمقوّمات الضرورية للحياة، وهو يكافح عبثاً في وجه الصعوبات المختلفة. كانت الادوات او المعدّات اللازمة تعوزه، حتى البسيط منها، والحملة نفسها لدى مغادرتها فرنسا لم تحضر معها، ما كان ضرورياً لتلقين المصريين ما لدى اوروبا من فنون، وذلك بسبب السرعة التي أُعدَّت بها والغموض السياسي الذي اكتنف اهدافها والاحداث التي جابهتها. مع ذلك، فقد جندت الحملة فرق الفنيين الملحقين بها ينشؤون ورشاً مختلفة لتعليم المصريين أعمال الحدادة وخراطة الحديد والآلات الخاصة بها، واعمال النجارة، وميكانيكية الاخشاب، وصناعة الساعات، وصياغة الحلى وصناعات الاسلحة، كما كانت هناك ورش لتدريب الشعب المصري على الادوات الجغرافية، والطوبوغرافية، والاجهزة الفلكية، والحفر على المعادن، والخراطة على الخشب والآلات الأخرى، وعمليات الطباعة، وكذلك صناعة الحديد والصلب وصهره.

وفي الصحيفة إشارة إلى إنشاء الافران لسباكة المعادن من جميع الأنواع، والآلات الخاصة بالمطاحن وجميع الآلات الأخرى الخاصة بصناعة البارود والطباعة وسكّ النقود. وكان على الفرنسيين ان يصنعوا الآلات نفسها التي يجب التدرّب عليها (١٩).

كل هذه الحرف والصناعات والفنون التقنية التي تؤلّف «الكوربيه دي ليجيبت» سجلاً لها أفاد منها المصريون ودخلت في علومهم ثم استخدمها محمد علي وشجّعها في النهضة المباركة

(١٩) العدد ٤٠ من «الكوربيه»، المصدر السابق، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

التي قام بها في وادي النيل، وهي اول نهضة وطنية قامت في مصر بعد تلك التي جاء بها بونابرت قبل سنوات قليلة.

هـ ـ في حقلي التاريخ والجغرافيا.

كل ما حوته صحيفتا «الكورييه» و«لا ديكاد» هو تاريخ بالنسبة الينا اليوم، وإن ترك الكثير منه أثراً باقياً. فالصحيفتان تشكّلان تاريخاً للعلاقات العسكرية والحربية التي نشأت بين الحملة الفرنسية في مصر وبين المماليك والعثمانيين والجزّار ومقاومي الحملة في مصر من مثيري الفتن والعصاة على اختلافهم بتحريض من المماليك والعثمانيين، وكذلك بين الحملة والبريطانيين. فهناك، مثلاً أعمال عسكرية قام بها الجزّار لا نجدها خارج «الكورييه»، وهناك أحداث نشأت في سوريا والدولة العثمانية تفرّدت بها الصحيفة (٢٠).

تطالعنا الصحيفة بنبذة تاريخية عن سيرة الجزّار والي عكّا (٢١)، تعطي صورة واقعية للرجل، وكأنها وُضعت في زماننا، فهي تحوي أدقّ التفاصيل عن حياته وأعماله ومواقفه وجرائمه ومكائده واحواله مع الاتراك ورعاياهم، وتصلح كمرجع هام عن هذا الحاكم الذي كان له أبلغ الأثر في الدولة العثمانية في حينه.

وفي موضع آخر من الصحيفة نبذة عن تاريخ جزيرة مالطة وعلاقتها بالدولة العثمانية وجهادها من اجل تحررها من الأتراك العثمانيين، لا تقلّ اهمية من حيث ندرة المعلومات ودقّتها عن سيرة احمد باشا الجزّار.

الى التاريخ، هناك في الحقل الجغرافي معلومات عن عدد سكان العالم في حينه، وعدد سكان المدن الكبرى في العالم (٢٢)، ومعلومات جغرافية عن المنطقة المصرية الممتدّة بين خان يونس والعريش، والصحراء المصرية، والصالحية وقتاية (Qottyeh) ودمياط وجبل كاسيوس (Casius) قام بجمعها العالمان كوستاز ومونج (Monge) إرشاداً لجيش الشرق، وذلك على رأس حملة تفقدية في الديار المصرية بقيادة بونابرت، سار قوّادها على ظهور الجمال، واستغرقت اياماً وليالي (٢٣).

ومن فوائد التاريخ في رحلات الفرنسيين الجغرافية في صحراء مصر ما قدّمه راهب الدير اليوناني في جبل سيناء إلى القائد العام الفرنسي من وثائق قديمة تثبت الامتيازات التي مُنحت لرهبان ديره من مختلف ملوك الاسلام وحكامه، ابتداءً من محمد، النبي العربي، الى علي، الخليفة الرابع، الى السلطان القائم، وقد خط بعضها علي بيده بأمر من النبي، وهي لصالح دير

---

(٢٠) انظر، مثلاً، العدد ٢٧ من «الكورييه»، المجلد الاول المعرَّب، ص ١٠٢ والعدد ٣٠، المصدر السابق، ص ١١٠ـ١١١

(٢١) العدد ٢٦، المصدر السابق، ص ٩٨ وما يليها، والعدد ٤٠، ص ١٥٩ وما يليها.

(٢٢) العدد ١٠٣ «المصدر السابق، ص ٣٧٦.

(٢٣) العدد ٣١، ص ١١٥

القديسة كاترين. كما تنشر الصحيفة على صفحاتها نص وثيقة علي مثلما تشير الى الوثائق الأخرى التي اعطاها للدير المذكور كل من السلطان الحاكم سليم الثالث سنة ١٢٠٤هـ (١٧٨٩م) والسلطان احمد سنة ١١٢٦هـ (١٧١١م) وغازي مصر سليم الاول سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) (٢٤).

وهناك الرحلات الجغرافية التي نقرأ عنها في الصحيفة، ومن بينها: الرحلة من القاهرة الى الصالحية؛ الرحلة على الضفة الغربية للنيل من القاهرة الى اسيوط (٢٥)، الرحلة الى بحيرة المنزلة (٢٦)؛ التقرير عن الواحات المصرية (٢٧)؛ والدراسة في تحديد موقع الاسكندرية الجغرافي (٢٨)؛ والرحلة الى بحيرة المنزلة (٢٩)؛ والرحلة التاريخية الجغرافية للعالِم بوشّان (Beauchamps) من القسطنطينية الى طرابزون عن طريق البحر (٣٠)؛ والنبذة عن موقع مدينة دمياط الجغرافي، عن احوالها الصحية، بالإضافة الى وصف المجتمع المصري من حضر وبدو، وشؤونه الاقتصادية والمادية وطبيعة مصر وخصائصها. أليس كل ذلك داخلاً في ريادة أدب الرحلة (٣١) عند كتّاب العرب في القرن التاسع عشر وما بعده. علماً ان ادب الرحلة في النهضة له مسحة أدبية، بينما العناصر التي تكوّن ريادة هذا الادب في صحيفتي بونابرت الفرنسيتين في مصر هي ذات مسحة علمية اختبارية. فثمة قدر كبير من الموضوعية ميّز مقالات صحيفتي «الكورييه» و«لاديكاد» لأنها كانت نتيجة لما بلغه العلم والبحث في اوروبا في اثناء الحملة البونابرتية على مصر، علاوة على فضل الآلات والأجهزة التي استعان بها علماء الحملة الفرنسية في رحلاتهم المصرية، والمراجع التي استندوا اليها، سواء كانت قديمة ام حديثة، والخبرة التي اتّصفوا بها. كل ذلك كان يوضع اخيراً في مصفاة المجمع العلمي المصري قبل نشره أو نشر خلاصاته في الصحيفتين الفرنسيتين.

و ـ في إحياء التراث العربي القديم.

على صعيد التراث، ساهمت «لا ديكاد...» في ترجمة بعض مؤلفات الجغرافي ابي الفداء (١٢٧٣ـ١٣٣١)، صاحب حماة، مؤلِّف «تقويم البلدان» و«المختصر في تاريخ البشر» الى الفرنسية نقلاً عن اللاتينية التي ترجم اليها ميكائيليس، بتشجيع من المجمع العلمي المصري، ونشر سيرة

---

(٢٤) العدد ٢٣، المصدر السابق، ص ٨٥ وما يليها.

(٢٥) انظر: «لاديكاد»، المجلد الأول المعرّب، ص ٧٤ـ ٧٨.

(٢٦) ص ٨٨ ـ ٩١.

(٢٧) ص ٩٢ وما يليها.

(٢٨) ص ٩٧.

(٢٩) ص ٩٧ـ١٠٣ و١٠٤ـ١٠٧.

(٣٠) ص ١٥٨ـ١٦٠ و١٦١ـ١٧٦ و١٧٩ـ١٩١.

(٣١) راجع في ادب الرحلة كتاب الدكتورة نازك سابا يارد «الرحّالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة»، مؤسسة نوفل، ١٩٧٩.

هذا العالِم (٣٢)، وطبع أمثال لقمان الحكيم ابو انعم في حلة عربية جديدة مع ترجمة فرنسية، مسبوقة بسيرة هذا المؤلّف (٣٣).

ويُعتبر كتاب لقمان الحكيم هذا في طبعته الجديدة، مع قصص بيدباي صاحب «كليلة ودمنة»، مصادر اساسية ومنابع وحي للافونتين وقبله لقصص فيدر (Phèdre) وايزوب (Esope)، باعتراف جوزف مارسال محرّر المقال عن الطبعة المذكورة ومحتواها(٣٤). إن الترجمة الجديدة لكتاب لقمان الحكيم ووضع سيرته بالفرنسية هي عمل رائد في نقل التراث العربي الى اللغات الاجنبية، خاصةً ما هو قابل للانتشار وله مضمون إنشائي كأمثلة لقمان الحكيم واقواله وحكمه، وله شخصيته الاسطورية.

ز ـ في الحقل الزراعي.

درس علماء المجمع العلمي المصري الفرنسيون مشاريع ري الاراضي في مصر وسائر المشاريع الزراعية التي نُوقِشَت في المجمع ونُشِرَت او ذُكِرَت أو نوِّه عنها في «الكوربيه دي ليجيبت»، وقد أفاد منها والي مصر الأول وطبّقها كلها تقريباً (٣٥). من هذه المحاولات في الري تلك التي قام بها الجنرال مارمون (Marmont) لإمكان الافادة من قناة «الرحمانية» لري الاراضي بكميات المياه الضرورية لها وذكرتها الصحيفة (٣٦).

ونشير ايضاً الى تلك التقارير الدراسية التي تعرض واقع الزراعة في وادي النيل بالوقائع والارقام، وتتقدّم بالتوصيات في ناحية الاصلاح الزراعي عن طريق الوسائل الفنية الحديثة المتحدة في اوروبا حينذاك.

وكذلك تلك الدراسات المنشورة حول مياه النيل وطرق استخدامها البدائية للري والهدر في هذا الاستخدام، والاقتراحات العلمية والعملية لاستثمار النيل الى أقصى حدّ، وذلك باللجوء الى مسح ارض مصر وتحديد الأملاك وإقامة السدود وسدّ الثغرات وتحديد أزمنة الفيضانات...

تدخل في النطاق ذاته الدراسات المستفيضة للنبات في مصر ولجميع المحاصيل الزراعية وطرق إصلاحها وإنمائها. وكل هذه الأبحاث والملحوظات والمشاريع المنشورة في صحافة بونابرت افاد منها المسؤولون المصريون فيما بعد، وما زالت الى اليوم منهلاً لهم في معالجاتهم للوضع الزراعي المصري، وهو ما نشهده في أيامنا بواسطة الاعلام المرئي والمسموع.

---

(٣٢) العدد ٢٣، ص ٩٣ وما يليها وص ١٣٤ـ١٤٢.
(٣٣) المصدر السابق، ص ٢٤٧.
(٣٤) المصدر السابق، ص ٢٤٧ـ ٢٤٨.
(٣٥) انظر «تمهيد» معرّب الصحيفة صلاح الدين البستاني في المجلد الاول، ص ي.
(٣٦) المصدر السابق، ص ٤١.

ح ـ في الحقلين الطبي والصحي.

في حقل الوقاية ضد الأمراض ومكافحتها نجد المعلومات الصحية عن الرمد بقلم الطبيب بروان في الجيش الفرنسي للشرق (٣٧) وعن علاج الطاعون (٣٨)، والتقرير عن المورستان او مستشفى القاهرة المقدَّم الى القائد العام بونابرت من المواطن ديجينت (٣٩)، والتقرير المقدَّم الى بونابرت بشأن مشروع إنشاء مستشفى مدني في القاهرة (٤٠)، والملاحظات حول الأمراض، وخاصة الدوسنتاريا التي انتشرت في صفوف جيش الشرق (٤١)، ووصف علاج العيون وعلاجها (٤٢)، والمذكرات المنشورة عن الأمراض التي تمّ جمعها في مصر القديمة واعدّها الجنرال باربيس (Barbès)، الطبيب في جيش الشرق؛ وقد أُخذت من العالِم ديجينت كبير اطباء الحملة الفرنسية (٤٣)، والأمر الصادر من القائد بونابرت بإنشاء دار للضيافة في القاهرة يأوي اليها المسافرون الذين تضطرّهم تجارتهم الى البقاء في القاهرة، حيث يجدون الراحة والعناية الصحية وتتوافر لهم مختلف انواع المعالجة في بلد يندر فيه الاطباء (٤٤)، والايعاز الى رئيس أطبّاء جيش الشرق «ديجينيت» (Desgenettes) بتفقّد المستشفى الوحيد في مصر، المعروف «بالمورستان» لدرس طرق تحسينه وتطويره بالاضافة الى المذكّرة المنشورة في «الكورييه».. للعالِم «فرانك»، طبيب الجيش الفرنسي، بشأن المرهم لمعالجة امراض الرمد التي تصيب العين، كل هذه الدراسات والاعلانات والمذكرات والتدابير الصحية المذكورة في صحافة بونابرت الفرنسيّة في مصر بين ١٧٩٨ و١٩٠٠ كانت الأولى من نوعها في الشرق، ذلك ان إمارة فخر الدين الثاني المعني لم تعرف جهازاً ادارياً او عسكرياً او اعلامياً يُعنى بالصحة العامة، وكذلك يصحّ القول في ما يتعلّق بإمارة بشير الثاني الشهابي الكبير (فالتلقيح الذي استُحدث بمحلّة الكرنتينا في بيروت كان من انجازات الحملة المصرية بقيادة ابراهيم باشا، وكان اوّل إنجاز صحّي يشهده لبنان).

كل هذا الاهتمام من جانب الحملة الفرنسية الذي تبديه صحافتها وتدعو اليه في مصر كان حافزاً لمحمد علي على العناية بالمسائل الطبية والوقاية الصحية، فأنشأ مدرسة ابي زعبل الطبية، اول مدرسة من نوعها في مصر والبلاد العربية، وأناط بجرّاح فرنسي من مرسيليا، هو كلوث بك، بتنظيم مصلحة الصحة العسكرية، تماماً كما جرى مع بونابرت في جيش الشرق الفرنسي، وبوضع الأساس لمدرسة قصر العيني الطبية.

ومثلما اهتمّت «الكورييه..» و«لاديكاد».. بالطاعون في مصر وكافحه أطباء الحملة الفرنسية، فقد استبسل كلوث بك بدوره، وبتشجيع من محمد علي، في محاربة هذا المرض.

---

(٣٧) «لا ديكاد...»، المجلد الاول المعرَّب، ص ٤٨ وما يليها.
(٣٨) ص ٩٤ـ٩٧ و٢٢٢ـ ٢٢٨.
(٣٩) ص ١٣١ـ١٣٤.
(٤٠) ص ١٥٢ـ ١٥٨.
(٤١) ص ١٧٦ـ ١٧٨.
(٤٢) ص ٢٣١ـ٢٣٥.
(٤٣) ص ٢٥٦ وما يليها.
(٤٤) العدد ٣٤، المصدر السابق، ص ١٣٠.

ومثلما كان اطباء الحملة البونابرتية فرنسيين فقد قام بالتعليم في مدرسة الطب، بعهد محمد علي، جهابذة الاطباء، وسوادهم الاعظم من الفرنسيين.

ثم إن المقرّ الذي اختاره اطباء نابوليون داراً لعلاج جرحاهم ومرضاهم، بجوار قصر العيني، الذي كان قصراً للولاة الاتراك، جعله محمد علي مدرسة لتخريج الاطباء المصريين وسواهم، بحيث خرّج بعد ١٨ سنة من تأسيسه الف وخمسمائة طبيب في عهد محمد علي فقط.

وعلى صعيد الدراسات الطبية فقد كانت الملاحظات والأبحاث حول الطاعون في «لا ديكاد...» رائدة لرسالة كلوث بك مدير مدرسة قصر العيني الطبية في «علاج الطاعون» (٤٥)، إذ كان علماء الحملة الفرنسية اول من جابه هذا المرض المنتشر في مصر.

ط ـ في حقل الادارة الوطنية العامة.

وفي الانجازات الفرنسية على ارض مصر نفيد من العدد ٢٣ «للكورييه» أن الحملة الفرنسية لم تمسك بالحكم مباشرة ومنفردة ولم تحتكر تسيير دفّة الادارة المدنية إزاء الشعب المصري، بل أنشأت ديواناً كبيراً مكوَّناً من ٦٠ شخصاً من الشيوخ والعلماء والتجّار على اختلافهم، وهم مصريون بغالبيتهم الساحقة، إنما يوجد بينهم أقباط وأرمن وسوريون وندرة من الفرنسيين. ومن بين المصريين أسماء لامعة آنذاك، كعبدالله الشرقاوي، ومحمد المهدي ومصطفى الصاوي وسليمان الفيومي ومصطفى الدمنهوري. مهمّة هذا الديوان هي الاضطلاع بكافة الأعمال الخاصة بتحقيق العدل ورفاهية الاهالي انما مع مراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية. ويكون لدى الديوان مندوب فرنسي ومندوب مصري من الطائفة الاسلامية. ويمكن القول ان هذه المؤلفة هي بمثابة حكومة او إدارة مدنية او هيئة وطنية عليا في ايامنا، ولكن ذات صفة رسمية، طالما انها صدرت بقرار من القائد الفرنسي العام، إذ أن الفرنسيين لم يكونوا مستوعبين حاجات مصر الملحّة داخلياً في مختلف الحقول، وليظهروا للأهالي المصريين احترامهم لديمقراطية كما نفهمها في ايامنا.

ثم ان هذا الديوان الذي طالما نشرت الكورييه صفحات طوال عن نشأته وجلساته واعضائه وانجازاته كان توطئة للحكم الوطني في مصر، اذ به تُدار شؤون مصر للمرة الأولى من قبل ادارة مصرية، وإن باشراف ممثّلين لبونابرت؛ وتدلّ اسماء رجالات الديوان على أن القائد الفرنسي اعتمد على ابناء الطبقة الاجتماعية المعروفة في مصر، عائلياً واجتماعياً ووجاهةً وعلماً، مثل آل البكري والشرقاوي والصاوي والفيومي والدمنهوري، وقد اختير الشيخ عبدالله الشرقاوي رئيساً للاجتماعات. ومما يزيد في «وطنية» هذا الديوان الملابس الاسلامية الجميلة التي كان يرتديها اعضاؤه، وهم يمثّلون مختلف القطاعات والاماكن في مصر، كما اتّصف هؤلاء الاعضاء بالرزانة والوقار بحكم مركزهم الاجتماعي وبوفرة من يرافقهم من الاتباع والأنصار،

(٤٥) مطبعة الديوان الجهادية، ١٨٢٤.

مما يدل على سعة «شعبيّتهم» ونفوذهم لدى جماهير مصر. وبكلمة، فان «الكوربيه» هي سجلّ نشاطات هذا الديوان الذي كان لهُ أثره في نشوء نزعة لدى المصريين فيما بعد الى الحكم الوطني المتمثّل بالتحرر من العثمانيين ومن المماليك ومن الانكليز، وقد تعاقبوا أو تنافسوا على احتلال مصر والسيطرة على مرافقها بعد رحيل الحملة الفرنسية.

ي ـ في الحقل الموسيقي.

اشتهرت مصر، من بين البلاد العربية، بفن الموسيقى والغناء والطرب، وتزعّمت هذا الحقل منذ الثلاثينات من هذا القرن، على الأقل. ففيها عمل كبار الموسيقيين وكبار المطربين والمطربات من العرب، وفيها عُرفوا، وفيها اقتبسوا عن الغرب. لكن الاهتمام بالموسيقى المصرية وآلاتها بدأ، في الواقع، مع الحملة الفرنسية في وادي النيل، ومع صحيفة «الكوربيه دي ليجيبت». فالمواطن الفرنسي فَيللوتو (Villoteau) هو أوّل من أجرى دراسة عن الموسيقى المصرية القديمة والحديثة وتطوّراتها ومبلغ تأثيرها عند الشعوب الباقية، ونشر تصميم هذه الدراسة في عدد «الكوربيه» رقم ٥٠(ص ١٩٦ وما يليها). لقد شرح وضع الموسيقى عند قدماء المصريين بآلاتها (المنقوشة والمنحوتة على جدران المعابد ومدافن الملوك ومغارات الجبال، كما درس الفروق بين موسيقى العرب واليونانيين والارمن وبين الموسيقى الاوروبية، والفرق في النوتة بين أنواع الموسيقى، وقارن الآلات الموسيقية القديمة بالحديثة، وأبدى ملاحظاته على الموسيقى القبطية والسورية واليهودية، كما ترجم كتاباً موسيقياً عربياً الى اللغة الايطالية واللغة الفرنسية بمصاحبة الأصل، الى ان وضع ملاحظاته على طرب وأوازن الموسيقى العربية. وهذا العالِم هو الذي قارن بين فن الرقص المصري وبين الرقص عند اليونانيين والفريجان (Phrygiens) القدامى والجاديتان (Gaditans) في عهد الرومان.

ك ـ في حقل الآثار.

ولعلّ اهمّ ما تركته الحملة البونابرتية بمجملها وصحيفتاها من اثر باقٍ هو قيام علمائها بالتنقيب وراء معالِم مصر القديمة ووصفها وقياسها وتفحّصها وشرحها، وهو عمل يهلل للمرة الأولى في الشرق، فكانت اكتشافات أشارت اليها «الكوربيه» و«لا ديكاد» ونشرتا التقارير الوافية عنها، نتيجة للرحلات الجغرافية داخل مصر التي انصرف اليها علماء واختصاصيون بمختلف فروع العلم الجغرافي والتاريخي. ذلك إنّه الى جانب الديوان الذي انشأه نابوليون الاول للإدارة المدنية في مصر. انشأ ايضاً مجمعاً علميا سميّ بالمجمع المصري (L'Institut Egyptien)، وذلك بتاريخ ٢٠ آب ١٧٩٨ وهو مختص بالعلوم والفنون؛ أهم وظائفه: نشر العلوم والفنون والمعارف في مصر والعمل على تقدّمها؛ والقيام بالبحوث الخاصة بالطبيعة والصناعة والتاريخ المصري واصدار الكتب والنشرات المتعلقة بها، ومن اعضائه في الرياضيات: لوروا (Leroi)، مالوس (Malus)، مونج (Monge)، نوبيه (Nouet)، كيسنو (Quesnot)، سي (Say)؛ في علم الطبيعة: ديجينيت (Desgenettes)، دولوميو (Dolomieu)، ديبوا (Dubois)، جوفروا (Geoffroy)، سافيني (Savigny)؛ في الاقتصاد السياسي: شولكوسكي (Shulkouski)، تاليان (Tallien)؛ في

الآداب والفنون: د. رافائيل (D. Raphael)، رودوتيه (Redauté)، ريجيل (Rigel)، ڤنتور (Venture).

علماء من مختلف الاختصاصات يخرجون من وقت الى آخر الى ارجاء وادي النيل ينقّبون ويدرسون ويبحثون ويعالجون مختلف المواضيع العلمية، ومن بينها الآثار المصرية، ليقدموا تقارير ويرفعوا دراسات عنها الى المجمع العلمي المصري الذي يضمّهم، فتحصل المناقشات بشأن هذه الدراسات وتلك التقارير، خاصة الأثرية منها، ليصار الى نشرهـا، من ثمّ، في «الكورييه دي ليجيبت»، وفي صحيفة «لاديكاد إيجيبسيين». فاذا بالصحيفتان تحملان بين طيّاتهما أبحاثاً من نوع تتضمّنه المطبوعات للمرة الأولى في تاريخ هذا الشرق، وتحديداً في تاريخ مصر.

ففي جملة المهمات التي اضطلع باعبائها العلماء الفرنسيون في مصر ونشرت الكورييه نتائجها، ما جاء في العدد ٢١ منها (المجلد الاول المعرَّب، ص ٧١) من انه كُلّفت لجنة فنية بزيارة القطاع الشرقي لدلتا النيل القديمة واجراء رصد ودراسة فلكية بقصد تحديد النقاط الهامة في جغرافية وادي النيل، منها دمياط وأطلال بيلوز، وبحيرة المنزلة والاهتمام بالقنوات، كما كُلّف علماء الطبيعة في اللجنة بما يهمّ علم الطبيعيات في هذه البقعة.

كما نقرأ في العدد ٢٣ تاريخ ٣٠ دسمبر من السنة نفسها (ص ٨٢) ان العلماء جيوفروا (Géoffroy) ودييوا (Dupuy) وڤكتور مويس (Victor Moues) وميشان (Mechain) هم في الصالحية، وانهم عندما كانوا يعبرون القناة درساً للمنطقة، شاهدوا سبع مسلّات تحمل كتابات بالحروف الهيروغليفية. وهناك عمود ضخم جداً الى جانب جذع تمثال ضخم ايضاً. كما عثروا على مسلتين سليمتين يغمرهما التراب ولا يظهر منهما الاّ الواجهة وقطع من اللازورد بعضها منقوش عليه رسوم جميلة، مما جعلهم يعتقدون ان البدو كانوا قد عثروا منذ عهد قريب على تمثال مصنوع من هذه المادة وحطّموه.

ونقرأ انه سنحت الفرصة للعالِم جيوفروي ان يلحظ في منتصف الطريق الذي سلكه من صان الى الصالحيه اطلال مدينة قديمة تكاد تضاهي القاهرة باتساعها، وفي معظم انحائها تلال عالية من حجارة البناء.

يُستنتج من مثل هذه التقارير المنشورة في «الكورييه» أن أعمال حفر الأرض لعبت دوراً اساسياً في اكتشاف الآثار. وحفر الأرض بحثاً عن المعالِم القديمة يجري للمرة الاولى في منطقة الشرق الاوسط. فالرّحالة المشهورون، مثلاً، الذين زاروا الشرق وسوريا ولبنان وفلسطين لم يقم أي منهم بحفريات في المنطقة بحثاً عن الآثار، من برخارت (Burckhart) الألماني، الى ريكتر (Richter)، الى روبـنسـون (٤٦) (Robinson) الى ريتر ايردكيند (Ritter Erdkunde) الى

(٤٦) لعل روبنسون هو الاكثر تدقيقاً في الآثار، ومع هذا فهو لم يقم بأي حفر للارض خلال دراساته الأثرية في رحلته الى الشرق (انظر: E. Robinson and E. Smith, Biblical Researches in Palestine and in the adjacent regions, 3 vol, 1838. London, 1960.

غويس (Guis) ودي فورست (De Forest)، الى فكتور غيران (Victor Guerin).

ولم تُجْرَ أية حفريات أثرية في لبنان الاّ مع ارنست رينان (Ernest Renan)، وذلك في جبيل والمدن الفينيقية الاخرى، في العام ١٨٦٠ (٤٧)، اي بعد حفريات البعثة العلمية البونابرتية في مصر باثنين وستين عاماً، وبمعاضدة نابوليون الثالث وتكليف منه. لكنها كانت أعمال حفر محدودة جداً وقصيرة الأمد وناقصة، قام بها بضعة أنفار من العمال (٤٨)، بينما قام بالعمل في مصر مع العلماء الفرنسيين افواج من الفَعَلة.

ويجب الاشارة الى ان العلماء استندوا الى المؤرخين والجغرافيين الاقدمين في دراساتهم قبل أن يتحققوا منها في أبحاثهم العلمية ودراساتهم الميدانية، كهيرودوت، مثلاً، ثم رجع العلماء الى القاهرة، على أمل ان يعودوا الى هذه الآثار مرة اخرى، فيقومون بدراسات مستفيضة.

قبل البعثة العلمية البونابرتية لم يستغلّ احد كتابات الرحّالة والجغرافيين والمؤرّخين القدماء في أبحاث أثرية علمية وميدانية في ربوع الشرق الاوسط، على الأقلّ. وما عثرت عليه البعثة ونشرته في «الكورييه» بعد التمحيص فيه على أيدي اعضاء المجمع العلمي المصري بات مصدراً اساسياً لكل عالم فيما بعد يبغي التنقيب عن هذه الآثار او الإفادة مما أتته البعثة المذكورة.

هذا غيض من فيض مما قدّمته صحافة بونابرت في مصر للنشاط المبذول في اكتشاف الآثار المصرية القديمة ونفض الغبار عنها وابرازها. فالحملة الفرنسية، بمجمعها العلمي وصحيفتيها، كانت الرائدة في استعادة مصر الفرعونية، مصر التي مثّلت دوراً هاماً ورئيسياً في العالم القديم وكان لها مع فينيقيا، او لبنان القديم صلات ملأت أحداثها الصفحات الطوال من التاريخ اللبناني والمصري والاقليمي، يوم كان العالم قائماً على حضارات حوض البحر المتوسط وحضارة ما بين النهرين.

٣ ـ محمد علي والصحيفتان الفرنسيتان

كان اتصال الحملة الفرنسية بالشعب المصري اول اتصال اوروبي بمصر واول لقاء مسيحي ـ اسلامي في وادي النيل بعد الحروب الصليبية.

وغني عن البيان ان هذا الاتصال، خصوصاً عبر الصحيفتين المذكورتين، ترك اثره في نفس محمد علي، اول حاكم أراد الاضطلاع بأعباء الاصلاح في مصر بعد الحملة البونابرتية.

---

(٤٧) أنظر: Ernest Renan, Mission, de Phénicie, Paris, Impr. Impériale, A.d.

(٤٨) أنظر محاضرتنا التي أُلقيت في قاعة محاضرات أنطش جبيل تحت عنوان «مأساة بيبلوس» في ٤ ك١ ١٩٨٧، وهي ما تزال مخطوطة.

فالرسائل المتبادلة بين بونابرت وشريف مكّة في «الكوريه دي ليجيبت»، مثلاً، بما تدل عليه من احترام وثقة متبادلين واحترام لشعائر، الاسلام شجّعت محمد علي على إكمال رسالة الحملة الاصلاحية في مصر والتوجّه شطر الخبراء الفرنسيين في مختلف العلوم والفنون، وحقول الاصلاح. ولم يلق محمد أية معارضة من رجال الدين المسلمين في النهل من ينبوع المدنية الاوروبية والفرنسية، بالأخص. كذلك، تأثّر محمد علي بمحتوى الصحيفتين الفرنسيتين لما تضمّنتاه من موضوعات في مختلف ميادين العلوم الهندسية والطبيعية والرياضية والفلكية والزراعية والصناعية، ولما كان لهما من تأثير في الاصلاح والتنمية بوادي النيل، فأرسل البعثات المصرية، وقد ضمّت معه ومع أتباعه حوالي الأربعمائة شخص، الى معاهد اوروبا لدراسة الكيمياء والطبيعة والعلوم الرياضية والفلك والزراعة والطباعة، الى جانب الهندسة والطب والفنون الحربية والبحرية وصناعة السفن لإعداد جيش قوي، شبيه بجيوش اوروبة، وبجيش بونابرت على الأخص.

يمكن القول إن عدوى العلوم الاختبارية والطبيعية انتقلت الى محمد علي في رغبته الاصلاحية من «الكوريه دي ليجيبت» ومن «اللاديكاد ايجيبسيين»، ذلك انهما كانتا اول مطبوعتين، بل اول مظهر كتابي تأليفي يعتمد العلوم الحديثة، بدلاً من علوم النقل والمواد العقلية والغيبيّة والكتبية، في الشرق العربي.

ولمّا كانت هاتان الصحيفتان تصدران بالفرنسية (لم تُنقلا الى العربية إلّا في ١٩٧١)، فقد جعل محمد علي اللغة الفرنسية إلزامية في المدارس المصرية تعميماً لفوائد الثقافة الفرنسية. واقتداءً بما فعله المجمع العلمي المصري، وضع في تصرف الاساتذة والطلاب المصريين مكتبة ضمّت نحو اربعمائة مجلّد من الكتب الاوروبية.

وفي هذا المجال، نشير استطراداً الى أن المجمع العلمي الذي طالما نشرت صحيفتا «الكوريه» و«لاديكاد» قصة إنشائه ونشاطاته واعمال اعضائه في الديار المصرية، كان قدوة وحافزاً على إنشاء «الجمعية المصرية» التي أسّسها نفر من العلماء الاجانب المقيمين في مصر،العام ١٨٣٥، اي بعد ١٨ عاماً من وجود المجمع الذي أرسى مداميكه بونابرت، وقد استمرّت هذه الجمعية حتى سنة ١٨٧٣. لكنها كانت أشبه بدار نشر لطبع الكتب المتعلقة بالمسائل الشرقية، تماماً كما كانت صحيفتا بونابرت مخصصتين للاهتمام بقضايا مصر والشرق.

وفي العام ١٨٧٩ تنادى اهل الفكر في الاسكندرية الى إحياء المجمع العلمي المصري الذي كان قد انشأه القائد الفرنسي العام ١٧٩٨، فبعثوه ثانية تحت اسم «مجلس المعارف المصري»، ثم نُقل الى القاهرة العام ١٨٨٠، حيث لا يزال يقوم بنشاطه حتى يومنا هذا.

٤ - أثر «لوكوريه» و«لاديكاد» في صحافة الشرق ومعارف الغرب.

كانت «الكوريه» و«لاديكاد»، كمنشورتين تظهران دورياً وتتضمنّان خيراً وفائدة وثقافة، وتشكّلان حرفة جديدة ووسيلة جديدة في التعبير والنشر رائدتين للصحافة في العالم العربي،

عموماً وفي مصر ولبنان خصوصاً. ألم يحذو حذوهما محمد علي في إنشاء «الوقائع المصرية» العام ١٨٢٤، وخليل الخوري في تأسيس «حديقة الأخبار» العام ١٨٥٨ في بيروت؟ وقبل ذلك، ألم تصدر «اعمال الجمعية السورية» العام ١٨٤٧، و«مجموع الفوائد» للمرسلين الاميركيين؟ لكن الصحيفتين الفرنسيتين اللتين كان وراءهما بونابرت في مصر ليستا بجريدتين. إن لهما مسحة المجلة من حيث المضمون القائم على الدراسات والأبحاث العلمية والتاريخية. ويمكن، والحالة هذه، مقارنتهما بالمجلات الكبرى التي قامت في الثلث الأخير من القرن الماضي. ففي الصحيفتين مادة التاريخ، كما هي الحال مع «الهلال» ذات الصبغة التاريخية، وفيهما الادب، كما في «الجوائب» و«الجنان»، وفيهما دراسات منهجية كما في «المشرق» و«المقتطف». أما الصبغة العلمية السائدة فيهما فلها نظيرها في «المقتطف» زعيمة المجلات العلمية في القرن الماضي. الّا ان مقالات «المقتطف» العلمية كانت في معظمها معرّبة عن المجلات الانكليزية والفرنسية ومقتبسّة عن اوروبا، بينما كانت منشورات الصحيفتين الفرنسيتين من تأليف علماء وباحثين وحصيلة اختباراتهم وملاحظاتهم ودراساتهم. وهنا تكمن ايضاً ميزة «الكورييه..» و«الاديكاد..» وفرادتهما الصحفية.

من جهة اخرى، وفي المقلب الغربي من العالم، عرفت اوروبا ابتداء من القرن التاسع عشر بل منذ عهد الحملة الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨ـ١٨٠١)، الشيء الكثير عن آثار مصر الفرعونية، بفضل دراسات العلماء الفرنسيين وأبحاث الاختصاصيين الفرنسيين اعضاء المجمع العلمي المصري. وبفضل التصميمات الطوبوغرافية التي وفّرها هؤلاء الاختصاصيون والعلماء بالإضافة الى الابحاث المستفيضة عن تاريخ مصر وعلم الفلك والفنون والكتابات والعادات التي كانت عند المصريين القدماء. وقد راح العلماء والادباء والفنّانون الذين قاموا بهذه الأبحاث ونشروا دراسات وتقارير وشروحاً عنها في «الكورييه دي ليجيبت» و«لاديكاد ايجيبسيين» يعرضون خلاصات أبحاثهم على الملأ تحت رعاية الحكومة الفرنسية، كما تألّفت منهم جمعية خاصة موّلت نشر هذه المعلومات في العالم، فكان ذلك مشروعاً ثقافياً رائداً سرعان ما احتذت به جميع الحكومات الاوروبية.

ولا شك في إن هذه المعلومات فتحت آفاقاً جديدة وقدّمت إضافات قيّمة في حقل معرفة التاريخ المصري بوجه خاص والشرقي القديم (١) بوجه عام.

* * *

(١) انظر كتاب الجنرال كليبر القائد العام للقوات الفرنسية في مصر في الحملة البونابرتية الى مجلس الادارة التنفيذي في فرنسا بشأن انجازات البعثة العلمية في وادي النيل ونشر هذه المعلومات في اوروبا (رقم ٥٤، المصدر السابق، ص٢١١ وما يليها.

DIAPAPER®

D I A B

استيراد وتصدير - ورق وكرتون -

هاتف: ١/٣٩٢٩٢٨ ـ ١/٣٩٢٣٦٧ ـ ١/٣٩٢٣٥٦ تلفكس: ١/٣٩٥١٤٨ تلكس: ٤٠٤١٤ ـ ٤٠١١٥ لوديب

هيتاشي HITACHI

VT-M728E

Compact VTR with Auto Head Cleaning System

مسجل الفيديو المدمج بنظام تنظيف الرؤوس أوتوماتيكيا

● Compact, High-class Design with Flush Front Panel and Insulators ● Easy Operation with Direct-access Buttons ● Automatic Functions ● Digital Auto Tracking ● On-screen Display (OSD) ● Multi-function Remote Controller ● Eight-programme/ One-year Electric Timer ● Simulcast Recording Capability.

● مدمج ذو تصميم رفيع المستوى ولوحة امامية جذّابة وعوازل ● سلاسة التشغيل بازرار تعمل باللّمس ● وظائف أوتوماتيكية ● نظام تتبع رقمي أوتوماتيكي ● وظيفة OSD العرض على شاشة التلفزيون (لعمل العنوان) ● مفتاح تحكم من بعد بوظائف متعددة ● مؤقت كهربائي لثماني برامج / عام كامل ● إمكانية التسجيل من الراديو والتلفزيون بنفس الوقت.

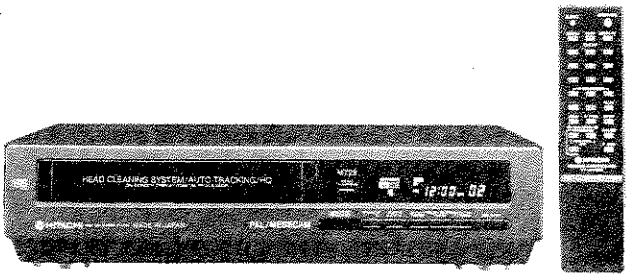

الوكلاء العامون: محلات عبدالرحيم رياب ش.م.ل.

شارع سدام كوريه - تلفون: ٨١١٩٨٠/١/٣/٣ الدكوانه - تلفون: ٤٨٣٢٢٣ - ٤٨٣٥٣٨

كتب

Lieutenant - General
Emmanuel A. ERSKINE

Mission with UNIFIL
An African Soldier's
Reflections

C. Hurst & Co. United Kingdon 215 pages

مهمة مع قوة حفظ السلام

د. ميشال نعمه*

كان الجنرال ارسكين (ERSKINE) مؤلّف هذا الكتاب قائداً للجيش في غانا قبل أن يكلَّف بمهمة رئيس موظفي ومساعد قائد قوة حفظ السلام في القاهرة وسيناء. إن هذه القوة تابعة مباشرة للأمم المتحدة وهي معروفة باسم «يونيفيل» (UNIFIL) . وبعد أن خدم ارسكين مدة سنتين في هذه المهمة، عُيِّن رئيساً لموظفي المنظمة المشرفة على وقف القتال، التابعة للأمم المتحدة والتي تعرف باسم «اونتسو» (UNTSO) ومركزها القدس. هذه المنظمة هي أقدم وحدة سلام تابعة للأمم المتحدة وقد شُكِّلت عام ١٩٤٨.

في العام ١٩٧٨، عين الجنرال ارسكين قائداً لقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام في لبنان التي شُكِّلت في حينه على اثر الغزو الاسرائيلي للبنان، وقد بقي في هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات متتالية، ثم عاد إلى مركزه القديم في «اونتسو» حيث مكث لغاية العام ١٩٨٦.

أما هذا الكتاب فلا يعتمد على أي نظرية في العلوم الانسانية او الاجتماعية أو السياسية، بل هو شرح مفصَّل لمراقب ضمن مهمة معروفة يعرض في شرحه المواقف والأحداث مقرونة بتحليل متواضع وتوقعات بريئة ليس فيها أي غاية ولا أي دعاية سياسية أو غير سياسية. ويقول الكاتب في مستهل كتابه إنه بعد عودته الى غانا العام ١٩٨٦،

* دكتور في العلوم السياسية
استاذ محاضر في الجامعة الأميركية في بيروت

حرص على أن يدوّن كل المعلومات التي يعرفها ليصدر هذا الكتاب خصوصاً وان جميع الكتب المنشورة عن مهمات الأمم المتحدة لم تتطرّق للإنجازات التي حقّقها الغانيّون في مهمات السلام الموكلة اليهم في مناطق النزاع في العالم. قسم ارسكين كتابه الى ٢٤ فصلاً، وقد ارتكز في هذا التوزيع الى عاملين: الاول، التسلسل الزمني، والثاني، عامل الفكرة والحدث.

عبر معظم هذا الكتاب، يقوم الكاتب بعرض التجارب التي مرّ بها في جنوب لبنان، بين المتنازعين في هذه المنطقة من منظمات فلسطينية وحركات مسلّحة يسارية أو دينية متطرفة، بالإضافة الى الجيش الاسرائيلي والجيش اللبناني. ويذكر الكاتب انه استطاع التنبؤ بالغزو الاسرائيلي للبنان العام ١٩٨٠، أي قبل حدوثه بعامين مضيفاً أن هذا الغزو كان معدّاً لأن يحدث في العام١٩٨٠. لكنّ الجهود الخاصة التي قام بها هو شخصياً، بالتعاون مع المسؤولين في الأمم المتحدة، كانت أهم عوامل التأجيل لمدة سنتين.

ويفيد ارسكين بأن مهمة «اليونيفيل» هي من أصعب مهمات حفظ السلام، لأنه لم يكن هناك أي اتفاق واضح وصريح بين الأطراف المتنازعة حول تفاصيل مهمة هذه القوات. كان الفلسطينيون يشدّدون دائماً على أن لهم الحق في دخول مناطق النزاع لأن اتفاقية القاهرة تجيز لهم ذلك، وكان المسلّحون اللبنانيون يطالبون دائماً بحقهم في دخول هذه المناطق بحكم كونهم لبنانيين وكونها أراض لبنانية؛ والاسرائيليون كانوا دائماً يعبرون الى مناطق وجود «اليونيفيل» لأن أمنهم على الحدود مهدّد ولأن الجيش اللبناني غير قادر على ضبط الوضع مما يمنحهم بالتالي حق الدفاع عن أمنهم حسب مسؤوليهم. وكان لا بد من حل هذه المشكلة باتخاذ التدابير التي لا تسمح لأي كان بدخول منطقة عمل القوات الدولية باللباس العسكري وتجريد المنطقة من السلاح، على أن يُسمح فقط للبنانيين المدنيين الذين يحملون بطاقات هوية لبنانية بالدخول الى مناطق وجود «اليونيفيل».

ان انسحاب اسرائيل من منطقة الجنوب اللبناني التي كانت قد احتلّتها في آذار ١٩٧٨، والذي شُكّلت على أثره قوة حفظ السلام هذه لم تحلّ المشكلة، ولو جزئياً، لأن عملية الاخلاء جرت بالتنسيق مع الرائد سعد حداد والرائد سامي شدياق في احتفال ميس الجبل، وتمّ خلال هذا التنسيق تسليم الشريط الحدودي للرائد حداد وجيشه الذي شكّل كياناً مستقلاً رغم ادعائه الولاء للجيش اللبناني.

كانت «اليونيفيل» تتعامل مع الأطراف، حتى ولو لم يكن أحدها معترفاً به من القوى المحلية أو العالمية. أياً تكن هوية الطرف وأياً كان هدفه، فقد كان امتلاكه قوة على الأرض يوجب على «اليونيفيل» التعامل معه بمقتضى ما يسمى التنسيق المسبق لإزالة أسباب

المواجهات المسلّحة قبل حدوثها. وقد كانت هناك الى جانب مهمة «اليونيفيل» الأساسية (منع المواجهات العسكرية) مهمة أخرى هي تسهيل إعادة سلطة الدولة اللبنانية الى منطقة الجنوب. وكانت هذه إحدى أصعب المهمات لأنها تدخل في صلب الأزمة بين الفلسطينيين واسرائيل، والفلسطينيين واللبنانيين، وما يجعل المشكلة أكثر تعقيداً هو أن الفلسطينيين ليسوا فريقاً واحداً انما هم وحدات متعدّدة، لكل منها تنظيمها وقيادتها، وهي تقوم بعملياتها المسلّحة تحت ستار من السرية؛ كما ان اللبنانيين أيضاً ليسوا فريقاً واحداً انما تعدّدت تنظيماتهم وانتماءاتهم العقائدية والسياسية. وبما ان للجميع قواعد عسكرية ومليشيات مسلّحة تمرّ لممارسة نشاطها العسكري عبر الأراضي والمواقع الستراتيجية التي تشرف عليها القوات الدولية فقد أصبحت المساحات التي تفصل بين الأطراف المتقاتلة مليئة بالقنابل العنقودية غير المنفجرة بالاضافة الى الألغام المزروعة عشوائياً، دون أن يملك أحد أي خريطة متكاملة تحدّد أماكن وجود هذه الألغام.

لا يخفى على أحد أن قوة حفظ السلام لا يمكن أن تكون طرفاً منحازاً لأي فريق، وليس من أهدافها الحرب او الصدام المسلّح مع احد.

ورغم أنها غير مجهّزة لتكون قوة صدام عسكري، فإن وحدات «اليونيفيل» قد أظهرت عدة مرات قدرة قتالية فائقة على ردع أحد الأطراف من استغلال مناطق وجودها لأغراضه العسكرية الخاصة. وعلى سبيل المثال، يذكر المؤلّف الصدام مع قوات سعد حداد، في ٦ نيسان ١٩٨٠، على مشارف قرية الطبري حيث قُتل الجندي الايرلندي جون غريفن John Griffin، والقتال على مشارف قرية الناقورة الحدودية في ١٢ نيسان ١٩٨٠.

والجدير بالذكر هو ان «اليونيفيل» ليست فقط قوة مسلّحة مستعدّة للقتال في حال خرق أحد الأطراف شروط وجودها، بل هي أيضاً قوة ذات طابع انساني اضطلعت بمهمات اجتماعية كثيرة، منها تأهيل القرى في الجنوب كي يعود أهاليها اليها، وتسهيل انتقالهم من هذه القرى الى المدن الرئيسية، كما أخذت «اليونيفيل» على عاتقها تنظيف كل منطقة التوتّر في الجنوب من القذائف غير المنفجرة والألغام.

من المتعارف عليه أن قوات حفظ السلام تلتزم دائماً بعدم التدخل في الشؤون السياسية الداخلية للدولة التي تكون على أراضيها. لكن «اليونيفيل»، وفي اطار السعي لتحقيق هدفها الرامي الى مساعدة الدولة على بسط سلطتها، وبالتالي جعل منطقة الجنوب تحت الاشراف التام للجيش اللبناني، كانت تتدخل دائماً لمصلحة هذا الجيش حتى ولو اضطرّها الأمر لاستعمال السلاح.

في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب، يقول المؤلّف إن تقديراته تعطيه الآن صورة أوضح عن الوضع خصوصاً

عندما يربط بين دخول اسرائيل جنوب لبنان، العام ١٩٧٨، ودخول بيرت، العام ١٩٨٢. اذ بالنسبة اليه، كانت اسرائيل خلال الفترة الواقعة بين الحدثين تحضّر للهجوم الكامل بغية القضاء على المنظمات الفلسطينية المسلحة على ضوء الخبرة التي اكتسبتها في اثناء دخولها الجنوب العام ١٩٧٨. ورغم كل الجهود التي بذلتها القوات الدولية لمنع اسرائيل من القيام بالاجتياح، إلاّ أن هناك حدوداً لما تستطيعه هذه القوات. ويؤكّد الكاتب ان عمل «اليونيفيل» لا يمكن أن يكون مثالياً، لأنه ما من نظام أمني في العالم إلاّ وفيه بعض الخلل: حتى الرئيس ريغن أصيب برصاص محاولي اغتياله، كما تمَّ تفجير جزء من الفندق الذي تنزل فيه مارغريت تاتشر. ويخلص أرسكين الى القول إنه رغم كل الفشل الذي واجهته مهمة «اليونيفيل»، فانه لا يرى أي بديل عن وجود هذه الوحدات الدولية في جنوب لبنان.

يجري الكاتب بعض التحليل الاجتماعي في مستهل كتابه. إذ انه يصف العادات والتقاليد لدى بعض الفئات الجنوبية، وبخاصة الشيعية منها، بأنها مغايرة تماماً لعادات وتقاليد سكان الضفة الغربية من الفلسطينيين. وبالتالي، فإنه يلوم الاسرائيليين لضعف تقديرهم في هذا المجال، إذ انهم يعاملون السكان المدنيين في كل مكان وكأنهم شعب واحد، ذو تقاليد وعادات واحدة. ويلقي هذا اللوم بالأخص على الادارة الاسرائيلية العسكرية التي تلجأ دائماً الى حلول عنفية في معاقبة السكان مثل تفجير المنازل والجسور، واقتلاع الزرع، وحرق الإنتاج الزراعي، ونفق الماشية بحيث يصبح المدنيون بين مطرقة الاسرائيلي وسندان المسلّحين.

ويختم ارسكين كتابه بالاشارة الى أن «اليونيفيل» بدأت مؤخراً تستعمل الرأي العام العالمي كأداة ضغط على جميع الأطراف المتنازعة في الجنوب، وبخاصة اسرائيل. ويذكر حادثة قرية شقرا حيث هدّد الكاتبُ الجنرال الاسرائيلي عاموس بارام بفضحه في صحف العالم اذا دخل هو أو أحد جنوده الأراضي التي تشرف عليها قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام. وبالفعل، تحت ضغط كهذا، اضطر الاسرائيليون لاتّباع طريقة أخرى لملاحقة «المخربين» حسب مصطلحهم. وبذلك، تكون «اليونيفيل»، قد حافظت على مهمتها بابقاء الأرض الخاضعة لها محيَّدة ويكون الاسرائيليون قد حقّقوا مأربهم، إنما دون التعرّض لقوات الأمم المتحدة. في الوقت نفسه، يكون ما يُسمّى «بالمخرّبين» قد سجّلوا مكسباً، ولو بسيطاً مادياً، انما له تأثير اعلامي ومعنوي قوي.

* * *

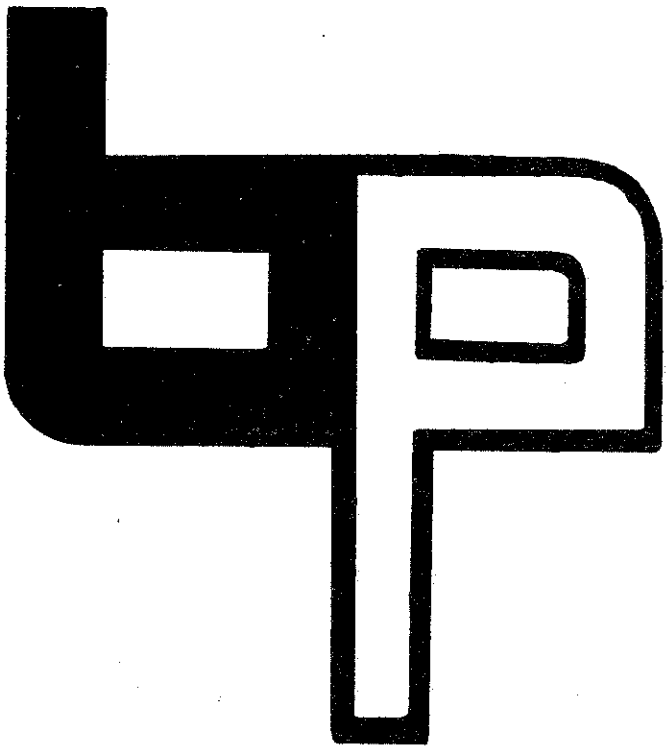

ETS. BABIKIAN AND FILS

Tél.: 482944 — 483587

Telex: 42876 LE BAPLAS

Cable BARAPLAST — BEIRUT

Beyrouth, des antennes devraient être installées à Saïda, Tripoli et Zahlé au moins pour épargner aux handicapés des régions périphériques le déplacement jusqu'à la capitale à chaque fois qu'ils ont besoin d'un conseil ou d'un renseignement.

Conclusion: 1990-2000, Decennie de l'Orientation?

Il n'est plus permis, en cette fin du second millénaire, de laisser notre jeunesse libanaise désarmée devant le choix de son avenir professionnel.

Etant un phénomène social, l'orientation scolaire et professionnelle est une entreprise collective et devrait profiter, de ce fait, des énergies combinées et des contributions de toute la société. Les difficultés rencontrées par les centres privés, tel le CINOPS, en sont la première preuve.

Jeunes, parents, éducateurs, écoles, universités, instituts, salariés et patrons doivent se mettre à l'œuvre le plus vite possible sans plus attendre l'intervention de l'Etat qui, une fois réédifié, pourra démarrer son action de là où seront arrivés ces divers acteurs.

Systématiser l'information dispensée, éduquer au choix, harmoniser les programmes d'études avec les nouvelles exigences du marché de l'emploi, créer de nouvelles spécialités, instituer la formation continue, s'occuper de l'information et de l'orientation des handicapés, voilà les titres des actions prioritaires à entreprendre au seuil du vingt-et-unième siècle au Liban.

* * *

Cette collaboration avec les représentants du monde du travail aura deux autres avantages de taille:

1 - Procurer aux responsables de l'information et de l'orientation des données statistiques, même approximatives, sur les divers secteurs économico-professionnels: le contingentement et la sélection en gagneront énormément en précision.

2 - Créer des programmes de formation continue pour les adultes engagés déjà dans la vie professionnelle mais désirant se recycler en vue d'une promotion ou d'une reconversion.

En vérité, cette proposition de collaboration entre le monde du travail et les institutions académiques a été déjà mise en application par l'Association des Banques du Liban et l'Association des Compagnies d'Assurances au Liban qui, en collaboration avec l'Université Saint-Joseph, ont créé respectivement le Centre d'Etudes Bancaires et le Centre d'Etudes d'Assurances.

Il s'agit maintenant de systématiser cette expérience et de l'étendre à d'autres secteurs pour en faire profiter et les étudiants, et les institutions de formation, et les professions de ces secteurs. N'est-il pas édicté dans la totalité des réglements organiques des syndicats et ordres que l'un des buts de l'association est d'améliorer toujours et plus les conditions générales de la profession à travers, entre autres, la formation?

II - 2 - 4 - L'orientation des handicapés

«Pouvez-vous m'indiquer une école technique qui n'ait pas d'escalier ou dont l'ascenseur est alimenté, en cas de coupure de courant, par un générateur?»

C'était l'animateur d'une association de handicapés qui nous demandait ce renseignement par téléphone. C'est un exemple simple, mais qui en dit long sur le genre d'information demandé par les handicapés et leurs structures d'accueil ou d'association.

Très heureusement, il existe maintenant une Commission de Coordination des Services aux Handicapés, créée à l'instigation de Mgr. Grégoire Haddad. Cette Commission pourrait profiter de nombreuses aides étrangères - par exemple celle du W.R.F. (World Rehabilitation Fund), ou du C.R.C. (Contact and Resource Center), etc. - dans le but de créer un centre d'information et d'orientation scolaires et professionnelles pour les handicapés au Liban.

L'aide demandée ne sera pas que financière; elle devrait être surtout technique. Bien entendu, et ici plus qu'ailleurs, au cas où un centre principal est créé à

b - Constituer des dossiers complets sur les professions et les filières de formation qui pourraient être mis à la disposition d'autres élèves dans une salle d'auto-information.

c - Permettre aux autres élèves de la même classe, travaillant sur une autre famille de professions, de connaître par l'intermidiaire de l'exposé oral fait en classe, d'autres secteurs économico-professionnels.

Le rôle du professeur - ce n'est plus tellement un professeur, mais plutôt un conseiller, un animateur - se réduira à entraîner les élèves à la façon de bien poser les questions relatives aux professions, à repérer les bonnes questions et à aider les élèves, au besoin, à trouver la réponse. Mais tout le travail de recherche et de documentation sera fait par les groupes d'élèves eux-mêmes. «Mon avenir professionnel» supposera des contacts avec les professionnels et les responsables d'institutions de formation et, naturellement, des visites documentaires de ces institutions et des entreprises de travail.

Une excellente pratique consistant à encourager les élèves à travailler pendant les vacances dans les milieux qu'ils aiment ou croient aimer, couronnera cette éducation aux choix et comblera doucement mais certainement cette lacune, tant décriée, entre l'école et le travail.

II - 2 - 3 - Salariés et patrons: acteurs d'orientation

En l'absence de toute initiative étatique, les acteurs sociaux de l'orientation peuvent sensibiliser les syndicats de salariés et le patronat à leurs efforts et projets.

La Confédération Générale des Travailleurs, ainsi que l'Association des Industriels Libanais, l'Association des Banques, etc. sont directement concernées par l'opération d'orientation puisque, finalement, ce sont elles qui vont devoir accueillir les diplômés du système de formation au Liban.

Nous considérons que ces divers corps de métier doivent donner donc la priorité à la formation professionnelle en général, qu'elle soit universitaire ou technique; et ceci à un double niveau au moins:

1 - A travers des réunions avec les responsables des structures de formation - universités, écoles professionnelles, instituts techniques, etc. - en vue de repenser les programmes d'études déjà existants pour les moduler en fonction des besoins du monde du travail et, par conséquent, les rendre plus efficaces.

2 - A la faveur de ces mêmes réunions, proposer la création de nouveaux programmes et de nouvelles spécialités qui seraient indispensables pour le Liban et la région arabe, mais qui ne sont dispensés par aucune institution.

des partenaires de l'opération d'orientation cités plus haut, chargera l'un ou l'autre centre d'information et d'orientation déjà existants, de la conception et de la rédaction de ces feuillets informationnels. Pour l'édition, il faudrait penser à profiter des services d'une agence de publicité qui décidera de la forme, de l'illustration et d'autres éléments graphiques de ces brochures.

Si le coût de l'impression dépasse la capacité des partenaires, l'on pourrait se contenter d'un nombre plus réduit de copies qui seraient distribuées aux écoles et autres institutions, lesquelles les mettraient à la disposition des élèves, des parents et des professeurs dans un petit local aménagé pour la consultation sur place.

II - 2 - 2 - L'éducation au choix

Encore là, les écoles ne sont pas obligées d'attendre une circulaire du Ministère de l'éducation pour procéder aux changements indispensables dans l'emploi du temps hebdomadaire en vue d'apprendre aux élèves les règles d'un choix libre et rationnel, adjuvant nécessaire à la publication déjà recommandée de brochures informationnelles simples. Car il ne suffit pas d'informer - bien que ce soit un grand pas vers la systématisation de l'orientation -, mais il faut aussi éduquer au choix.

L'éducation au choix, ou «nouvelle orientation , intégrée dans une pédagogie de projet, souple mais lucide, se heurtera inéluctablement aux réalités économiques, au chômage. Mais elle pourra donner aux élèves, bien après la dernière classe, les outils pour construire leur avenir» (28).

Sans prétendre vouloir introduire une nouvelle philosophie ou plutôt pratique pédagogique dans un système scolaire désuet et vacillant, nous préconisons l'institution d'un cours, soit hebdomadaire, soit bi-mensuel, en classes de 3ème et de 1ère dans un premier temps, et qu'on baptisera «Mon avenir professionnel», où les élèves, par groupes, et suivant leur centre d'intérêt, feront des recherches, des enquêtes, des visites, des interviews, etc... en vue de constituer un dossier sur la famille de métiers qu'ils auront choisie.

Le profit de cette éducation au choix, et à part son impact pédagogique général sûrement positif - travail de groupe, esprit d'initiative, liberté didactique, etc. - est triple:

a - Motiver l'élève - poursuivre lui-même ses points d'intérêt dans le monde du travail et à se découvrir en se confrontant aux réalités économiques et professionnelles.

---

28) Catherine Arditti et Philippe Bernard, **«L'Orientation, une douloureuse opération»**, in **Le Monde: Dossiers et Documents**, octobre 1985.

1 - la connaissance des filières scolaires et universitaire.

2 - la connaissance des individus.

3 - la connaissance du marché de l'emploi et de ses besoins à plus ou moins longue échéance.

4 - la possibilité de moduler les filières de formation en fonction des besoins et des tendances sosio-économiques du pays.

Concevoir un projet national, donc au niveau de toute la communauté, d'orientation scolaire et professionnelle est digne de toute une administration étatique. Mais nous tenons-nous cois à ce niveau en attendant la réédification politique et le réaménagement administratif de l'Etat au Liban? Que pouvons-nous faire hic et nunc pour aider les jeunes à mieux choisir et planifier leur avenir professionnel en harmonie avec les possibilités du pays et de la région?

II - 2 - 1 - Eclairer l'opinion publique

Partant de l'omniprésence et de l'omnipotence de l'orientation informelle, il serait urgent et payant d'éclairer en éduquant et en informant les divers partenaires de cette orientation en matière d'un bon choix professionnel et scolaire.

Nous concevons cette opération sous la forme d'une vaste campagne de sensibilisation financée par les congrégations religieuses s'occupant d'éducation, le Secrétariat général des écoles catholiques, les syndicats des écoles privées individuelles, les associations et organismes socio-culturels (Fondation Hariri, Béchir Gemayel, Farès, etc.), les comités des parents d'élèves ou leurs fédérations quand elles existent, les amicales des anciens et, pourquoi pas, les universités.

Les mass-média classiques peuvent être utilisés bien sûr: radios, télévision, journaux, revues, etc. Mais d'autres moyens plus spécifiques doivent figurer immanquablement dans la panoplie des moyens envisagés: conférences pour les parents dans les écoles, rencontres avec les élèves, soit en classe soit en grande salle où des élèves de diverses classes seraient réunis, séminaires de formation pour les professeurs, quitte à rassembler les professeurs de plusieurs écoles, etc.

Mais là ne devrait pas s'arrêter l'opération. Des brochures simples et synthétiques doivent être conçues, réalisées et distribuées gratuitement aux élèves, à leurs parents et éducateurs; des brochures sur les niveaux et les filières du système scolaire et universitaire, sur les spécialités académiques, techniques et professionnelles, etc. et divers autres sujets d'un intérêt immédiat sur le plan de l'orientation scolaire et professionnelle.

Qui réalisera ce vaste, mais enfin simple, projet d'information?

La commision chargée de la réalisation du projet, et qui émanera de la réunion

غويس (Guis) وديـ فورست (De Forest)، الى فكتور غيران (Victor Guerin).

ولم تُجْرَ أية حفريات أثرية في لبنان الاّ مع ارنست رينان (Ernest Renan)، وذلك في جبيل والمدن الفينيقية الاخرى، في العـام ١٨٦٠ (٤٧)، اي بعد حفـريات البعثـة العلمية البونابرتية في مصر باثنين وستين عاماً، وبمعاضدة نابوليون الثالث وتكليف منه. لكنها كانت أعمال حفر محدودة جداً وقصيرة الأمد وناقصة، قام بها بضعة أنفار من العمال (٤٨)، بينما قام بالعمل في مصر مع العلماء الفرنسيين افواج من الفَعَلة.

ويجب الاشارة الى ان العلماء استندوا الى المؤرخين والجغرافيين الاقدمين في دراساتهم قبل أن يتحققوا منها في أبحاثهم العلمية ودراساتهم الميدانية، كهيرودوت، مثلاً، ثم رجع العلماء الى القاهرة، على أمل ان يعودوا الى هذه الآثار مرة اخرى، فيقومون بدراسات مستفيضة.

قبل البعثة العلمية البونابرتية لم يستغلّ احد كتابات الرحّالة والجغرافيين والمؤرّخـين القدماء في أبحاث أثرية علمية وميدانية في ربوع الشرق الاوسط، على الأقلّ. وما عثرت عليه البعثة ونشرته في «الكورييه» بعد التمحيص فيه على أيدي اعضاء المجمع العلمي المصري بات مصدراً اساسياً لكل عالم فيما بعد يبغي التنقيب عن هذه الآثار او الإفادة مما أتته البعثة المذكورة.

هذا غيض من فيض مما قدّمته صحافة بونابرت في مصر للنشاط المبذول في اكتشاف الآثار المصرية القديمة ونفض الغبار عنها وابرازها. فالحملة الفرنسية، بمجمعها العلمي وصحيفتيها، كانت الرائدة في استعادة مصر الفرعونية، مصر التي مثّلت دوراً هاماً ورئيسياً في العالم القديم وكان لها مع فينيقيا، او لبنان القديم صلات ملأت أحداثها الصفحات الطوال من التاريخ اللبناني والمصري والاقليمي، يوم كان العالم قائماً على حضـارات حوض البحـر المتوسط وحضارة ما بين النهرين.

٣ ـ محمد علي والصحيفتان الفرنسيتان

كان اتصال الحملة الفرنسية بالشعب المصري اول اتصال اوروبي بمصر واول لقـاء مسيحي ـ اسلامي في وادي النيل بعد الحروب الصليبية.

وغني عن البيان ان هذا الاتصال، خصوصاً عبر الصحيفتين المذكورتين، ترك اثره في نفس محمد علي، اول حاكم أراد الاضطلاع بأعباء الاصلاح في مصر بعد الحملة البونابرتية.

---

(٤٧) انظر: Ernest Renan, Mission, de Phénicie, Paris, Impr. Impériale, A.d.

(٤٨) انظر محاضرتنا التي أُلقيت في قاعة محاضرات انطش جبيل تحت عنوان «مأساة بيبلوس» في ٤ ك١ ١٩٨٧، وهي ما تزال مخطوطة.

فالرسائل المتبادلة بين بونابرت وشريف مكّة في «الكوربيه دي ليجيبت»، مثلاً، بما تدل عليه من احترام وثقة متبادلين واحترام لشعائر، الاسلام شجّعت محمد علي على إكمال رسالة الحملة الاصلاحية في مصر والتوجّه شطر الخبراء الفرنسيين في مختلف العلوم والفنون، وحقول الاصلاح. ولم يلق محمد أية معارضة من رجال الدين المسلمين في النهل من ينبوع المدنية الاوروبية والفرنسية، بالأخص. كذلك، تأثّر محمد علي بمحتوى الصحيفتين الفرنسيتين لما تضمّنتاه من موضوعات في مختلف ميادين العلوم الهندسية والطبيعية والرياضية والفلكية والزراعية والصناعية، ولما كان لهما من تأثير في الاصلاح والتنمية بوادي النيل، فأرسل البعثات المصرية، وقد ضمّت معه ومع أتباعه حوالي الأربعمائة شخص، الى معاهد اوروبا لدراسة الكيمياء والطبيعة والعلوم الرياضية والفلك والزراعة والطباعة، الى جانب الهندسة والطب والفنون الحربية والبحرية وصناعة السفن لإعداد جيش قوي، شبيه بجيوش اوروبة، وبجيش بونابرت على الأخص.

يمكن القول إن عدوى العلوم الاختبارية والطبيعية انتقلت الى محمد علي في رغبته الاصلاحية من «الكوربيه دي ليجيبت» ومن «اللاديكاد ايجيبسيين»، ذلك انهما كانتا اول مطبوعتين، بل اول مظهر كتابي تأليفي يعتمد العلوم الحديثة، بدلاً من علوم النقل والمواد العقلية والغيبيّة والكتبية، في الشرق العربي.

ولمّا كانت هاتان الصحيفتان تصدران بالفرنسية (لم تُنقلا الى العربية إلّا في ١٩٧١)، فقد جعل محمد علي اللغة الفرنسية إلزامية في المدارس المصرية تعميماً لفوائد الثقافة الفرنسية. واقتداءً بما فعله المجمع العلمي المصري، وضع في تصرف الاساتذة والطلاب المصريين مكتبة ضمّت نحو اربعمائة مجلّد من الكتب الاوروبية.

وفي هذا المجال، نشير استطراداً الى أن المجمع العلمي الذي طالما نشرت صحيفتا «الكوربيه» و«لاديكاد» قصة إنشائه ونشاطاته واعمال اعضائه في الديار المصرية، كان قدوة وحافزاً على إنشاء «الجمعية المصرية» التي أسّسها نفر من العلماء الاجانب المقيمين في مصر،العام ١٨٣٥، اي بعد ١٨ عاماً من وجود المجمع الذي أرسى مداميكه بونابرت، وقد استمرّت هذه الجمعية حتى سنة ١٨٧٣. لكنها كانت أشبه بدار نشر لطبع الكتب المتعلقة بالمسائل الشرقية، تماماً كما كانت صحيفتا بونابرت مخصصتين للاهتمام بقضايا مصر والشرق.

وفي العام ١٨٧٩ تنادى اهل الفكر في الاسكندرية الى إحياء المجمع العلمي المصري الذي كان قد انشأه القائد الفرنسي العام ١٧٩٨، فبعثوه ثانية تحت اسم «مجلس المعارف المصري»، ثم نُقل الى القاهرة العام ١٨٨٠، حيث لا يزال يقوم بنشاطه حتى يومنا هذا.

٤ ـ أثر «لوكوربيه» و«لاديكاد» في صحافة الشرق ومعارف الغرب.

كانت «الكوربيه» و«لاديكاد»، كمنشورتين تظهران دورياً وتتضمنّان خيراً وفائدة وثقافة، وتشكّلان حرفة جديدة ووسيلة جديدة في التعبير والنشر رائدتين للصحافة في العالم العربي،

tion du jeune qui suit une filière exigeant le plein temps et l'assiduité. Sa participation aux cours en est affectée, ainsi que son travail personnel: études, lectures, recherches, etc...

Tout ceci est vrai quand le jeune ne pense pas sérieusement à voyager et à quitter pour de bon le pays. Ce désir du voyage, certains jeunes l'ont exprimé clairement, alors que nous l'avons lu en filigrane dans les paroles d'autres. «Faire sa vie ailleurs» était tellement souhaité et désiré que rien de ce que nous racontions au jeune des difficultés d'adaptation et d'intégration ne parvenait à l'en fléchir. «Je suis prêt à tout faire pour voyager»; «J'ai un demi-frère aux Etats-Unis à qui j'ai écrit pour aller chez lui»; «Qu'est-ce qu'il y a au Liban? Rien!»; «Je n'ai plus aucune envie de travailler, d'étudier ou de faire quoi que ce soit ici»; etc...

Naturellement cette volonté de voyager est plus une fuite en avant qu'une solution réelle et courageuse au «problème total» que vivent les jeunes et qui apparaît le plus au moment de choisir sa vie et sa carrière.

Un autre indice de cette fuite, nous pouvons très bien le trouver dans des phrases du genre «Je voudrais faire quelque chose d'original», «Je voudrais devenir quelqu'un d'exceptionnel» quand elles sortent de la bouche de jeunes souffrant de divers handicaps scolaires, socio-économiques et familiaux.

Parmi ces handicaps, nous pouvons réserver une place particulière aux stéréotypes socio-professionnels solidement ancrés dans l'esprit des jeunes. En effet, ceux-ci, autant que la société en général, sont hyper-sensibles à l'échelle sociale des métiers et son cortège de préjugés para-professionnels. Si le rush vers les facultés se trouve tempéré par la crise économique, il n'en reste pas moins problématique. Etre étudiant universitaire est non seulement une identité recherchée pour la promotion sociale, mais aussi-surtout!-, pour beaucoup de jeunes, un statut-refuge dans lequel ils se feutrent pour quelques années, quoiqu'inutiles très souvent, en vue de retarder l'échéance de la confrontation difficile avec le monde du travail.

Quoique des nuances plus ou moins vives commencent à affecter cette relation du jeune au travail, ce qui est dit plus haut reste plutôt vrai car les jeunes qui nous ont consulté étaient négatifs face au conseil de formation polyvalente dont le jeune construit lui-même le plan. Dès qu'il est question de sortir des sentiers de formation battus et des spécialités classiques, le jeune, quoique tenté le temps de l'interview, retombe dans la platitude sous l'influence probablement des pressions de son entourage et... du système.

II - 2 - Pour orienter aujourd'hui au Liban

Les quatres conditions de l'orientation scolaire et professionnelle sont:

ence de certaines formations pourtant nécessaires au pays et à la région du Moyen-Orient, etc.

Les exemples ne manquent pas qui prouvent la désolation des parents et des élèves devant cette panoplie de points faibles et de défauts. Si à cela nous ajoutons l'effet des esprits, oh combien bornés!, de certains éducateurs et responsables, la qualité médiocre de certaines institutions et la capacité d'accueil réduite de quelques structures de formations, le tableau éducatif, plutôt noir, est presque achevé.

Toutes ces faiblesses se traduisent par des avatars divers dans la réalité: l'enseignement technique est devenu le dépotoir de l'enseignement académique, et la section littéraire du secondaire le purgatoire des faibles, non seulement en mathématiques et sciences, mais en tout, littératures et langues comprises; certaines écoles - réputées bonnes - se débarrassent à la fin de chaque année de tous ceux qui échouent dans leur classe, d'où, en conséquence, la naissance d'écoles de recalés, ceux-ci étant obligés de trouver une place ailleurs; un nombre de jeunes, rejetés ou sortant volontairement du système scolaire, se retrouvent sans aucune formation professionnelle à l'entrée du monde du travail, etc.

Est-il nécessaire de rappeler que ce même système éducatif à sa sortie ne prépare aucunement le jeune à affronter avec connaissance et confiance ni le monde de formation ni celui du travail?

Et, pour terminer, nous nous demandons si ce système d'éducation sert réellement encore ses objectifs! Ne va-t-il pas plutôt à leur encontre?

II - 1 - 3 - Jeunes, travail et formation: l'ébauche d'un changement.

Où en sont-ils en ce moment les jeunes face au travail et, corrélativement, à la formation professionnelle?

Désabusés sont les jeunes actuellement. «A quoi sert-il d'étudier quatre à cinq années à l'université si mon diplôme me permet de vivre chichement? Autant travailler tout de suite après le bac et appprendre sur le tas un métier qui rapporte convenablement».

Et de fait, l'année 88-89, a vu baisser substantiellement les candidatures aux concours d'entrée d'un certain nombre de facultés et d'instituts techniques. L'un ou l'autre de ces derniers se sont trouvés dans l'obligation de prendre tous les candidats ou de baisser outre mesure la moyenne de réussite pour remplir leurs salles!

Les effets du marasame économique sans précédent ne s'arrêtent point là. L'obligation de travailler pour gagner sa vie perturbe gravement la qualité de la forma-

le milieu d'origine, l'échelle des valeurs, l'attitude des professeurs, l'attrait variable des professions, la conjoncture économique, etc. exercent une plus forte pression sur l'individu qu'on a coutume de le dire (27).

Le jeune libanais, dans ces conditions, subit l'orientation et ne l'assume guère; le libre choix de l'individu s'exerce rarement et dans des limites très réduites en fait.

Aussi, la réussite de toute politique ou programme d'orientation au Liban devrait-elle s'accommoder de cette réalité et par conséquent récupérer d'une façon ou d'une autre le système d'orientation informelle dans la société.

Etant donné que le processus d'orientation reflète inévitablement la personnalité et la philosophie de son personnel, si cette accommodation dont nous parlons n'est pas faite, nous risquerons, par le double emploi que nous créerons ainsi, d'aggraver la situation du jeune devant son choix scolaire et professionnel au lieu de la clarifier.

Mais il y a plus!

L'intensité des relations sociales au Liban et de la solidarité familiale devrait nous porter à concevoir et à réaliser un système d'orientation bien de chez nous; par conséquent, il ne suffit pas de copier des systèmes d'ailleurs, et plus particulièrement de créer des centres d'information et d'orientation - même gratuits - pour voir les libanais affluer vers de tels centres, ou plus exactement, et au cas où ils afflueraient, de profiter objectivement de ces centres. Nous donnerons plus bas les prémisses nécessaires à la planification de l'orientation au Liban.

II - 1 - 2 - Réalités éducatives et orientation.

Les limites qu'imposent sur l'orientation le système d'éducation et les possibilités de formation sont une donnée de base indéniable et des plus normales. Mais, au Liban, ces limites sont tellement nombreuses et variées qu'elles posent un grave problème à l'orientation du jeune.

C'est déjà un lieu commun de parler de la rigidité du système scolaire libanais, du caractère rudimentaire de son système de sélection, de l'obsolescence de ses méthodes d'enseignement et d'évaluation, de l'ancienneté des programmes d'études, de la rareté des points de passage entre différentes filières de formation, du caractère traditionnel des spécialités techniques et universitaires, de l'inexist-

27) «The informal guidance program is more powerful than the formal program because it is not limited by time or location», Harold W. Bernard & Daniel W. Fullmer, **Principles of Guidance**, 2nd Ed., New York, Thomas Y. Crowell Co., 1977, p. 30.

M.S. n'a rien fait parce qu'elle s'est mariée! I.M. et G.K. ont échoué au bac qu'ils allaient présenter peu après l'entretien, et ont doublé leur classe. L'année suivante, et munis de la seule «attestation de candidature au bac», ils ont manqué - «par négligence» - le concours d'entrée à la Faculté de gestion et de sciences économiques de l'Université Libanaise. N. M. et M. R. n'ont pu se faire à l'ambiance ni au système d'enseignement de la Faculté des sciences de l'Université Libanaise.

En outre, le problème des 18 «NON» se trouve aussi atténué par le fait que sur les 18, 6 devaient revenir pour un nouvel entretien, mais ne l'ont pas fait! Alors qu'il n'y a aucun de ceux qui sont revenus figurant parmi eux (Cf. tab. 13).

Coïncidence \ Second Entretien	Oui	Non	Total
Oui	10	4	14
Non	—	6	6
Total	10	10	20

Tab. 15. Répartition de ceux qui devaient revenir pour un nouvel entretien suivant la «coïncidence»

II - Perspectives d'orientation pour demain

II - 1 - Les leçons de quatre années d'information et d'orientation

Il ne s'agit pas ici de récapituler les quelques enseignements dégagés dans le bilan, mais bien de les compléter par d'autres en vue de pouvoir justifier et fonder les perspectives d'orientation jugées indispensables dans l'avenir.

II - 1 - 1 - Système informel et système formel d'orientation

Et pour commencer, il faudrait détruire un préjugé largement partagé. L'orientation n'est pas absente au Liban; si elle n'a pas de forme clairement déterminée, si elle n'est pas structurée, elle n'en est pas pour autant inexistante.

L'orientation scolaire et professionnelle est au Liban informelle, sociale si l'on peut dire. Bien évidemment, la structure de l'enseignement et son itinéraire, imposés aux élèves et qui sur - déterminent l'orientation et la sur - formalisent, ne relèvent pas de l'orientation.

Si le rôle des parents et des amis dans le processus d'orientation d'une personne a été déjà tiré au clair, le rôle plus général et, en tout cas, moins évident et moins perceptible, de la culture et des réalités sociales est aussi à prendre en considération:

Le contrôle s'est fait selon deux catégories seulement:

1 - Le consultant fait (novembre 1988) ce qu'il a été convenu de faire, ou à défaut - c'est-à-dire quand l'entretien n'a pas abouti à sa conclusion normale, un conseil clairement formulé - suit l'une des voies qui ont été considérées et discutées dans l'entretien: c'est ce qui est désigné par «coïncidence».

2 - Le consultant ne fait pas maintenant ce qu'il a été conseillé de faire, ou ne suit aucune des voies envisagées possibles ensemble: C'est la «non-coïncidence».

Une troisième catégorie regroupe tous ceux qui n'ont pas pu être atteints pour changement d'adresse ou dont nous avons omis de prendre les coordonnées: c'est la catégorie «inconnu».

Ajoutons que le contrôle effectué ici porte sur des cas qui s'échelonnent de février 85 à novembre 88. Donc ils sont d'ancienneté plus ou moins grande. Tous les contacts de contrôle ont été faits en novembre 88 par téléphone, soit avec l'orienté lui-même, soit avec l'un des membres de sa famille, un parent ou ami qui est au courant de ce que fait l'orienté actuellement.

Coincidence	Oui	Non	Inconnu	Total
Effectif	41	18	12	71

Tab. 14. Répartition des orientés selon la coïncidence de ce qu'ils font en novembre 1988 avec le résultat de l'entretien

Si l'on peut se féliciter pour les 41 «OUI», les 18 «NON» semblent par contre poser un problème a priori.

Cependant, ce problème se trouve considérablement atténué quand on laisse certains de ceux qui n'ont pas suivi le conseil donné s'expliquer:

I.C.: «J'ai opté pour le «journalisme» parce que j'ai finalement trouvé son programme d'études plus consistant que celui des «relations publiques» (c'était la discipline retenue à la fin de l'entretien). Après tout, les deux commencent par un tronc d'études commun de deux ans et c'est grâce à vous de toute façon que je suis à la Faculté d'information et de documentation (celle-ci regroupe les deux disciplines en fait)».

A.Z.: «N'ayant pas pu voyager en France pour préparer mon D.U.T (Diplôme universitaire de technologie) de mécanique, j'ai fait un D.U.T d'informatique à l'I.U.T (Institut universitaire de technologie) de l'USJ. En tout cas, je puis vous affirmer que l'entrevue était très bénéfique et m'a aidé à mieux me connaître».

L'éveil du sens artistique du jeune libanais, déjà remarqué au niveau des candidatures aux sections «arts décoratifs», «art dramatique» et «peinture» à l'Institut des Beaux-Arts de l'Université Libanaise, se trouve ici confirmé (26).

Le droit est encore haut classé relativement à ses débouchés presque inexistants; alors que la place du commerce étonne, économiste, sociologue et psychologue étant d'accord à le considérer une activité millénaire, sinon congénitale libanaise; sauf si les «futurs commerçants» sont dilués dans toutes les autres formations!

Le tourisme est bien à la place qu'il mérite par les temps qui courent.

Le social et l'assurance devraient obtenir de meilleures notes au classement prochain.

I - 3 - 5 - Le Contrôle de l'orientation

Le contrôle en orientation est indispensable pour tirer les leçons au niveau de l'appréciation du rendement de l'opération auprès de ceux qui en ont bénéficié. Mais là un ensemble de problèmes se posent qui sont de nature à compliquer ce contrôle et à le rendre assez délicat à effectuer. Et tout d'abord, jusqu'où est arrivé le processus d'orientation d'une personne: l'entretien a-t-il débouché sur un conseil clair et bien défini, ou bien en est-il resté au stade de l'investigation? Et si le conseil a été formulé mais l'intéressé ne l'a pas suivi, ceci veut-il dire que le conseiller d'orientation a échoué dans sa mission? Il faut tout de suite noter qu'il se peut que de nouveaux facteurs, survenus dans la vie du conseillé, l'aient porté à changer de cap et du fait même à s'éloigner du conseil pris.

En second lieu, si l'intéressé échoue dans l'option considérée, est-ce le critère de l'échec du conseil et de sa vanité? A quel moment faut-il procéder au contrôle? Six mois? un an? deux ans, voire plus après l'entretien et le conseil?

Et quand aucune des options considérées n'est pas suivie, pourrait-on estimer qu'après tout ce que fait l'orienté réellement est déterminé ipso facto par ce qui a été dit, évoqué et analysé dans l'entretien?

Bref, ces interrogations et bien d'autres rendent le contrôle en orientation assez épineux et peut-être aléatoire. Il n'en reste pas moins, ces limites étant tracées, qu'il s'impose à une nouvelle expérience pour prendre du recul et pouvoir apprécier le chemin parcouru.

Mais avant de communiquer les résultats, éclaircissons le choix des catégories utilisées dans la mesure.

26) Constatation faite par nous, étant professeur depuis 7 ans à l'Institut.

Les métiers ou formations qui ont obtenu le plus de «voix» sont les suivants:

Médecine	13
Informatique	12
Electricité-électronique	11
Architecture; Droit; Mécanique	8
Officier militaire; Gestion; Médecine dentaire; Pilote	7
Agriculture; Interprétariat-traduction; Stylisme - modélisme	6

Ce classement est acceptable dans l'ensemble si l'on prend en considération les besoins du marché de l'emploi. Cependant, la médecine, qui a perdu déjà beaucoup de son halo, reste «surclassée»; il en va de même pour l'architecture, le droit et le métier de pilote. Le stylisme-modélisme subit, quant à lui, les effets de la mode... qui prévaut parmi les jeunes depuis 1985, à tel point qu'il est utilisé comme spécialité-appât par la publicité des écoles techniques.

71 consultants ont cité 60 formations et professions. Et dire que les jeunes manque d'imagination et sont obnubilés par le trio médecine, droit et génie!

Comme il n'y a pas lieu de citer toutes les soixante ici, nous les avons groupées en 18 familles. Le chiffre qui figure en face de chaque famille représente le nombre total de choix qui ont porté sur l'un ou l'autre des métiers ou formations de cette famille:

Sciences et techniques	34
Santé	34
Beaux-Arts et arts appliqués	30
Communication et information	15
Lettres, sciences humaines et enseignement	14
Bâtiment et construction	13
Informatique	12
Transports	11
Gestion des entreprises	8
Droit	8
Carrière militaire	7
Agriculture	6
Social	5
Commerce	4
Tourisme	2
Recherche	2
Banque et assurance	2
Sacerdoce	1
Total	208

une classe dans une spécialité qu'il changera par la suite; le doublement d'une classe n'est pas considéré automatiquement donc comme une année perdue.

Nombre d'années déjà ratées	0	1	2	3 +	Total
Effectif	51	10	8	2	71

Tab. 13. Répartition des conseillés suivant le nombre d'années ratées

Regardons la moitié vide de la bouteille et faisons notre compte: $(1 \times 10) + (2 \times 8) + (3 \times 2) = 32$... années perdues! Et ceci sans compter systématiquement les retards scolaires d'origines diverses. Au niveau de la nation, la note serait lourde si l'addition est possible.

Quantitativement donc, l'orientation scolaire et professionnelle est plus que justifiée; économiquement, et quel que puisse être son coût, elle est une opération gagnante et pour l'individu et pour la collectivité.

Les spécialités qui l'attirent le plus: la médecine, l'informatique et l'électronique

Ayant le droit d'exprimer autant de choix qu'il leur semble bon, les 71 jeunes en ont exprimé 208 - soit, en moyenne, 3 par personne - qui ont porté sur 60 métiers et formations.

Evidemment, la moyenne trois n'a de valeur que statistique, car le nombre de spécialités envisagées variait de 1 à 8 selon les jeunes. En voilà quelques spécimens:

C.K.: assistante sociale; reporter-journaliste-photographe; infirmière anesthésiste; critique d'art.

M.R.: droit; médecine dentaire; peinture; lettres anglaises; sociologie.

J.D.: traduction-interprétariat; informatique; décoration.

Le moins qu'on puisse dire est que, assez souvent, le jeune libanais manque de logique dans ses choix (25); ceci est dû à sa triple ignorance: ignorance de soi - ses capacités réelles, ses désirs et penchants, sa personnalité, etc. -; ignorance des formations et de leurs exigences académiques, financières et autres; et enfin ignorance des métiers et de leurs milieux. En effet, et très souvent, il suffisait de quelques précisions au jeune pour qu'il procède de lui-même au rejet de l'une ou l'autre des filières envisagées auxquelles il tenait tellement quelques minutes auparavant.

25) Georges Théodory, op. cit..

Résultat très compréhensible selon la logique socio-économico-éducationnelle libanaise. Certains y ajouteraient la logique politico-confessionnelle. Soit.

Sa classe: Bac, section sciences expérimentales

Classe	Avant 1ère		Première		Bac				Bac + 1	Bac + 2	Bac +3	Total
	Proffessionnel	Académique	Scientifique	Littéraire	Mathelem	Sciences ex.	Philo.	Technique				
Effectif	2	6	6	2	11	19	9	1	12	2	1	71
Total	8		8		40				15			71

Tab. 11. Répartition des conseillés suivant la dernière classe suivie

16 élèves en classe de 1ère et avant, c'est après tout un heureux présage et un bon début. Par contre, 15 venant s'orienter - ou plutôt se réorienter - après 1, 2 ou 3 années d'études après le bac, c'est catastrophique eu égard au total.

Qu'avaient-ils fait ces 15 avant de venir au CINOPS?

Les 12 du «bac + 1»: 5 biologie, 2 sociologie, 2 mathématiques, 1 physique, 1 informatique et 1 droit.

Les 2 du «bac + 2»: 1 physique, 1 médecine. Et un seul avait fait 3 ans de décoration.

A-t-il déjà exercé une activité professionnelle? Non!

Exercice d'une activité professionnelle	Oui	Non	Total
Effectif	21	50	71

Tab. 12. Répartition des conseillés suivant l'exercice ou non d'une activité professionnelle préalablement à l'entretien.

La situation économique aurait déjà, très probablement, atténué l'écart entre les «OUI» et les «NON».

Nombre d'années déjà ratées: 0

Remarque: une année ratée est une année où l'élève ne fait rien, ou bien suit

Les demandeurs de conseil tardent à s'orienter professionnellement puisque la majorité a 18 ans et plus. Le retard scolaire y est certainement pour quelque chose.

Son sexe: C'est un homme

Sexe	Masculin	Féminin	Total
Effectif	51	20	71

Tab. 8. Répartition des conseillés selon le sexe

Le stéréotype de la «femme au foyer et l'homme au travail» est décidément toujours opérant; et partant «n'importe quelle licence de culture générale» pour la jeune fille, avec un plus peut-être pour la psychologie en vue de «bien élever les enfants» et la sociologie «utile pour bien gérer sa vie mondaine».

Profession du Père: Plutôt artisan, petit commerçant ou exploitant agricole.

	(1)	(2)	(3)	(4)	(5)	(6)	(7)	(8)	
Familles Professionnelles	Professions Libérales	Industriels et gros commerçants	Cadres sup. et hauts fonctionnaires	Artisans, commerçants et exploitants agricoles	Fonctionnaires employés et cadres moyens	Retraites	Chômeurs	Décédés	Total
Ef.	9	7	10	22	13	4	3	3	71

Tab. 9. Répartition des conseillés selon la profession du père

En fait, toutes les catégories de professions sont bien représentées. Totalisant 26, les enfants des trois premières catégories ne semblent pas beaucoup mieux servis dans leur famille en matière d'orientation que ceux des deux catégories 4 et 5.

Son école: Privée

Ecole	Privée	Publique	Total
Effectif	54	17	71

Tab. 10. Répartition des conseillés selon le secteur de la dernière école fréquentée.

Nombre d'entrevues	1	2	3	Total
Effectif	55	11	5	71

Tab. 5. (23) Répartition des bénéficiaires selon le nombre d'entretiens

Ce laps de temps exigé entre la première et la deuxième entrevues est nécessaire pour permettre la décantation des idées et des vues échangées durant le premier entretien et leur discussion avec les parents et autres personnes au gré du consultant.

Pour des raisons assez évidentes il est préférable, quand ceci est possible, que le premier entretien se fasse sans les parents, quitte à les inviter à prendre part au deuxième entretien s'il a lieu. Cette option est bien reflétée par le tab. 6. qui montre aussi l'égalité de l'effectif des jeunes accompagnés par un ami -13 - et de celui des jeunes accompagnés par l'un ou l'autre de leurs deux parents ou les deux ensemble – 5 + 6 + 2 –.

Personnes Accompagnantes	Père	Mère	Les 2 Parents	Frère, Sœur ou un parent	Ami	Aucune	Total
Effectif	5	6	2	4	13	41	71

Tab. 6. Répartition des consultants suivant les personnes qui les ont accompagnés.

«La contamination professionnelle par les amis», comme l'a si bien appelée Père René Chamussy (24), se trouve ici statistiquement illustrée.

1 - 3 - 4 - Portrait-robot du demandeur de conseil

Son âge: Entre 18 et 20 ans

Age	–16	16	17	18	19	20	21	22	23+	Total
Effectif	2	2	10	16	12	17	5	3	4	71

Tab. 7. Répartition des conseillés suivant l'âge.

23) Outre sa valeur statistique, ce tableau est un indice de la qualité du travail: «Un bon conseiller est celui qui peut être sollicité au moins deux fois par la même personne», J. Drévillon, op. cit., P. 95.

24) Cf. le quotidien **Al-Anwar**, Beyrouth, 6/4/1980. Père Chamussy était le responsable du «Bureau d'accueil et d'orientation de l'USJ (Université Saint-Joseph), Beyrouth.

sionnelle individuelle et est même exclusivement utilisées parfois dans les pays qui ont pourtant développé un système de batteries de tests complet et... complexe (21).

L'entretien semi-directif que nous pratiquons et le fonds documentaire unique dont dispose le CINOPS sur les formations, les métiers et le marché du travail, respectent deux mots d'ordre fondamentaux dans la relation d'aide ici considérée, vu surtout les conditions objectives de son déroulement et sa ponctualité: disponibilité et vérité (22).

Partant de toutes ces données, la durée relativement longue de l'entretien devient plausible (Tab. 4.)

Durée	− 1h	1h − 2h	+ 2h − 3h	+ 3h	Total
Nombre	4	45	20	2	71

Tab. 4. Répartition des bénéficiaires selon la durée de l'entretien.

S'il est vrai que l'entretien bien mené fournit une mine d'informations, il faut bien lui allouer le temps nécessaire pour pouvoir collecter les renseignements pertinents sur l'individu, sa famille, sa scolarité, ses désirs, ses aptitudes, ses hobbies, etc. et enregistrer ses réactions spontanées, ses mécanismes de défenses, ses stéréotypes, etc

Ainsi, était-il impossible de se confier à la durée normale et idéaltypique d'une heure d'entretien. Notre moyenne se situe plutôt autour de 2 heures qui étaient souvent dépassées, surtout au début. Il convient de remarquer enfin que les intéressés supportent facilement les deux heures et plus d'entretien, probablement à cause du réconfort qu'ils y trouvent et grâce à l'ambiance très relax dans laquelle l'entrevue se déroule.

Toutefois, et toujours partant des conditions générales de l'opération, auxquelles il faudrait ajouter la délicatesse et la complexité intrinsèques de l'orientation, il est fréquent de demander à certains consultants de revenir - en général, 2 à 3 semaines plus tard - pour un nouvel entretien. Il arrive que le jeune lui-même le sollicite.

21) **«Des conseillers non-testeurs»**, in **Avenirs**, Paris, ONISEP, N° 331/332, février-mars 1982, p. 37.
22) En tout état de cause, et pour une appréciation de notre travail, cf. plus bas «I - 3 - 5 - Le contrôle de l'orientation».

de tout dossier sur sa scolarité, sa personnalité, ses capacités ou aptitudes intellectuelles et psychologiques, tout simplement parce que très rares - sinon inexistantes - sont les écoles au Liban qui procèdent systématiquement à l'établissement d'un tel dossier comme il se fait en France ou ailleurs dans les pays développés. Tout au plus, il pourrait fournir son dernier et avant dernier relevés de notes.

D'autre part, et si des tests psychologiques divers, construits en Occident, sont déjà unanimement utilisés par les quelques psychologues cliniciens libanais - après les avoir plus ou moins standardisés - il n'en est pas ainsi des tests d'orientation professionnelle stricto sensu (18). Et bien que les tests psychologiques soient utiles et indispensables pour la connaissance de l'individu et son orientation scolaire, ils ne sont d'aucun intérêt scientifique pour son orientation professionnelle; car pour qu'il soit utilisable à des fins de pronostic d'orientation, le test doit:

1 - «Pouvoir nous donner sur l'individu des renseignements suffisamment stables pour servir de base à un certain pronostic;

2 - «Se révéler un moyen valable de nous renseigner **sur les groupes vers lesquels nous orientons nos sujets** (C'est l'auteur qui souligne);

3 - «Etre adaptés au milieu dans lequel on travaille» (19).

Et l'auteur qui rapporte ces trois conditions solidaires d'enchaîner: «C'est seulement lorsque les tests ont révélé qu'ils pouvaient apporter une information suffisante sur les caractéristiques des milieux d'accueil, c'est seulement lorsqu'ils ont été choisis en fonction de leur validité, de leur fidélité, de leur adaptation au milieu d'étude qu'ils peuvent être utilisés à des fins de pronostic donc d'orientation» (20).

Dans l'état actuel des choses en matière d'orientation au Liban, l'entretien s'avère être la technique la seule disponible et honnête, la plus fiable et efficace. En tout cas, et sans vouloir entrer plus dans des considérations méthodologiques et épistémologiques, l'entretien est la technique par excellence de l'orientation profes-

---

18) Georges Théodory, alors professeur au Département des sciences de l'étucation de l'A.U.B (American University of Beirut), tentait en 1983 de construire un test d'orientation professionnelle libanais, à la manière des tests américains tels le SVIB - SCII (Strong-Campbell Interest Inventory) et «The Self Directed Search» de J. Holland.
Le SIM (Sondage des Intérêts et Motivations), qui consiste à noter sur 10 douze activités et douze raisons portant à les exercer, et qui est utilisé par Antoine Sarkis à L'Ecole N.-D. de Louaïzé, est très élémentaire et n'a aucun intérêt ou avantage particulier dans un entretien individuel. D'ailleurs, il a besoin d'être libanisé et non seulement traduit en arabe comme l'a fait A. Sarkis.
Notre ami Nabil Kanbar, dont nous avons suivi avec profit, en 85-86, les cours de «Psychométrie» et d'«Etude de la personnalité par les techniques projectives» à l'Université Saint-Esprit-Kaslik, nous a affirmé qu'il possédait un test libanais d'orientation.

19) Maurice Reuchlin, cité in Jean Drévillon, **L'Orientation scolaire et professionnelle,** Paris, P.U.F / Coll. SUP, 1970, p. 81.

20) Ik., Loc. cit.

Par contre, les 76 cas d'orientation sont riches en enseignements; ils seront ici analysés avant de clôturer le bilan de l'expérience du CINOPS

I - 3 - 1 - L'échantillon

Ce sont 71 cas qui seront considérés et non 76 parce que deux d'entre eux se sont avérés être des cas de psychose (17) et trois autres ne coïncidaient pas avec les grilles de dépouillement que nous avions établies pour cette analyse.

I - 3 - 2 - Les grilles de dépouillement

Ces grilles sont des tableaux simples à une entrée qui ventilent les 71 cas selon l'âge, le sexe, la dernière classe suivie, le secteur du dernier établissement scolaire fréquenté, le métier du père, le nombre d'années ratées avant l'entretien, la (les) spécialité(s) envisagée(s) par le jeune, l'exercice ou non par le jeune d'une activité professionnelle, la durée de l'entretien, le fait d'être venu accompagné - et par qui? - ou non.

I - 3 - 3 - La source des informations: l'entretien d'orientation

Toute l'information traitée est puisée dans les comptes rendus d'entretiens avec les jeunes venus au CINOPS pour un conseil d'orientation. Dans le cas où le jeune est venu plus d'une fois, et s'il y a eu un changement dans certaines données - l'âge, la durée du deuxième entretien, l'accompagnement (la première fois seul, la deuxième accompagné) etc. -, ce sont les données de la première entrevue qui ont été seules dépouillées.

L'entretien est la seule technique utilisée par nous pour le conseil d'orientation. Notre souci, dès le départ, était d'aider les jeunes libanais, de la fin du cycle secondaire surtout, à faire un choix professionnel moins arbitraire, plus mûr, plus raisonné et basé sur une information objective et exacte. Choqué par le nombre de jeunes qui perdent une, deux, voire parfois trois années de leur vie à chercher leur voie et à faire le tour des facultés ou des instituts techniques, nous avons décidé de faire quelque chose et vite pour amortir les effets de cette catastrophe nationale.

Dès le départ, nous nous sommes heurté à une série de problèmes relatifs à l'opération d'orientation et nous étions - et nous le restons en fait - tout à fait conscient des limites et du caractère élémentaire, de notre action.

En effet, le jeune qui se présente pour un conseil d'orientation, arrive démuni

17) Nous avons personnellement accompagné W.K. - l'un des deux jeunes - chez le psychiatre qui n'a pas tardé à diagnostiquer un délire schizoïde. Le jeune est toujours sous traitement. Par contre, les parents de D.H. ont refusé notre conseil de soumettre leur enfant à un spécialiste; après 18 mois maintenant, D.H. ne fait toujours rien.

des parents de 4 écoles privées importantes: deux à travers un de leurs membres, et deux autres à travers une réunion régulière du Comité à laquelle nous avons pris part personnellement pour exposer notre projet. Aucune suite à ces contacts! L'information aurait-elle été refusée par les parents à cause de leur méfiance évoquée plus haut à l'égard de l'orientation?

En ce qui concerne les rencontres avec les élèves réellement faites, la moitié a eu lieu en mai: à l'instar des jeunes, les écoles programment mal l'information qui devrait être dispensée bien plus tôt.

Bien que les rencontres soient également réparties entre les écoles privées et les écoles officielles, les écoles privées (11 écoles) ont en vérité fait preuve de plus d'initiative à ce niveau parce que seulement 3 écoles officielles ont financé elles-mêmes les rencontres, les autres ayant reçu les leurs en cadeau de l'O.N.E., comme il a été signalé plus haut.

Dans le même train d'idées, les écoles privées catholiques (8 écoles) seraient-elles plus «sensibles» et «actives» que les écoles privées individuelles (3 écoles)?

Une seule rencontre a été organisée à l'invitation d'un club social;elle était suffisante pour encourager le CINOPS à concevoir un projet similaire à celui des écoles, mais modulé selon les besoins et capacités des associations, clubs, amicales... de jeunes. Ce projet, qui a été distribué à une dizaine d'organisations pendant le premier mois des vacances d'été de 1986, a également échoué (16)...

Enfin, et pour terminer, 3 seulement des 51 rencontres furent avec la classe de 3ème, pourtant classe-charnière dans notre système scolaire, et une seule avec la 2nde, alors que toutes les autres, soit 47, étaient avec la 1ère et surtout la terminale.

I - 3 - 71 cas d'orientation

Au niveau de l'information demandée par les 34 bénéficiaires des services d'information (voir tab. 1), rien de véritablement particulier à signaler; à titre d'exemples: les diverses spécialités de l'ESIB (Ecole supérieure d'ingénieurs de Beyrouth); les facultés et écoles des soins infirmiers; l'informatique: ses professions, son marché, ses filières; conditions d'entrée à Ecole militaire; devenir ingénieur en France après un BT2 libanais; etc...

16) Bien que non directement contactée, mais encouragée par le succès des 4 rencontres offertes à l'Ecole par l'O.N.E en 85-86, l'Amicale des anciens de l'Ecole secondaire officielle de Ghazir nous invite à 3 rencontres - financées par elle - avec les élèves secondaires en 86-87.

N'ayant pas présenté de projet en 87-88, 2 écoles privées nous invitent à rencontrer leurs élèves: 3 rencontres y ont eu lieu.

Décidément les écoles font la sourde oreille (12)!

Cette désaffection, imprévue, troublante et croissante en plus, de la part des directeurs et autres responsables scolaires, est-elle symptomatique de l'état d'abattement général que vit de plus en plus intensément la société libanaise depuis surtout quelques trois à quatre années maintenant? Parce qu'ici il est difficile vraiment d'incriminer directement la crise économique, étant donné les possibilités financières des écoles face au coût de l'opération qui leur est proposée.

Ou bien, et c'est navrant, les écoles considèreraient l'information et l'orientation scolaires et professionnelles débordant le cercle de leurs responsabilités pédagogiques et, de ce fait, en jetteraient la responsabilité sur d'autres: l'Etat, les parents et les jeunes eux-mêmes (13)!?

Malheureusement, l'Etat au Liban semble sombrer de plus en plus dans une léthargie administrative sépulcrale et ne semble pas près de bouger (14). Après l'heureuse expérience avec l'O.N.E, le CINOPS a eu droit à deux autres moins heureuses avec deux administrations différentes: le Bureau de recherches pédagogiques du Centre de recherches et de développement pédagogiques et la Direction générale de l'enseignement technique et professionnel qui, en 1987, lui ont demandé d'établir le plan et le coût de deux brochures informationnelles à l'intention des élèves (15). Ni l'un ni l'autre n'ont donné suite à ses propositions.

Les parents, de leur côté, ne font pas montre d'un zèle plus grand en matière de simple information. En effet, le CINOPS a contacté officiellement le Comité

12) Le Bureau pédagogique des Saints-Cœurs a adopté le projet de 85-86 et l'a proposé aux écoles de la Congrégation dans son «Bulletin Pédagogique», N° 2, janvier 1986, pp. 47-48, et est allé jusqu'à insérer un coupon-réponse très simple à remplir pour faciliter la tâche aux écoles et les encourager du fait même à «s'abonner» au cycle de rencontres proposé. Nombre de coupons retournés? «O» (zéro)!

13) Pour être juste, certaines écoles, telles Mont La Salle et N.-D. de Louaïzé, ont leur propre centre d'information et d'orientation; et certaines autres, parfois grâce au dynamisme du Comité des anciens de l'école, organisent quelques causeries avec des professionnels.

14) Trois administrations publiques ont été chargées par le législateur des services d'information et d'orientation scolaires et professionnelles: la Direction générale de l'enseignement technique et professionnel du Ministère de l'éducation nationale et des Beaux-Arts, le Centre de recherches et de développement pédagogiques - légalement sous la tutelle dudit Ministère aussi-et l'O.N.E qui, lui, relève du Ministère du travail. Pour une vue d'ensemble et une analyse de leurs missions respectives, cf. Elias N. Mattar, **«L'orientation professionnelle au Liban: service superflu ou nécessité nationale?»**, in **Berytis Nutrix Legum**, Organe de l'Amicale des diplômés de la Faculté de droit et des sciences administratives et politiques de l'Université Libanaise - section II -, Jalledib 4ème année N°5, 1986, pp. 47-53.

15) Le Bureau voulait un brochure intitulée: «Que faire après le brevet?», et la Direction: «Guide des instituts techniques officiels au Liban».

cablement établi que les élèves libanais manquent terriblement d'informations sur les filières de formation, les diplômes, les programmes, les métiers, le marché de l'emploi, etc.; et les responsables pédagogiques sont les premiers à le savoir, qui sont en contact permanent avec les élèves, leurs parents et leurs professeurs (7)

Fort de cette situation, le CINOPS élabore en janvier 1986 un premier projet d'information collective dans les écoles (8). A la faveur de ce projet, qui a été distribué aux responsables de près de 80 écoles dans la «région est», 36 rencontres d'information collectives ont eu lieu avec les élèves: 14 rencontres dans 7 écoles privées, et 22 dans 6 écoles officielles (9).

En novembre 1986 le CINOPS lance un deuxième projet à l'intention des écoles, plus ambitieux encore puisqu'en plus des rencontres avec les élèves, un séminaire pour les professeurs, une rencontre avec les parents et une permanence à l'école même sont proposés (10).

Résultat? 8 rencontres, avec les élèves uniquement, dans 5 écoles privées, et 3 dans 1 seule école officielle (11).

---

7) Considérez seulement ce tableau, résultat d'une enquête faite en 1987 auprès de 174 élèves secondaires de l'Ecole secondaire officielle de Ghazir:

QUESTIONS	OUI	NON	SANS REPONSE
Poursuivrez-vous des études universitaires?	94%	4%	2%
Vous êtes-vous informé sur la spécialité choisie?	31%	63%	6%
Connaissez-vous les besoins du marché du travail dans la spécialité choisie?	22%	76%	2%
Vous êtes-vous informé sur d'autres spécialités?	21%	77%	2%
Aimeriez-vous obtenir des renseignements sur toutes les spécialités et les besoins du marché du travail?	83%	14%	3%
Souhaiteriez-vous l'organisation régulière de conférences d'orientation?	95%	3%	2%

Cf. Elias Nassib Mattar, «Orientation professionnelle dans une école officielle», in le quotidien **Al-Nahar**, 24/1/1987.

8) Le projet consistait en 9 rencontres qui couvrent tous les secteurs économico-professionnels. Le plan-type des rencontres était comme suit:
   a - Présentation des divers métiers et des aptitudes indispensables à leur exercice.
   b - Présentation des filières de formation et des conditions générales relatives aux études.
   c - Présentation du secteur économico-professionnel: situation actuelles et perspectives d'avenir.
   d - Débat sous forme de question-réponse.

9) 20 des rencontres dans les écoles officielles ont été financées par l'O.N.E qui adopta le projet à la suite d'une démarche personnelle auprès de son Directeur Général, sinon elles n'auraient pas eu lieu!

10) Ce projet a été distribué à plus de 90 écoles de la «région est»: en plus des 80 écoles contactées en 85-86, 12 écoles arméniennes l'ont reçu en 86-87.
   A l'occasion de ce deuxième projet, une centaine de diapositives pour animer les rencontres et 3 feuillets informationnels à distribuer aux élèves ont été réalisés. Les titres de ces feuillets sont: «Que faire après le brevet?»; «Les sciences humaines et les sciences exactes»; «Les professions médicales et para-médicales».

11) Devant les restrictions budgétaires gouvernementales, et par conséquent, l'incapacité de l'O.N.E. et des écoles officielles de financer le projet, le CINOPS a présenté en 86-87 une proposition dans ce sens à l'Ex-Ministre, Mr. Georges Frem, en sa qualité de Président du «Comité des amis de l'école officielle». La proposition n'a pas abouti et les «Amis» n'ont pas bougé!

JUL.		AOUT		SEP.		OCT.		NOV.		DEC.		TOTAL
O	I	O	I	O	I	O	I	O	I	O	I	
4	2	1	1	17	2	4	9					49
4		5	1	2	3	3		2	2	1		38
2		1	1	2		1				1		17
		1			1			1				6
10	2	8	3	21	6	8	9	3	2	2		110
12		11		27		17		5		2		110

Tab. 2. Répartition des bénéficiaires suivant l'année, le mois et le service reçu

N.B. O = Orientation; I = Information

I - 2 - Ecoles, Etat, parents et associations: plutôt la sourde oreille

En vérité, et bien qu'ils soient concentrés en 1985 sous leur forme journalistique, les efforts de sensibilisation des élèves se sont étendus bien au-delà, puisque 51 rencontres informationnelles ont été organisées en 1986, 1987 et 1988 (Cf. tab. 3).

ECOLES \ ANNEE	85-86	86-87	87-88	TOTAL
Ecoles privées catholiques (8 écoles)	11	6	3	20
Ecoles privées individuelles (3 écoles)	3	2	—	5
Ecoles officielles (7 écoles)	22	3	—	25
Club social	1	—	—	1
Total	37	11	3	51

Tab. 3. Répartition des rencontres informationnelles collectives suivant les écoles et les années

Mais là encore, et en plus du résultat général décevant, la même tendance se manifeste au niveau de la distribution annuelle des rencontres: 37 en 85-86, 11 en 86-87 et seulement 3 en 87-88.

Dans l'absolu, ces résultats surprennent et déroutent! En effet, il est irrévo-

Occidentaux sont surpris de savoir qu'on est ponctuel ici quand on arrive une demi-heure en retard à un rendez-vous! Partant, payer une information ou un conseil - en termes populaires, des «paroles» - n'est pas dans les mœurs libanaises (5).

Enfin, il ressort clairement de ce premier tableau que près des 2/3 des bénéficiaires, outre le besoin généralisé d'information, auraient expressément besoin d'un conseil d'orientation.

Comme il se doit, ni tous les mois, ni toutes les années n'ont vu la même affluence (cf. Tab. 2). Les mois d'été - juillet, août et septembre - avec octobre sont les mois de pointe, avec un pic en septembre - octobre. La période de décembre à mars est creuse; elle est pourtant la période la plus conseillée pour l'arrêt du choix professionnel et scolaire de la part de ceux qui font la terminale. Souvent, en septembre - octobre, il est trop tard pour intégrer certaines institutions de formation, et de toute façon, l'éventail des choix se rétrécit fâcheusement.

Néanmoins, l'imprévoyance n'explique pas à elle seule la ruée de septembre-octobre; notre connaissance des cas nous permet d'y ajouter une autre cause: un certain nombre de visiteurs ayant échoué aux concours, auxquels ils s'étaient présentés en juillet, août ou septembre, sont venus voir - en septembre ou octobre! - quoi faire d'autre pour minimiser les dégâts et sauver peut-être leur année.

La crise économique, qui s'aggrave depuis 1985, expliquerait-elle, à elle seule, le pic de 85 et le mouvement descendant de l'affluence des années 86, 87 et 88? Ou bien serait-ce dû à la concentration de notre campagne de sensibilisation de l'opinion en 1985 tout particulièrement (6)?

MOIS	JAN.		FEV.		MARS		AVR.		MAI		JUIN	
Année	O	I	O	I	O	I	O	I	O	I	O	I
1985			1	1	2				1		4	
1986	1				2		1	3	3	1	3	1
1987				1			3		1	3		1
1988	1	1					1					
Tot/Service	2	1	1	2	4		5	3	5	4	7	2
Tot. général	3		3		4		8		9		9	

5) «Vendre des paroles», «la parole est exemptée de douane», etc. sont des expressions populaires utilisées péjorativement et qui prouvent de ce fait que la parole n'a pas de prix, qu'elle est gratuite.

6) Cf. note (4)

I - La jeunesse face au choix scolaire et professionnel

I - 1 - Affluence, crise et société

Du 1er février 1985 au 30 novembre 1988, 110 jeunes ont bénéficié des services offerts par le CINOPS.

Nature du service	Orientation	Information	Total
Effectif	76	34	110

Tab. 1. Répartition des bénéficiaires suivant le service reçu

En moyenne, 27 par an!

C'est un résultat mince, très mince même, si l'on pense, d'une part, aux besoins pressants et énormes en information et en orientation, et d'autre part, aux efforts de sensibilisation prodigués auprès du large public et, plus particulièrement, auprès des écoles et des élèves (4).

Plusieurs explications peuvent être ici avancées. Quoiqu'elle ait pu peser lourdement, la crise économique n'est ni la seule cause, ni la plus importante; il faudrait chercher ailleurs l'explication de ces chiffres.

Un peu de sociologie éclaircirait la recherche des causes profondes qui auraient concouru à ces résultats. Dans son état actuel, la famille libanaise n'accepterait pas de déléguer l'un de ses pouvoirs modernes à un tiers. En d'autres termes, le choix professionnel est au Liban une cause familiale dans la mesure où c'est son cheval de bataille pour la promotion sociale.

Un deuxième fait serait tout aussi responsable: le simple conseil - donc marchandise impalpable - et, corrélativement, le temps, n'ont pas de valeur-prix au Liban. Les médecins en savent long sur les patients qui trouvent injuste de payer une consultation qui n'aurait pas été «couronnée» par une prescription! Les

4) Plusieurs articles sur l'orientation professionnelle et le CINOPS ont paru dans divers journaux et revues libanais: Moufid ABOU MRAD dans **«Le Réveil»** des 21/5/85, 8/10/85 et 15/10/85; Fadia KHOUZAM dans **«Al-Hasna»** du 31/5-7/6/85; Maria CHAKHTOURA dans **«L'Orient-Le Jour»** du 3/8/85; Aïda KAMAR dans **«Le Nouveau Magazine»** du 19/10/85; Yvan KOUKAZ dans **«Scoop»** d'août 85; Rabiha ABI FADEL dans **«Al-Nahar»** du 19/7/85; Antoine MATTA dans **«Al-Nahar Arabe et International»** du 2-8/9/85; Yolande J. LABAKI dans **«La Revue du Liban»** du 10-17/5/86. 500 affiches en couleurs, 33cm × 46cm, ont été placardées en 85 et 86 dans divers endroits fréquentés par les jeunes: vidéothèques, restaurants snacks, cinémas, librairies, écoles, facultés, etc. Plus de 5000 brochures présentant le CINOPS ont été directement distribuées aux élèves.
En outre, et au niveau de la presse orale, nous avons eu droit à 4 interviews: deux télévisées, avec Raymonde Angelopoulo-Boutros sur tL 1 (octobre 87) et Aïda Kamar sur «L.B.C.» (avril 87); et deux radiodiffusées, l'une par la «Voix du Liban» (avril 85) et l'autre par la «Radio du Liban Libre».
Enfin, des dizaines de rencontres dans les écoles ont atteint plusieurs milliers d'élèves.

formation et d'orientation au Collège Notre-Dame de Louaïzé, d'une cellule pareille au Collège Mont La Salle, et d'autres ailleurs.

Au niveau de l'information scolaire et professionnelle, trois guides de valeur ont paru: en 1981-1982, le Bureau pédagogique des Saints-Cœurs publie son «Guide de l'étudiant»; en 1982, Salem Nassif édite son «Guide des études et des carrières» et son «Supplément I» en 1985; enfin Pierre Ward, en 1986, édite son «Guide des études universitaires». Plus spécialisée, la brochure «La profession médicale au Liban» de l'O.N.E a paru en 1983.

Pendant cette décennie, les chercheurs à leur tour apportent leur contribution. Divers aspects de l'orientation scolaire et professionnelle des jeunes libanais ont fait l'objet de certaines études de grande valeur étant donné qu'elles partent toutes d'enquêtes scientifiquement menées sur le terrain (2).

De leur côté, les moyens de communication ne restent pas insensibles au mouvement. Dès 83, Antoine Sarkis, responsable du Centre de N.-D. de Louaïzé, anime à la Voix du Liban, une série d'émissions informationnelles au joli nom: «Des Horizons à eux»; «La Radio du Liban Libre» et la LBC font de même en 87, la dernière grâce à Aïda Kamar qui prépare et anime une série télévisée intitulée: «Demain, quel sera ton rôle dans la société?».

C'est dans ce contexte, et au début de 85, que fut créé le «Centre d'information et d'orientation professionnelles et scolaires» - CINOPS - (3) à la faveur d'une initiative personnelle de notre part. Et depuis, le CINOPS se consacre à aider les jeunes libanais, individuellement ou collectivement, dans les écoles, les clubs ou au siège du CINOPS, dans leur chois scolaires et professionnel.

Notre étude aujourd'hui sur «la jeunesse face au choix scolaire et professionnel» partira de notre seule expérience du CINOPS et des données quantitatives et qualitatives que nous avons accumulées pendant près de quatre ans. Une fois ces données exposées, analysées et commentées, nous tenterons de tracer quelques «perspectives d'orientation pour demain».

---

2) A titre indicatif, nous citerons: Sœur Jamal EL-CHAYEB, **Orientation d'avenir et aptitudes réelles**, Note de recherche pour l'obtention de la licence d'enseignement en psychologie, Université Saint-Esprit, Kaslik, 1983; Antoine SARKIS, **Création d'un Centre expérimental d'information et d'orientation dans un établissement privé au Liban. Synthèse d'une expérience**, Mémoire pour l'obtention du D.E.A. en sciences de l'éducation, Université Saint-Esprit, Kaslik, 1982; Georges THEODORY, **Maturité de l'élève libanais dans la planification de son avenir professionnel**, Centre de recherches et de développement pédagogiques, Beyrouth, 1982 (en arabe).

3) Demeurant, de février 85 à juillet 87, à Sid-El-Bouchrié, le CINOPS déménage dans un nouveau local sis à GEMA, Dbayé, B.P. 90008 Jdeidet-El-Metn, Tél. (01) 403178.

LA JEUNESSE FACE AU CHOIX SCOLAIRE ET PROFESSIONNEL PERSPECTIVE D'ORIENTATION POUR DEMAIN

Elias Nassib Mattar*

Depuis les années cinquante, certaines voix appellent de manière intermittente à l'organisation des services d'orientation scolaire et professionnelle au Liban. Toutefois, ces appels n'ont jamais été aussi nombreux, aussi persistants et, en tout cas, aussi opérants que ceux des années quatre-vingts qui ont vu un mouvement d'intérêt pour ces problèmes: l'orientation est reconnue comme un phénomène social.

En effet, depuis une dizaine d'années maintenant, nous assistons régulièrement à un événement quelconque sur le plan de l'orientation scolaire et professionnelle. Sans prétendre écrire l'histoire de ce phénomène, diverses initiatives ont vu le jour depuis 1979: la création de l'Office national de l'emploi (1), l'ouverture du Bureau d'accueil et d'orientation à l'Université Saint-Joseph, du Centre expérimental d'in-

* Docteur en science sociales, professeur à l'Université Libanaise, Institut National des beaux-Arts.

1) L'O.N.E compte parmi ses services une «Direction de l'emploi et de l'orientation professionnelle».

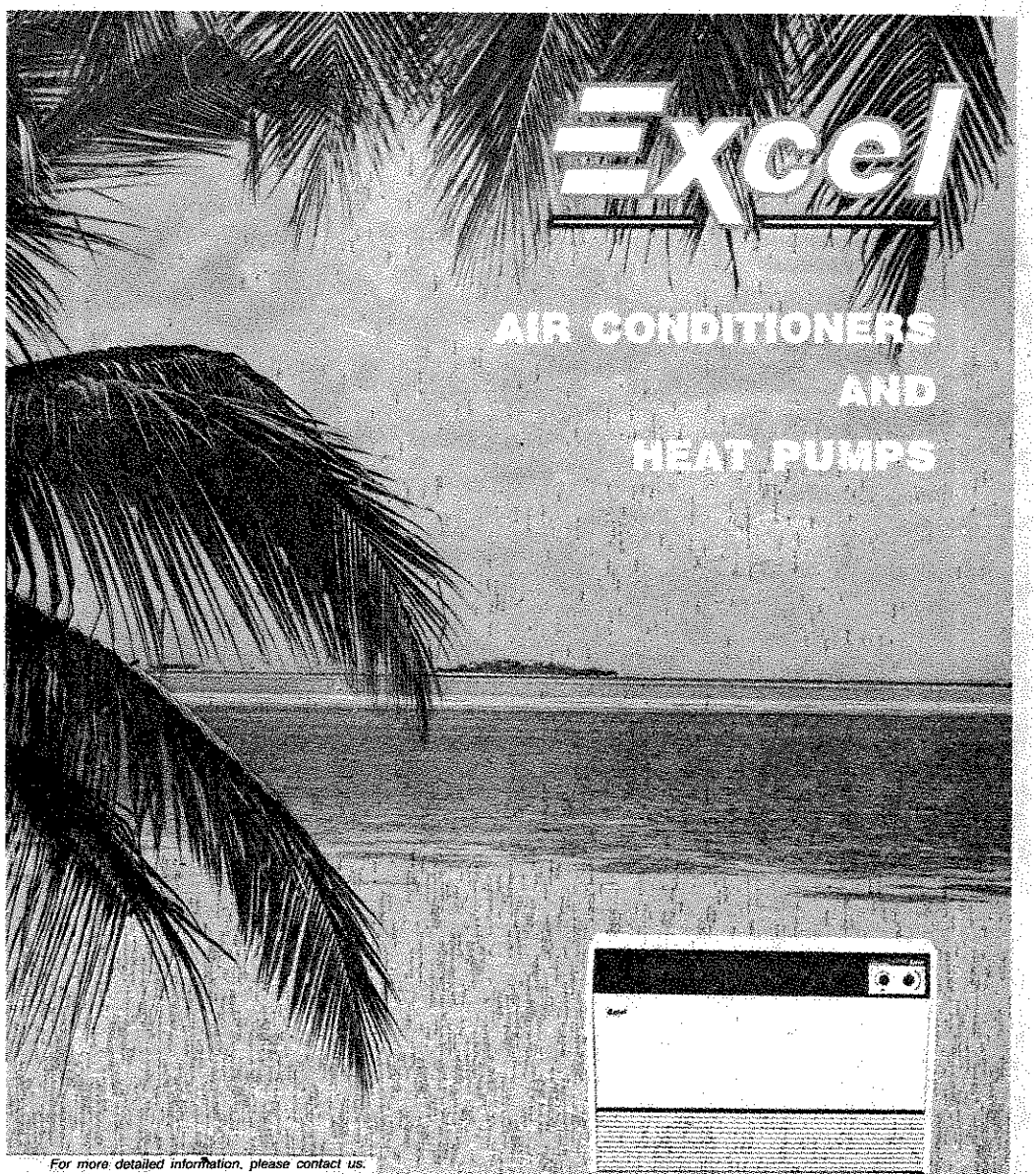

For more detailed information, please contact us.

LEBANON
SORTEC
P.O. Box: 70430
Antelias, Beirut
Tel. 484929
Tlx: 41084 LE

FRANCE
I.C.T.S.
10 Rue Royale
75008 Paris
Tel. 40150333
Tlx: 214853 F

NIGERIA
KANO PLASTICS
7A, Creek Road
Apapa Lagos
Tel. 876911
872116

COMMITED TO EXCELLENCE

SORTEC SARL.

AIR CONDITIONING PRODUCTS DIVISION

Checri Abdou

Relieur Imprimeur

Maison fondée en 1927

R. C. B. 15152

RELIURE INDUSTRUELLE

Mkalles. Imm. Nassif Faddoul

Tél: 394265 - 387877

RELIURE ARTISANALE

Angle rues: Eddé - Monot

Imm . Maalouf, Secteur Yessouieh

Tél: 326135 - 326139

l'histoire. Elle voit l'avenir comme réalisation possible de tendances et de potentialités inscrites dans les profondeurs du mouvement présent de l'histoire. C'est donc ce mouvement qu'il faut tâcher de voir.

* * *

BIBLIOGRAPHIE SELECTIVE

- Beydoun, Ahmad: «Les communautés - Régions au Liban» (en arabe), in Revue **«Al-Waqi»,** N°. 2, 1981.
- C.E.R.O.C.: «Déplacement de population au Liban» (enquête), in Revue **«PLUS»,** N°. 4/86
- Corm, Georges: **Géopolitique du conflit libanais,** La découverte, Paris, 1986.
- Fâ'our, Ali: «Beyrouth, ville hégémonique» (en arabe), in Revue **«Al-Fikr Al-Arabi Al-Mu'âcir».** N°. 3,1980.
- Fischer, Gustave-Nicolas: **La psychosociologie de l'espace,** P.U.F., Paris, 1981.
- Ghossein, Antoine: «La géographie dans la structure libanaise générale et ses crises» (en arabe), in **Panorama de l'Actualité,** Vol. 25. 1982.
- Haddad, Mouine: **Le Liban, milieu et Population,** Beyrouth, 1981.
- Khalifé, Issam K.: **Les frontières Sud du Liban,** (en arabe), Dar al-jil, Beyrouth, 1985.
- Maroun, Ibrahim: **L'économie libanaise, le marché arabe et la concurrence israélienne,** Maison du Futur, Antélias (Liban), 1985.
- Nasr, Sélim: «Le grand Beyrouth 1975», (en arabe), in revue **«Al-Waqi»,** N°. 3, 1981.
- Rabbath, Edmond: **La formation historique du Liban politique et constitutionnel,** Publications de l'Université libanaise, Beyrouth, 1973, 2ème éd., 1986.
- U.S.E.K.: **L'émigration, problème libanais,** (collectif), Kaslik, 1973.

mer cette hypothèse. Toutefois, il est certain que le processus de déplacements massifs et forcés, dans lequel les Chrétiens libanais, et particulièrement les Maronites, ont été engagés, n'est pas sans rapport avec le grand processus de déplacements tragiques dans lequel le peuple palestinien a été engagé depuis la création de l'Etat d'Israël, en 1948.
En effet, à partir de cette date, la question des rapports entre les espaces et les identités collectives est devenue une question centrale et névralgique pour tous les pays affectés par la question palestinienne. Au Liban, depuis 1975, tous les temps forts des déplacements subis par les Chrétiens ont été marqués par une intervention palestinienne ou israélienne. Faut-il en conclure que l'espace étatique libanais a cessé d'être la matrice de l'identité nationale libanaise pour devenir le théâtre d'expérience des déplacements à l'intérieur d'un même pays?

Que deviennent pratiquement les images de l'espace analysées précédemment? L'image de l'espace-asile devient celle des espaces-ghettos; l'image de l'espace-terre de rencontre entre Islam et Christianisme fait place de plus en plus à celle de l'espace de lutte et de séparation entre ces deux religions; l'image de l'espace-marché ouvert et brassant tous les citoyens est concurrencée par celle de l'espace-zones plus ou moins fermées et s'éloignant les unes des autres; l'image du tombeau pour les envahisseurs et les conquérants a engendré l'image du tombeau pour l'Autre, l'ennemi politique, qu'il soit libanais ou palestinien ou syrien ou israélien ou américain ou français... Bref, c'est le monde de l'enfermement et de l'intolérance qui s'installe à la place du monde de l'ouverture et de la liberté. Et l'on comprend que, dans ces conditions, l'émigration, ce vieux problème du Liban, soit devenue pour des familles entières et même pour des masses rurales entières, une voie de salut.

Ces transformations n'ont rien de définitif. Mais quel est le seuil à partir duquel elles le seront? Les processus des rapports collectifs à l'espace, qu'ils soient vécus par des sociétés indépendantes ou par des collectivités subordonnées, appartiennent à la longue durée; et, quand il sont brisés, il est difficile de les remettre en place. L'instabilité, le mercantilisme, le désordre et l'imprévoyance qui ont marqué au Liban les rapports collectifs à l'espace, entre 1920 et 1975, que ces rapports soient ceux de la société représentée par le pouvoir d'Etat ou ceux des communautés confessionnelles considérées comme acteurs et comme catalyseurs, ont préparé le terrain au grand bouleversement dont nous sommes témoins. Comment l'espace étatique libanais arrivera-t-il à traverser cette période? Quel rapport à l'espace, et au service de quelle identité collective, globale, l'histoire est-elle en train d'engendrer au Liban? Le rapport à l'espace des minorités confessionnelles, faibles, aigries et en perpétuelle tension? Le rapport à l'espace de la coexistence, dans un Etat démocratique et confessionnel réformé? Le rapport à un espace de complémentarité entre le Liban et son environnement? Le rapport à un espace national, régi par un Etat moderne démocratique et laïc? La sociologie historique n'est pas une idéologie prophétique de

le problème de leur enracinement spécifique dans l'espace et celui de l'espace planétaire comme elles ont à la faire aujourd'hui. Mais, au Liban, cette dialectique, si riche, prend aujourd'hui une tournure tragique, et catastrophique. Au lieu de vivre la dialectique de l'enracinemen spécifique dans l'espace et de l'ouverture à l'espace planétaire, selon ses données qui la prédisposent admirablement à cela, la société libanaise est portée à vivre une période de dislocation, et de destructuration de son espace étatique. La période des guerres, ouverte en 1975 est loin, semble-t-il, de toucher à sa fin. Les transformations qu'elle a déjà engendrées au niveau des rapports collectifs à l'espace forment la matière d'un grand ouvrage à écrite. Et, les idées que nous avons présentées dans cette étude constituent, en quelque sorte, une introduction à cet ouvrage. C'est pourquoi, nous ne pouvons, à sorte, une introduction à cet ouvrage. C'est pourquoi, nous ne pouvons, à titre de conclusion, que formuler quelques interrogations suggérées par le processus des évènements qui se traduisent, sur le terrain, en nouveaux rapports collectifs à l'espace.

En analysant les rapports entre l'espace étatique libanais et l'identité libanaise, et en mettant en relief la manière dont les identités confessionnelles affirment leurs rapports à cet espace, nous avons découvert que la dialectique unitaire qui a régi le devenir de l'identité libanaise au cours de ce siècle reposait essentiellement sur le régime d'économie libérale, à caractère mercantile, et sur l'implantation des Chrétiens, et particulièrement des Maronites, dans toutes les régions du pays. Toutes les chances de transformations de l'espace étatique libanais en un espace véritablement national, habité par une communauté libanaise s'identifiant réellement comme communauté nationale, étaient suspendus à l'efficace de ces deux facteurs. Or, ce que la guerre a fait jusqu'à présent, par coups successifs, n'est rien moins que le retrésissement de la présence chrétienne dans la plupart des espaces périphériques, la création d'une zone tempon à majorité chrétienne le long de la frontière Sud, et la destruction quasi systématique de la présence chrétienne dans la moitié Sud du Mont-Liban. Ce qui veut dire que ce n'est pas seulement le rapport traditionnel des Chrétiens, et particulièrement des Maronites, à l'espace libanais qui est sérieusement mis en cause, mais c'est tout le rapport de l'entité libanaise et de son espace étatique qui est, lui aussi, sérieusement menacé. C'est le plus grand bouleversement que les Maronites aient eu à vivre, au niveau de leur rapport à l'espace, depuis leur glissement de la Syrie du Nord vers le Mont-Liban. Ses conséquences, s'il devient irréversible, réjailliront sur la dynamique interne de l'identité maronite et sur les fondements mêmes de l'identité libanaise. C'est pourquoi, il est nécessaire de centrer toute l'attention sur son déroulement, ses mécanismes, son orientation et son avenir.

Y avait-il, avant le 13 juin 1975, un plan préétabli pour une nouvelle carte géopolitique du Proche-Orient? Les Maronites devaient-ils, selon ce plan, être amenés à briser leur lien avec l'espace étatique libanais pour lequel ils ont travaillé pendant des siècles? Aucune preuve scientifique n'est fournie, jusqu'à présent, pour confir-

troduit dans l'imaginaire collectif des Libanais un élément étranger à leur monde immédiat: l'élément du désert. Et le désert arabe n'est plus ce qu'il était avant 622.

Ces représentations sont loin d'épuiser le champ de l'imaginaire spatial du discours idéologique au Liban. Une analyse atomiste de ce champ déboucherait facilement sur une grande variété d'images, allant de celles des Cèdres éternels et de la montagne inspirée jusqu'à celle de la diaspora mondiale, qui est, à la limite, le symbole d'une négation de l'identification à l'aide de l'espace ou plutôt le symbole d'un éclatement des dimensions exigues de l'espace étatique libanais. En tant que moyens véhiculaires de l'idéologie, la chanson populaire et les proverbes donnent une idée suffisante de cette variété d'images qui expriment, sous des formes ramassées, des tendances idéalisantes ou nostalgiques, et qui, dans une certaine mesure, occultent les rapports réels a l'espace. La littérature, elle aussi, abonde en poèmes et en textes qui illustrent la complexité des rapports collectifs, soit à l'espace libanais dans sa totalité, soit à telle ou telle de ses régions.

En outre, aucune de ces représentations n'est exclusivement propre à une idéologie déterminée. L'idéologie du maronitisme politique n'est pas seule à être très sensible à l'image de l'espace-asile; et l'idéologie du nationalisme arabe n'est pas seule à revendiquer la non-séparation de l'espace libanais de son environnement naturel. Les circonstances font que telle idéologie mette en relief, à un moment donné, telle image de l'espace libanais; mais aucune des idéologies opérant dans l'espace étatique libanais n'est fermée à l'interprétation des images spatiales, plus ou moins opposées, qui peuplent l'imaginaire social des Libanais. D'où cette mobilité et cette complexité effrayantes qui choquent les esprits cartésiens et les penseurs essentialistes, et qui empêchent les acteurs collectifs eux-mêmes de concevoir des stratégies assez nettes et assez cohérentes pour leurs rapports à l'espace libanais et leurs rapports réciproques dans l'espace libanais.

Les représentations idéologiques de l'espace sont loin d'être de simples épiphénomènes produits par l'imagination et surajoutés aux rapports réels à l'espace pratiqués par la société ou ses collectivités. Elles sont partie intégrante de la manière dont la société et ses collectivités assument leurs enracinements dans l'espace. Dans une société aussi complexe et aussi mouvante que la société libanaise, leur étude nous aide à saisir le sens subjectif des comportements territoriaux de la société totale et des collectivités qui la composent, et fournit en même temps de précieux éléments pour la compréhension des conflits d'identité collective qui la traversent.

V - Conclusion

Dans les sociétés contemporaines, la dialectique des espaces et des identités collectives est une dialectique très active et génératrice de problèmes aigus dont certains sont nouveaux. Jamais, en effet, les collectivités humaines n'ont eu à affronter

tection de l'espace étatique libanais vis-à-vis des ambitions et des convoitises de ses voisins, attisées par l'état de prospérité qu'il a connu, spécialement dans les années cinquante et soixante. Au cours de ces années-là en effet, une autre image dominait l'imaginaire spatial des Libanais et symbolisait le caractère exceptionnel de leur pays, celle de la Suisse.

8 - Suisse de l'Orient. En comparant le Liban à la Suisse, l'idéologie libaniste voulait mettre l'accent sur l'état de paix, de stabilité et de prospérité dont jouissait le peuple libanais dans une région particulièrement instale et déchirée par les coups-d'Etat et les guerres. Cet état serait le signe d'une identité nationale consciente d'elle-même et assez mûre pour continuer son travail d'auto-édification sans affrontements violents. Mais elle voulait aussi faire passer l'idée de neutralité du Liban par rapport au conflit israélo-arabe, et consolider la thèse ou l'interprétation selon laquelle le Liban est ou devrait être politiquement une fédération de communautés, régie par le système consociatif. Les guerres qui se succèdent depuis 1975 ont porté un coup très dur à cette image particulièrement attirante. Mais elles ne l'ont pas encore complètement chassée du champ idéologique de l'espace libanais.

9 - Région indissociable de la Syrie naturelle. L'idée de l'appartenance du Liban à la Syrie naturelle est antérieure à la formation de l'Etat du Grand-Liban. Elle a été reprise par l'idéologie contemporaine du nationalisme syrien et exploitée, de différentes manières, par les gouvernements de la Syrie. Elle s'appuie sur le fait que l'espace géopolitique libanais, formé après dures négociations menées à Paris pour régler la question syrienne, n'est séparé du grand espace de la Syrie naturelle par aucune frontière géographique d'une certaine importance, et sur l'impossibilité de dissocier le destin du Liban du destin de la Syrie. L'identité du peuple libanais ne se laisse profondément penser qu'en fonction de la nation à laquelle il appartient, la nation syrienne. Cette idée vaut, comme telle, pour la doctrine du nationalisme syrien. Mais une partie de son contenu se retrouve, d'une façon ou d'une autre dans tout discours idéologique qui porte sur les rapports historiques ou les rapports d'intérêts entre l'espace étatique libanais et son environnement naturel, et, à fortiori, dans le discours idéologique du nationalisme arabe.

10 - Partie intégrante de l'Orient arabe. L'espace global auquel le nationalisme arabe rattache l'espace étatique libanais, c'est évidemment la patrie arabe qui va du Golfe à l'Océan. Mais c'est surtout cette partie de cette patrie que l'on appelle l'Orient arabe. L'espace de l'Orient arabe serait, dans cette optique, le véritable environnement naturel de l'espace libanais; et toutes les autres représentations de l'espace libanais, qui ne sont d'ailleurs que partielles, n'ont de sens qu'en fonction de cet espace global. Comme l'espace de la Syrie naturelle, l'espace de l'Orient arabe porte une négation de la spécificité foncière de l'espace étatique libanais. Mais, alors que l'espace de la Syrie naturelle reprend à son compte certaines représentations de l'espace étatique libanais et reste très méditerranéen, l'espace de l'Orient arabe in-

l'espace étatique libanais. C'est pourquoi, son rôle positif diminue, ou disparaît, en temps de tension, de trouble et de conflit.

6 - Asile de minorités persécutées ou opprimées. La notion d'asile suppose la notion de peur et celle d'insécurité. Un asile est un endroit qui permet de surmonter le sentiment de peur et d'insécurité. Or le sentiment de peur et d'insécurité a été, et reste encore, un facteur dynamique de première importance dans la vie des collectivités. Il est donc normal que la représentation collective de l'espace accorde une grande place à l'image de l'espace-asile, l'espace-abri, l'espace-refuge, surtout dans les périodes de guerre ou de persécution. Au Liban, l'image de l'espace-asile habite le psychisme conscient et inconscient de, principalement, trois communautés confessionnelles: la communauté maronite, la communauté druze et la communauté chiite. Ces trois communautés ont subi, chacune à sa manière, la persécution et l'oppression; et ce qu'elles ont cherché dans l'espace libanais, c'est d'abord une certaine sécurité. C'est pourquoi, elles se sont accrochées surtout aux régions montagneuses, difficiles à envahir et à dominer. En dépit des transformations apportées par la formation et l'histoire du Grand-Liban, l'image de l'espace-asile n'a pas disparu de leurs immaginaires collectifs. Leurs représentations de l'espace libanais comme asile est différente de celle des Arméniens qui ont cherché refuge au Liban, en 1915. L'ennemi dont elles ont peur, qu'il soit réel ou virtuel, n'est pas loin d'elles comme l'est celui des Arméniens. Elles peuvent d'ailleurs devenir elles-mêmes ennemies les unes pour les autres. Cette situation, intenable dans un espace étatique unitaire, a transformé l'image de l'espace-asile en une autre, plus évoluée et plus complexe: l'image de l'espace-liberté. En effet, la véritable garantie de sécurité de chaque communauté confessionnelle, c'est un régime de liberté pour toutes les communautés confessionnelles, sans domination, ouverte ou camouflée. Mais comment parvenir à un tel régime? Tout le problème de la représentation de l'espace étatique libanais comme asile de minorités persécutées est suspendu à cette question.

7 - Tombeau des envahisseurs et des conquérants. L'imaginaire des minorités qui cherchent dans l'espace libanais un endroit de survie et de protection de leurs identités n'est pas seul à se représenter cet espace comme un tombeau pour les envahisseurs et les conquérants. L'image du tombeau pour l'ennemi est aussi sécurisante que celle de la montagne-citadelle ou celle de la cité entourée de remparts. Elle joue aussi un rôle de dissuasion pour ennemi lui-même. L'idéologie de l'entité libanaise indépendante exploite l'image du tombeau pour l'ennemi en réactivant toutes les formes de résistances connues dans l'histoire de l'espace libanais et en adoptant des formes nouvelles, comme celle que suggère l'image des sables mouvants. Efficace surtout en temps de pression ou d'invasion, cette image sert à renforcer la confiance en temps de paix ou de prospérité. L'idéologie libaniste, celle de la coexistence des communautés confessionnelles comme celle du nationalisme libanais, s'est ainsi bien servie de l'image du tombeau pour l'ennemi, afin de soutenir les mécanismes de pro-

croyances et des traditions différentes. Dans cette optique, l'espace étatique libanais ne serait que le cadre de protection d'une pluralité d'identité collectives, dont les plus importantes sont apparemment l'identité chrétienne et l'identité musulmane.

4 - Terre de rencontre de l'Islam et du Christianisme. Cette représentation de l'espace étatique libanais considère l'Islam et le Christianisme comme religions et comme civilisations. En tant que telle, elle constitue un élément capital dans le discours idéologique de la coexistence au Liban. Mais, dans la mesure où elle met en relief l'identité religieuse des Libanais, elle affaiblit leur sentiment d'appartenance à une même patrie et leur volonté de participer à un même destin. Et que signifie, au juste, le terme de rencontre? Et qui, concrètement, rencontre qui? l'image d'une terre de rencontre entre l'Islam et le Christianisme dérive de l'image du carrefour de civilisation. Mais ses insuffisances sont trop grandes pour qu'elle fournisse une représentation solide de la dialectique de l'espace et des identités collectives au Liban. C'est pourquoi, elle est souvent associé à deux autres images, plus pertinentes et plus percutantes, celle de l'asile de minorités persécutées et opprimées et celle du foyer de cultures.

5 - Foyer de cultures. L'image du foyer porte l'attention et l'imagination vers l'intérieur plus que celle du pont et celle du carrefour. Un foyer est un espace de vie en commun, d'échanges spontanés d'interaction et de solidarité profondes.

En comparant le Liban à un foyer, l'idéologie de la coexistence exprime le désir d'un certain dépassement vers l'unité réelle des Libanais. Dans ce sens, elle n'hésite pas à parler de «famille libanaise» et de «maison libanaise». Mais les habitants de cette «maison» ne sont pas des individus ou des classes sociales, mais des «cultures». En quel sens? Et de quelles cultures s'agit-il? Et quel rapport y a t-il entre ces «cultures» et la culture nationale globale? L'idéologie de la pluralité dans l'unité pose ses questions; mais elle ne les traite jamais à fond. Elle profite d'ailleurs du sens qualitatif du terme de culture pour faire passer l'idée d'une supériorité de l'espace qui se présente comme un foyer de cultures. D'un autre côté, l'insistance sur la pluralité culturelle de l'espace étatique libanais vise à renforcer deux idées: l'idée que le Liban est un espace d'accueil, d'hospitalité et de convivialité, et l'idée qu'il possède des richesses humaines plus importantes que les richesses matérielles, et que, par conséquent, ce n'est pas un pays pauvre ou sous-développé. Mais, par delà ces deux idées, elle vise à inculquer l'idée que la vraie identité collective, c'est l'identité culturelle.

On voit donc à quel point cette image du foyer de cultures est nécessaire au discours idéologique plus ou moins dominant au Liban. Elle joue, en temps de paix et d'évolution lente, un rôle de rapprochement et de conciliation très considérable. Elle crée un certain climat ou aide à créer un certain climat socio-culturel de détente et d'entente. Mais elle escamote les vraies problèmes de l'unité et de la pluralité dans

1 - Pont entre l'Orient et l'Occident. Cette image met en relief la fonction de médiation, de liaison, et d'échange assumée par l'espace étatique libanais. Un pont est un lieu de passage et de transit entre deux espaces séparés, mais pouvant communiquer l'un avec l'autre. Présenter le Liban comme un pont, c'est donc insister sur les rapports de communication qu'il assure, grâce à sa situation et à ses institutions, entre l'Orient et l'Occident. Pourquoi, précisément, l'Orient et l'Occident? Parce que ces deux concepts sont assez riches et assez vagues pour permettre toutes sortes d'interprétations. Qui met l'Orient et l'Occident en communication apporte un démenti à l'idée de séparation absolue entre eux, ouvre la voie à la circulation des hommes, des marchandises et des idées, se sent en quelque sorte oriental et occidental, c'est-à-dire ouvert au monde entier. Pratiquement, c'est surtout l'activité économique dans le secteur tertiaire, déployée dans l'espace étatique libanais, qui est symbolisée dans cette image du pont entre l'Orient et l'Occident. Mais, en poussant trop loin l'interprétation de cette image, on finirait par nier l'existence d'une identité libanaise ayant sa substance et sa vie propres. C'est pourquoi, l'idéologie officielle de l'espace étatique libanais corrige l'image du pont par d'autres images, qui signifient un peu moins la dépendance à l'égard de l'extérieur, notamment celle du carrefour et celle du foyer.

2 - Carrefour entre trois continents. Cette image est un peu plus précise que la précédente, et correspond à une perception de l'espace du monde qui condense une expérience historique très longue. Les continents dont il s'agit sont l'Asie, l'Europe et l'Afrique; et les rapports auxquels nous renvoie l'image du carrefour entre ces trois continents remontent jusqu'à l'Antiquité. Un carrefour est plus qu'un lieu de transit, et plus qu'un lieu d'échange. C'est un lieu de confrontation. Le Liban comme carrefour entre l'Asie, l'Europe et l'Afrique, c'est donc un lieu de confrontation entre les activités et les productions de ces trois grands espaces. En réalité, c'est toute la vocation méditerranéenne du Liban qui est portée par cette image. Le peuple libanais est essentiellement un peuple méditerranéen, ce qui veut dire, dans le contexte d'aujourd'hui, qu'il ne faut pas réduire l'identité libanaise à l'identité arabe. L'environnement de l'espace libanais, c'est tout le monde méditerranéen, et non seulement le monde arabe. En effet, la confrontation qui a eu lieu, à travers l'histoire, entre les grands peuples méditerranéens, a laissé bien des traces sur son territoire. De là, il est facile de glisser vers une autre image, celle du carrefour de civilisations.

3 - Carrefour de civilisations. L'essentiel dans cette image, c'est le lien qu'elle établit entre l'espace libanais et une pluralité de civilisations. Mais que veut dire exactement le terme de civilisation? La pluralité de sens de ce terme permet à l'idéologie libanaise pluraliste de mettre l'accent tantôt sur la succession des grandes civilisations qui ont marqué l'histoire du Proche-Orient, tantôt sur la juxtaposition, dans l'espace libanais, de diverses manières de penser, de sentir et d'agir, qui reflètent des

de la République Libanaise les a politiquement transformés; mais elle n'a pas profondément altéré leur rapport à l'espace. Concentrés surtout à Beyrouth, à Tripoli et à Saïda, ils n'ont pas vécu le problème du déplacement et de l'émigration, comme les Maronites et les Chiites. Le libéralisme économique n'a fait que renforcer leurs liens avec l'hinterland qu'ils perçoivent, par ailleurs, tantôt comme un seul et même espace économique, tantôt comme une partie au sens nationaliste du terme. La seule expérience traumatisante de rapport à l'espace qui les a directement concernés, c'est celle des Palestiniens, réfugiés et installés dans des camps misérables dans les alentours de Beyrouth, de Saïda, de Tripoli et de Tyr. Et ils n'ont pas manqué d'exploiter cette expérience dans leur projet, plus ou moins net, de réaménagement de l'espace étatique libanais.

En somme, l'effet de l'espace étatique libanais a été particulièrement destabilisateur pour deux identités confessionnelles, l'identité maronite et l'identité chiite. Les Druzes ne sont pratiquement pas sortis de leur espace-refuge qu'ils ont construit, depuis le seizième siècle, avec les Maronites. Les Sunnites, peu sensibles pour leur part à la notion d'espace-refuge, cherchent, à partir de leurs positions traditionnelles, à promouvoir leur sentiments de communauté d'Etat. Et ce n'est pas du tout un hasard si les bouleversements les plus spectaculaires provoqués par les guerres qui se succèdent depuis 1975 se sont produits au niveau des rapports à l'espace vécus par la communauté chiite et par la communauté maronite.

IV - La Médiation de l'idéologie

Tout rapport collectif à l'espace, dans le monde d'aujourd'hui, comporte une dimension idéologique. Car, comme nous l'avons déjà dit, l'espace pour une collectivité historique déterminée est à la fois une donnée objective et une valeur, un théâtre et un enjeu, un facteur déterminant et une variable déterminée. Dans la mesure où une collectivité se pense dans l'espace et s'identifie à un espace déterminé, elle se donne une image de l'espace qui reflète ses besoins et sa culture. L'idéologie intervient justement là. Elle dote la collectivité d'une représentation de l'espace, conformément à ses intérêts et à ses aspirations, et s'interpose entre la collectivité et son espace comme grille d'interprétation et de valorisation. C'est dans ce sens que nous pouvons parler d'espace idéologique et faire intervenir l'idéologie dans l'étude des rapports dialectiques de l'espace et des identités collecitves.

Pour compléter donc notre analyse de la dialectique des espaces et des identités collectives au Liban, nous devons tenir compte des représentations idéologiques de l'espace qui interviennent dans cette dialectique. Ces représentations ne sont pas toujours élaborées; elles sont même parfois éminement équivoques et confuses. Mais c'est justement à ce titre qu'elles alimentent l'imaginaire collectif du peuple libanais. Nous n'en retiendrons que les plus significatives.

en aménageant de la sorte insertion dans l'espace étatique libanais, ils ne se sont pas rendus compte qu'ils étaient en train de modifier en profondeur leur rapport ancestral à l'espace et qu'ils invitaient d'une certaine manière les autres communautés confessionnelles à entrer en concurrence avec eux.

Les Druzes n'ont pas réagi aux appels de l'espace étatique libanais avec le même enthousiasme que les Maronites. Communauté montagnarde, mais plus fermée et plus isolée, ils se sont trouvés dans le Grand-Liban nettement minoritaires. C'est pourquoi, ils se sont peu déplacés, préférant préserver leur identité sous ses formes traditionnelles, ou en l'affublant du manteau du progressisme socialiste, tout en participant à l'évolution économique générale du pays et en profitant de ses avantages.

Les Chiites, en revanche, ont trouvé tout intérêt à suivre le modèle maronite. Mais, ils n'ont pas rompre effectivement leur rapport traditionnel à l'espace qu'assez tardivement, à cause de leur appartenance à deux espaces périphériques, le Liban Sud et la plaine de la Békaa, et à cause des structures féodales qui ont maintenu ces deux espaces dans un état de sous-développement général jusqu'aux années soixante. Cependant, en prenant les voies de l'émigration ou en cherchant à se fixer dans certains quartiers de la Capitale ou dans sa banlieue Sud, ils ont découvert que l'espace étatique libanais leur offrait des possibilités de développement, mais en même temps beaucoup de résistances. Cette découverte, un peu traumatisante, les a conduits à peuser leur insertion dans l'espace étatique libanais en termes de revendications et de programmes de réaménagement économique et politique. Ils ne pouvaient pas résoudre autrement le conflit entre leur démographie galopante et leurs espaces relativement pauvres.

En réalité, le modèle maronite n'a agi sur les Chiites libanais que parce qu'il a trouvé chez eux un écho profond. L'espace étatique libanais leur a apparu comme un espace ouvert, et le mode d'expansion maronite dans cet espace comme le moyen adéquat pour qu'ils se libèrent de leurs sentiments d'opprimés et de déshérités, sentiments historiquement inhérents à leur identité. Mais, ne disposant pas de tous les atouts dont disposent les Maronites, et devancés dans leurs revendications par les Sunnites, ils ont été poussés au radicalisme. Ils auraient pu former, avec les Sunnites un seul et même mouvement en vue de réaménager l'espace étatique libanais et ses rapports avec les identités collectives qu'il abrite, si la question de l'identité communautaire religieuse se réduisait vraiment à l'appartenance musulmane et à l'appartenance chrétienne. Mais l'histoire est là, qui nous montre que Karbala est encore au centre de l'identité chiite, et que la perception chiite de l'espace ne correspond que très peu à celle des Sunnites.

Communauté particulièrement stable, les Sunnites doivent nombre de leurs traits identitaires au fait qu'ils ont traditionnellement été une communauté au pouvoir, réellement ou symboliquement, et, une communauté de citadins. La formation

expériences politiques particulièrement significatives. Ainsi, bien qu'elle ne soit pas originairement et intentionnellement liée à un espace déterminé, une communauté confessionnelle s'identifie toujours au moyen d'un certain enracinnement dans l'espace.

Cette remarque est particulièrement vraie dans le cas de certains communautés confessionnelles au Liban. Car, pour ces communautés, l'espace a été d'abord un lieu de refuge. Les Maronites, les Druzes et les Chiites ne se sont pas implantés dans les régions montagneuses dures et pauvres par amour pour la pauvreté et la dureté. Les Sunnites ne se sont pas établis dans les grandes villes côtières par vocation ou par hasard. Mais cette fonction de refuge a subi une profonde transformation depuis l'émergence du Grand-Liban. Et les mécanismes de défense, pratiqués des siècles durant par les Maronites, les Druzes et les Chiites, ont été plus ou moins abandonnés et remplacés par de nouveaux mécanismes en liaison avec les exigences et les possibilités de l'espace étatique nouveau.

L'identité de la communauté Maronite a pris forme dans la région Nord-Ouest de la Syrie, à la suite du Concile de Chalcédoine. Mais, depuis plus de mille ans, elle est principalement liée à l'espace du Mont-Liban. C'est là que les Maronites, fidèles à Antioche, à leurs traditions syriaques et à leur spiritualité monastique, se sont organisés en Patriarcat autonome, ont construit leurs villages, leurs églises et leurs couvents, refusant la sujétion servie, cultivant dans la simplicité et la persévérance des vallées dures, mais superbes. C'est là qu'entre 1516 et 1918 ils ont vécu leur rapport à l'espace environnant dans trois directions: une expansion vers le Sud supportée par une collaboration très étroite avec les Druzes, une ouverture à l'Occident à travers Rome et Paris, un engagement de plus en plus actif dans l'arabité linguistique et littéraire. Mais, avec la formation du Grand Liban, la dynamique psycho-sociologique de cette identité historique est entrée dans une nouvelle phase. En effet, comme nous l'avons déjà dit, le Grand Liban est un espace géopolitique, démographique, économique, culturel, et stratégique, bien différent de l'espace du Mont-Liban qui a connu l'Emirat et la Mutaçarrifiya. Pour se sentir en sécurité dans cet espace nouveau, les Maronites ont exigé que dans la répartition confessionnelle des postes-clés de l'Etat, la Présidence de la République et le Commandement de l'Armée, entre autres, leur soient confiés. Forts de leur pouvoir politique et d'une certaine avance dans le domaine de l'enseignement, ils ont cru pouvoir conserver intacte leur identité confessionnelle, tout en s'adaptant aux nouvelles conditions de vie économique, dues à la création de l'espace étatique libanais lui-même comme espace économique unifié et au régime d'économie libérale qui a fait de Beyrouth un grand centre régional, voire mondial. Ils ont ainsi accéléré le mouvement d'exode rural commencé au siècle dernier, et se sont orientés vers les activités professionnelles libérales, le commerce, l'administration publique, ou vers l'émigration non sans se laisser travailler par l'individualisme, le mercantilisme et l'idéologie de la consommation. Mais,

Pour le faire, il faut passer par une série de simplifications et d'occultations, et substituer à la pensée du tout géopolitique en devenir la pensée de la partie qui voudrait devenir ou être traitée comme un tout géopolitique. Car, au Liban, il n'y a aucune région qui soit occupée exclusivement par une seule communauté confessionnelle, et aucune communauté confessionnelle ne s'y trouve totalement groupée dans une seule région. Les Maronites sont établis dans toutes les régions du pays et spécialement dans celle du Mont-Liban; les Sunnites au Sud, au Nord, à Beyrouth et à l'Est; les Chiites au Sud, à l'Est et à Beyrouth; les Druzes dans la zone Sud du Mont-Liban et la zone Sud-Est de la Békaa; les Grecs-Orthodoxes au Nord, à Beyrouth, et dans certaines zones des autres régions; les Grecs-Catholiques à l'Est, à Beyrouth, au Sud, et dans certaines zones du Mont-Liban. Cette répartition des six principales communautés confessionnelles au Liban est naturellement inégale. Elle comporte des couleurs fortes et des couleurs faibles. A une certaine échelle, elle est même marquée par des concentrations et des majorités plus ou moins écrasantes. Si donc elle signifie quelque chose de certain, c'est que l'espace étatique libanais n'est pas composé d'espaces régionaux confessionnels, que les formes de coexistence et d'interpénétration des confessions, à travers ses régions et ses zones, sont très diverses, et que les rapports spécifiquement confessionnels à l'espace y sont vécus de plus en plus comme des rapports culturels et symboliques.

Dans son essence pure, une communauté confessionnelle est un groupement religieux plus ou moins organisé qui se définit par une certaine manière d'interpréter la doctrine religieuse et de la mettre en pratique, cultuellement et socialement. Mais, dans son essence historique, une communauté confessionnelle est plus que celà. Elle lutte pour la réalisation de ses valeurs, pour la préservation de son être, pour la protection de ses membres, le maintien et le renforcement de leur cohésion, pour l'organisation de ses fonctions et de ses tâches. Cette lutte se manifeste, par delà les pratiques cultuelles, par une activité éducative permanente s'appuyant sur une législation religieuse de la famille, et, selon les circonstances, par une activité socio-politique ou militaire. Cela veut dire que l'identité d'une communauté confessionnelle résulte à la fois de son essence pure et de son essence historique et comporte toujours un rapport ambigu à l'espace. Un Etat a besoin, pour exister, d'un territoire déterminé qui est le sien propre; une classe paysanne ne peut exister que sur la base d'un rapport déterminé à un espace rural déterminé. Une communauté confessionnelle n'a pas besoin, en principe, d'un espace géographique propre qui figurerait parmi ses constituants,; mais aucune de ses activités fondamentales ne peut se passer d'un certain rapport stable à un espace déterminé. Lieux de culte, lieux Saints, lieux de pélerinage, centres d'administration, centres de formation, et d'enseignement sont des points de repère fondamentaux pour la perception confessionnelle de l'espace. A ces points de repère normaux s'ajoutent, dans certains cas, d'autres points de repère exceptionnels, liés à des institutions spécialisées, ou à des batailles décisives, ou à des

de nouveaux habitants, venus des espaces ruraux, superficiellement intégrés à leur espace d'accueil, et vivant dans des quartiers juxtaposés qui rappellent les quartiers familiaux ou confessionnels de certains gros villages de la montagne. De même, aucune région géographique du Liban ne détermine, en tant que région distincte, une identité et une solidarité propres à ses habitants. Les quelques traits communs qui distinguent les habitants de telle région des habitants de telle autre région ne suffisent pas à créer de véritables mouvements d'appartenance régionale. Et, s'ils le font dans certains cas, c'est parce qu'ils sont soumis à une exploitation politique ou à une surdétermination confessionnelle.

Comment donc faut-il faire pour aborder correctement la question des rapports entre l'espace et les identités confessionnelles au Liban?

Il faut respecter la règle de la subordination des parties au tout, et soumettre la thèse du régionalisme confessionnel à un examen critique. Les deux conditions sont absolument nécéssaires; car la question des rapports entre les communautés confessionnelles et l'espace est actuellement, dans les milieux qui réfléchissent géopolitiquement sur le Liban, une des questions les plus controversées et les plus confuses. Que signifie donc ici la subordination des parties au tout?

Parmi les historiens et les politologues, nombreux sont ceux qui ont tendance à présenter la formation du Liban contemporain comme un élargissement, couvert d'un vernis constitutionnel, de la Mutaçarrifiya du Mont-Liban. Il n'ont peut-être par tort. Mais, en insistant, trop exclusivement sur l'efficace des communautés confessionnelles, et spécialement la communauté maronite, ils donnent l'impression de ne pas comprendre que la formation et l'histoire du Grand-Liban ont fortement affaibli le caractère de variables relativement autonomes dont pouvaient se targuer ces communautés. L'espace socio-économique de l'Etat du Grand-Liban a intégré toutes les communautés confessionnelles dans une même évolution générale, les rendant de plus en plus dépendantes, non seulement les unes des autres, mais surtout de ses valeurs et de ses propres mécanismes de transformation. Il a ainsi créé deux rapports confessionnels à l'espace le rapport à l'espace:étatique libanais et le rapport à l'espace tel qu'il est perçu à travers la spécificité de chaque communauté confessionnelle. Ces deux rapports ne coexistent pas paisiblement. Ils engendrent des tensions à l'intérieur de chaque communauté, et entre les communautés et rendent excessivement complexes et sensibles les modifications que chaque communauté confessionnelle se sent appelée à faire pour assurer son insertion dans l'espace étatique libanais sans rompre totalement son vieux rapport à l'espace.

Car, Il y a effectivement un vieux rapport confessionnel à l'espace, que la thèse du régionalisme confessionnel essaie de reprendre et de durcir. Mais peut-on vraiment traduire la pratique confessionnelle de l'espace, au Liban, en termes de régions confessionnelles?

collectivité qui l'a produit. Le Liban est le seul pays au monde qui compte plus d'émigrés, y compris leurs descendants, que de ressortisants et d'étrangers établis sur son territoire. Est-il donc étonnant que l'émigration y soit liée par delà les intérêts économiques et politiques, à la question fondamentale de son identité?

Par ses dimensions et ses multiples fonctions, l'émigration élargit à l'échelle du monde la perception de l'espace propre à l'identité libanaise. Elle joue, de ce côté, un rôle compensatoire, psycho-social et psycho-économique, certain. Mais cet élargissement ne peut consolider et enrichir l'identité libanaise que dans la mesure où il est cimenté par un patriotisme sûr et profond. Par quel patriotisme les émigrés libanais sont-ils unis? Par le même patriotisme qui est senti et vécu par les Libanais au Liban. Ce qui veut dire que ce qui compte, en définitive, c'est la nature de l'espace étatique libanais comme patrie. C'est dans cet espace que l'identité libanaise doit se former, et non dans l'espace mondial de sa diaspora. Telle qu'elle apparaît dans l'optique des rapports collectifs à l'espace, l'émigration libanaise signifie que la structuration de l'espace étatique libanais est encore trop ouverte, trop instable, trop dépendante de l'extérieur, pour que puisse dominer les tendances centrifuges qui le traversent et transformer l'identité libanaise en véritable identité nationale.

III - Espaces et Identités confessionnelles

Dans l'analyse précédente, nous avons considéré l'espace étatique libanais comme un tout géopolitique qui agit, par son mouvement de structuration et son pouvoir d'intégration, sur une identité collective globale, l'identité libanaise. Mais nous n'avons pas envisagé la dialectique des rapports qui existent entre cet espace et les identités collectives partielles subordonnées à l'identité libanaise, notamment celles des communautés confessionnelles. Il nous faut donc maintenant passer à un autre niveau d'analyse et considérer l'espace libanais comme un théâtre où les acteurs principaux sont les communautés confessionnelles.

Il y a, bien sûr, à côté de ces communautés, une foule de communautés locales dont il faudrait parler pour que le tableau des identités collectives au Liban soit complet, telles les communautés villageoises et urbaines, les communautés familliales à caractère féodal ou tribal, les communautés régionales plus ou moins larges. Toutes ces communautés doivent certainement quelque chose à leurs rapports à l'espace. Mais, en général, ces communautés ne sont pas marquées par des identités collectives bien distinctes et bien structurées; et, d'autre part, elles sont traversées dans ce qu'elles ont de particulier par la question de l'appartenance confessionnelle. Aucune ville au Liban en dépit de son ancienneté millénaire, ne présente une identité collective profonde et bien structurée comparable à celle de Paris, ou de Venise ou même à celle d'Alep, ou du Caire. Le noyau, très ancien, de Beyrouth, de Saïda, de Tripoli, de Byblos, de Tyr, et de Zahlé, est actuellement submergé par des vagues

peler d'abord que l'émigration comme phénomène collectif est une forme de solution d'un rapport à l'espace, conflictuel ou insupportable. Les persécutions, les oppressions, les guerres et les catastrophes naturelles, peuvent provoquer des émigrations massives. Mais, pour qu'un pays en arrive à considérer l'émigration comme une donnée normale de sa vie, il faut bien autre chose. En réalité, rien ne révèle la compléxité des rapports entre l'espace et l'identité libanaise autant que le phénomène de l'émigration. Il mérite donc qu'on s'y attarde un peu.

Nous ne disposons pas d'études scientifiques détaillées sur les causes de l'émigration libanaise, ses dimensions, ses composantes, son évolution et ses multiples fonctions et conséquences. Il nous est donc difficile d'en faire une analyse critique s'appuyant sur des comparaisons exactes et des corrélations pertinentes. Néanmoins, nous pouvons avancer quelques remarques sur sa portée et sa signification, en tant que rapport collectif à l'espace.

Il est à peu près certain que le phénomène de l'émigration n'a pris de l'ampleur, au Mont-Liban, avant 1920, qu'à cause de la conjonction de quatre facteurs: l'exiguité de l'espace cultivable, une forte densité démographique, le développement de la tension politique entre la Sublime Porte et les Grandes Puissances, et la misère laissée par la première guerre mondiale. L'émergence du Grand-Liban aurait pu, par la mise en place et l'exploitation rationnelle de ce que nous avons appelé l'espace étatique libanais, sinon réduire ce phénomène, du moins en limiter l'ampleur. Mais, apparement, c'est tout le contraire qui a eu lieu. Pourquoi? Pour diverses raisons, certes. Mais la principales, celle qui vaut pour tout l'espace étatique libanais, et non pour telle ou telle de ses parties, c'est la dynamique du système d'économie libérale, axé sur le secteur tertiaire, auquel la République libanaise est restée attachée, en dépit de tous les bouleversements survenus dans les pays environnants. Ce système a su profiter des services qu'il a rendus comme médiateur à l'échelle mondiale et surtout entre les pays industrialisés et les pays arabes; et, en procurant à ses maîtres une grande élévation de leur niveau de vie, il a attisé les jalousies et les ambitions des uns et des autres, en même temps qu'il a approfondi les inégalités entre les couches de la population d'une part, et entre les régions du pays, d'autre part. Combiné avec le phénomène d'exode rural, dont nous avons déjà parlé, il a donné au mouvement d'émigration, en principe temporaire, tous les arguments dont il pouvait avoir besoin pour convaincre toutes sortes de gens de la nécessité de chercher leurs chances en Amérique, en Afrique, en Australie, ou dans les pays arabes. Et, ainsi, il a contribué à escamoter les problèmes aigus de rapport à l'espace qui agitaient toute la population.

Dans la majorité des pays contemporains, l'exode rural ne se transforme pas en mouvement d'émigration; il reste un phénomène de migration intérieure. Là où il se transforme en mouvement d'émigration, il ne constitue un problème majeur que lorsqu'il atteint des dimensions qui risquent de mettre en question l'identité de la

quences d'une conception étroite et déréglée de l'estivage. On continue bien sûr à cultiver dans certains endroits le tabac, la pomme de terre, la vigne, le pommier, l'oranger et quelques autres espèces d'arbres fruitiers. Mais cela ne change rien à la réalité. C'est tout le rapport traditionnel à l'espace comme lieu d'habitation et de travail, et comme facteur d'identification, qui est mis en cause.

On pourrait facilement établir de longues listes de faits pour montrer les réactions désordonnées et négatives de la société libanaise aux possibilités offertes par son espace. Mais, dans la logique de l'espace et de l'identité, tous ces faits doivent être pensés à la lumière de deux catégories: l'appropriation et l'enracinement.

L'appropriation d'un espace déterminé par une collectivité déterminée est plus que la souveraineté juridique exercée par cette collectivité sur cet espace. Elle suppose un travail collectivement organisé sur cet espace et une exploitation collective de ses ressources. Et, à ce titre, elle définit l'identité spatiale de la collectivité. De génération en génération, l'appropriation collective d'un espace s'approfondit, se diversifie, et apparaît dans la perception et la représentation de cet espace comme attachement vital et indiscutable, c'est-à-dire comme enracinement. Dans l'expérience de l'enracinement, la collectivité éprouve son appartenance à l'espace autant qu'elle sent que l'espace lui appartient. Elle s'identifie avec son espace et se reconnaît en lui.

Interprétées à la lumière de ces deux catégories, les pratiques de la société libanaise dans les domaines de production et de consommation de l'espace dévoilent leur orientation irrationnelle, destabilisatrice et déracinante. Elles ont ébranlé le mode ancestral d'appropriation de la terre, péniblement établi sur un système de petite propriété privée, et dont les paysans du Mont-Liban ont tiré leurs qualités bien connues de fierté, de loyauté, de résistance, de frugalité, et d'endurance, de même qu'elles ont ébranlé le mode de construction des maisons, adapté à leurs conditions naturelles de vie, à leurs besoins et à leur goût. Elles ont provoqué des déplacements par vagues successives vers les centres urbains de la côte, où il est plus facile de trouver du travail et une école pour les enfants, créant ainsi des groupes superficiellement enracinés dans leur environnement, et ne se reconnaissant réellement ni comme ruraux, ni comme citadins. Elles ont livré aux maîtres et aux agents de la société de consommation des générations de jeunes qui ont cru trouver leur vocation dans la recherche de l'enrichissement rapide, de la vie aisée et facile, et dans l'aventure. Et, par là, elles ont aggravé le problème, déjà considérable, de l'émigration.

Il y a émigration temporaire et émigration définitive. Les Libanais connaissent bien les deux. Certains pensent que l'émigration est une constante libanaise, qu'elle fait partie de l'identité libanaise, et que, par conséquent, il faut l'organiser dans le cadre d'une politique générale de l'Etat et non dans le cadre d'un ministère des Affaires Etrangères. Mais pourquoi l'émigration est-elle un problème au Liban? Pourquoi serait-elle liée à son identité? Pour répondre à ces deux questions, il faut se rap-

La libre circulation des hommes et des marchandises et la polarisation sur la Capitale ont certainement augmenté le pouvoir unificateur de l'espace étatique libanais. Mais l'intégration d'espaces naguère éloignés les uns des autres dans une économie dominée par l'activité marchande ne peut que se répercuter négativement sur le rapport traditionnel à la terre. La domination de l'activité marchande dans l'espace étatique libanais a contribué au décloisonnement et à la mobilité des groupes, à l'émergence de nouvelles solidarités socio-économiques, au renforcement de certaines qualités psycho-sociales comme la souplesse, la modération, l'habileté et l'ouverture à l'étranger. Mais elle a créé, en même temps, les conditions favorables à la transformation de la terre en marchandise et à l'exploitation mercantile de l'espace.

Il est vrai que la mentalité mercantile n'a pas attendu la création du Grand-Liban pour prospérer à Beyrouth, à Saïda, à Tripoli, et dans les autres petites cités de la côte libanaise. Mais, tant qu'elle était limitée à certaines couches de la population urbaine, ses effets sur le rapport collectif à l'espace étaient eux aussi relativement limités. Et c'est justement ce caractère limité de l'influence de la mentalité mercantile que la domination de l'économie marchande dans l'espace étatique libanais a transformé en caractère général pénétrant tous les espaces et toutes les couches de la population libanaise. Et les effets néfastes, directs ou indirects, de cette transformation n'ont épargné aucun coin du territoire libanais.

L'absence d'une politique générale, à long terme, d'exploitation de l'espace et d'aménagement du territoire explique le désordre qui marque le développement de l'habitat dans les milieux urbains et leurs alentours. Mais elle a elle-même besoin d'être expliquée. Pourquoi les autorités politiques et municipales n'ont-elles jamais songé à établir des plans généraux d'aménagement du territoire en fonction des données démographiques de la population et de ses besoins économiques, éducatifs et sociaux? Une série de raisons peut être avancée. Mais la plus importante, nous semble-t-il, c'est la domination générale de la mentalité mercantile qui n'est que l'aspect psycho-économique du système d'économie marchande dans lequel les Libanais ont investi leur génie. La valeur fondamentale pour la mentalité mercantile, c'est le profit commercial immédiat ou à court terme. Appliquée à l'exploitation de l'espace, une telle mentalité transforme l'espace en simple marchandise et réduit le rapport à l'espace à un rapport de profit commercial, soumis aux fluctuations de l'offre et de la demande, et aboutit en fin de compte, à l'affaiblissement de la fonction de l'espace comme milieu vital et comme patrie inaliénable.

Ainsi, la plaine côtière, naguère célèbre par ses jardins d'agrumes, a été complètement dévastée ou presque par une frénésie d'investissements dans la construction de gros immeubles à vendre ou à louer; la belle plage sablonneuse a été confisquée, ou polluée, ou polluée, ou exploitée par des particuliers soucieux de doubler ou de tripler leurs capitaux plus que d'améliorer les conditons du tourisme ou du repos au bord de la mer; toute la montagne a été affectée par les consé-

culturel. Autrement dit, c'est en tant qu'espace pluridimensionnel à plusieurs niveaux, que l'espace étatique libanais intervient dans la formation de l'identité libanaise et dans l'orientation de son dynamisme.

Assurément, le premier effet de l'espace étatique libanais est le renforcement chez les Libanais, quoique d'une façon inégale, du sentiment d'appartenance à un même pays et à une même société. N'ont-ils pas le même dialecte et la même langue? Ne sont-ils pas tous plus ou moins concernés par l'expérience libérale que cet espace leur offre? Ne sont-ils pas engagés dans un même destin, en dépit de leurs divisions ou de leurs divergences? En principe, la fonction fondamentale de l'espace étatique libanais est de servir de matrice à la formation de l'identité libanaise en tant que communauté nationale moderne. Mais dans quelle mesure la description dialectique de l'action concrète de cet espace et de la réaction concrète de ses habitants permet-elle de montrer cette fonction à l'œuvre dans l'histoire concrète du Liban?

Au niveau de ses systèmes fondamentaux, cette histoire concrète est traversée par des orientations incohérentes, voire contradictoires. En effet, le système socio-politique de l'espace étatique libanais ne correspond que partiellement à son système socio-économique. Celui-ci est entièrement libéral, unitaire, dominé par son secteur marchand, et ouvert à l'avenir; celui-là est composé de deux régimes hétérogènes: le régime démocratique libéral et le régime confessionnel.Bien qu'il ne soit pas fondé sur des bases territoriales, ce dernier rappelle au citoyen libanais, par le biais de sa carte d'identité et de la loi électorale, qu'il est lié à son lieu d'origine et à sa communauté confessionnelle. Qu'il se déplace autant qu'il veut et qu'il habite là où il veut, il ne peut politiquement quitter son lieu d'origine et son espace confessionnel. Ainsi, la fonction unificatrice de l'espace étatique libanais se trouve soumise à une série de blocages qui freinent le mouvement de brassage favorisé par son système économique. Pis encore, ces blocages ont indirectement permis au rapport socio-économique libéral à l'espace de se développer sous ses formes irrationnelles et opposées à l'intérêt national.

Dans la mesure où l'identité unitaire d'une société dépend de la maîtrise qu'elle exerce sur les distances qui séparent ses groupements régionaux, on peut dire que le développement de l'identité unitaire du Liban doit beaucoup au réseau de communications établi entre ses espaces périphériques et l'espace urbain de sa Capitale. Avant 1920, ces espaces périphériques avaient plus de relations et d'échanges avec leur hinterland qu'avec Beyrouth. Mais, depuis leur intégration au Grand-Liban, ils n'ont cessé d'intensifier leurs relations avec Beyrouth, et de se structurer en fonction de sa puissance économique, politique et culturelle. Le mouvement de population qui a accompagné ce changement s'est traduit par une profonde transformation des conditions de vie des habitants des zones périphériques, et par un exode rural massif qui a grossi d'une façon désordonnée les principaux centres urbains, et hypertrophié la Capitale et sa banlieue.

que. Car l'espace de la société libanaise que nous étudions, c'est l'espace de l'Etat libanais, tel qu'il a émergé en 1920. Ce n'est pas un espace géographique qui s'impose comme un bloc nettement distinct; c'est plutôt un espace géopolitique, un espace étatique, historiquement déterminé et déterminant. C'est pourquoi, il paraît plus logique de subordonner l'étude des rapports entre les espaces et les identités collectives au Liban au point de vue géopolitique.

Certes, la dimension historique profonde de ces rapports est, en quelque sorte, incontournable. Pour être fidèle au mouvement total de leurs structurations successives, il faudrait remonter, par-delà la conquête arabo-musulmane, aux Anaméens et aux Cananéens. Il faudrait surtout tenir compte de la période qui s'ouvre au XVème siècle avec la conquête ottomane, et qui se déploie dans le cadre d'un Emirat relativement autonome. Le Liban contemporain, qui s'est formé en 1920, est fortement tributaire du Liban moderne. Mais on ne peut saisir réellement la dynamique propre de la dialectique des espaces et des identités collectives dans le Liban contemporain, si l'on ne voit dans celui-ci que le prolongement un peu modifié du Liban moderne, si l'on ne perçoit pas l'effet de rupture opéré par la création de l'Etat du Grand Liban en 1920. En effet, à partir de cette date, les rapports entre les espaces et les identités collectives se déploient à l'intérieur et en fonction d'un espace nouveau, bien différent de l'espace de la Mutaçarrifiya et de celui de l'Emirat, un espace étatique, internationalement reconnu, groupant sous un pouvoir central des régions qui s'étaient rarement senties solidaires les unes des autres, et se présentant sur la scène régionale comme un cadre, un théâtre et un enjeu. C'est donc de cet espace qu'il convient de partir pour comprendre la dynamique propre de la dialectique des espaces et des identités collectives dans le Liban contemporain.

Espace de petite taille (10452 Km2), comparativement bien peuplé (300 h/ Km2), l'espace étatique libanais jouit d'une grande importance stratégique à cause de sa situation et, aussi, à cause de son site. Mais, du point de vue de la géographie sociale, il est loin d'être simple et homogène. Il se présente comme un système d'espaces distincts, et plus ou moins liés les uns aux autres.

Deux couples de concepts sont nécessaires pour rendre compte de ce système: le couple espace central-espace périphérique et le couple espace urbain-espace rural. En effet, Beyrouth, avec sa banlieue et toute la région qui l'entoure, et qui correspond en gros à la partie centrale du Mont-Liban, fonctionne comme un espace central entouré de trois espaces périphériques, le Liban-Nord, le Liban-Sud et la Békaa. Et chacun de ces espaces fonctionne comme un espace urbain entouré d'un espace rural. Tripoli, Saïda et Zahlé jouent, à l'échelle régionale, le même rôle que joue Beyrouth à l'échelle nationale. Il y a, bien sûr, des différences entre les fonctionnements de ces espaces, qui résultent des différences entre leurs structures géographiques et démographiques propres. Mais l'essentiel, c'est qu'ils forment ensemble un seul espace géopolitique, et simultanément un seul espace économique et un seul

économie, à son système d'éducation et à son système politique,et qu'ainsi le groupe occupe et modifie l'espace et projette dans l'espace l'image qu'il a de son identité. Mais ces généralités n'ont de signification réelle que lorsqu'elles renvoient à des situations concrètes et à des cas concrets. Car il s'agit essentiellement du rapport collectif à l'espace, et tout rapport collectif à l'espace dépend de la nature spécifique de la collectivité qui établit ce rapport et des caractères spécifiques de l'espace en tant que cadre physique, quantité exploitable et enjeu stratégique. Le rapport à l'espace dans une société nationale industrialisée ne peut évidemment pas avoir le même contenu concret que le rapport à l'espace dans une société agricole ou dans une société nomade. La sociologie historique des identités collectives, considérées du point de vue de leur rapport à l'espace, doit naturellement mettre l'accent sur les différences structurelles et fonctionelles qui existent entre ces identités; mais elle doit aussi situer ces différences dans le processus des transformations de l'histoire. Le rapport collectif à l'espace est un rapport eminemment historique.

Dans la présente étude, nous essayons de mettre en relief certains aspects fondamentaux de la dialectique des identités collectives et des espaces dans la société libanaise. En centrant notre enquête et notre réfléxion sur le cas du Liban, nous entendons, bien sûr, contribuer à l'élaboration concrète d'un certain nombre de notions théoriques nécessaires pour l'élargissement et l'enrichissement de la psycho-sociologie de l'espace; mais en même temps nous entendons aider à la compréhension d'une expérience historique particulièrement intéressante pour la théorie et l'action politiques.

II - Espace étatique et Identité libanaise

Du point de vue de la géographie pure, l'espace occupé par la société libanaise se présente, en gros, comme un champ serré de contrastes exceptionnels, avec une chaîne de hautes montagnes qui plonge dans la méditerrannée orientale, une plaine côtière plus ou moins étroite, et, à l'Est, une plaine qui ressemble à un large corridor entre deux chaînes de montagnes.

Il serait tentant de partir de ces données pour voir comment et dans quelle mesure le milieu géographique influe sur les structures de la société libanaise, façonne le mode de vie et le comportement des Libanais, et détermine chez eux un certain nombre de traits plus ou moins profonds. N'a-t-on pas suivi, avec plus ou moins de bonheur, une démarche de ce genre, dans l'étude de sociétés proches du Liban, comme l'Egypte et Chypre? Mais, malheureusement, le Liban n'est ni une société fluviale comme l'Egypte, ni une société insulaire comme Chypre. Son espace géographique n'est séparé de son environnement par aucune grande frontière naturelle. S'il possède indéniablement des caractèristiques exceptionnelles pour son environnement, en revanche, il ne se laisse penser dialectiquement qu'en termes de géopoliti-

que occupe une bonne place, aussi bien dans le fonctionnement interne des identités collectives que dans les rapports dialectiques qui les mettent les unes en face des autres, ou qui les enracinent dans des espaces géographiques déterminés. Les groupes sociaux historiquement constitués sont des collectivités relativement stables et objectivement désignables. Mais la perception et la reconnaissance de leurs caractères distinctifs, dont certains sont psychologiques, interviennent comme moments essentiels dans le processus de structuration et de transformation des sentiments d'appartenance et de non-appartenance de leurs membres. L'identité collective des membres d'un groupe social historiquement constitué est un phénomène à la fois objectif et subjectif, un phénomène dynamique en perpétuelle tension et, conséquemment, en perpétuelle interprétation. Car il ne suffit pas que des individus soient unis par un lien objectif, racial ou géographique ou politique ou économique ou culturel, pour qu'ils portent une identité commune. Il faut que ces individus assument, consciemment et inconsciemment, leur rapport à ce lien et agissent ensemble conformément à ses implications, dans des circonstances en perpétuel changement.

Comparé aux autres facteurs de détermination des groupes sociaux historiques et des identités collectives, l'espace peut paraître un facteur extérieur et un peu secondaire. Négligé par la sociologie historique, en réaction aux vieilles doctrines du déterminisme géographique, il réapparaît de nos jours comme un des facteurs essentiels de la formation et de la transformation des rapports sociaux, interindividuels et intercollectifs. Certes, le renouvellement de la problématique Homme-Environnement a amené les psychologues et les écologistes à remettre en valeur le concept d'espace habité. Mais, en fait, toutes les disciplines qui touchent, de près ou de loin, à la question de l'édification du monde social de l'homme reconnaissent l'importance de l'espace comme matrice de l'existence sociale et comme médiateur de l'organisation sociale. En tant que lieu et en tant que milieu, l'espace forme et transforme les rapports interindividuels et les collectivités. Mais, en tant qu'objet de l'activité humaine, il est construit, formé et transformé, par la production sociale de l'homme. Et c'est à ce double titre qu'il intervient dans la dynamique des identités collectives.

Quelle est exactement l'effet de l'espace sur l'identité collective? Et quelle est exactement la réaction de l'identité collective aux déterminations de l'espace? A ces deux questions, on peut répondre par un certain nombre de généralités. On peut dire, par exemple, que l'espace, dans la mesure où il comporte un dehors et un dedans, limite et protège l'identité d'un groupe social et lui donne une certaine garantie de permanence. On peut dire également que, grâce aux données combinées de ses dimensions, de son site et de sa situation, il façonne les traits physiques, caractériels, psycho-économique et psychosociaux des membres du groupe qu'il protège et la qualité de leurs rapports avec le monde environnant. Dans un sens inverse, on peut avancer que les possibilités offertes par l'espace sont soumises aux valeurs du groupe et à ses moyens, à ses croyances et à ses savoirs, à sa démographie, et à son

ESPACES ET IDENTITES COLLECTIVES AU LIBAN

Nassif Nassar*

I - Introduction

L'étude des rapports entre l'espace et les identités collectives déborde les limites de la psychosociologie de l'espace, telle qu'elle est présentée par les psychologues sociaux, notamment par Gustave Nicolas Fischer. Elle relève plutôt du champ interdisciplinaire commun à la sociologie ou à l'anthropologie et à la géographie ou à l'écologie. Mais elle ne saurait se détacher totalement de la psychosociologie de l'espace. Car la question des identités collectives comprend des aspects psychologiques, comme la perception, la représentation et la mentalité qui ne peuvent être adéquatement abordés par la géographie sociale ou la sociologie géographique.

En effet, si nous définissons l'identité collective comme un ensemble de traits communs aux membres d'une société ou d'un groupe social historiquement constitué, et plus ou moins, perçus et reconnus comme déterminants et révélateurs de leur appartenance à cette société ou à ce groupe, il apparait que la dimension psychologi-

* Professeur à l'Université Libanaise

THE UNICORN s.a.r.l

Un plaisir nouveau dans l'écriture

WRITES FOR 2000 METRES
ECRIT 2000 METRES
SCHREIBT 2000 M
GUARANTEE
EVEN AFTER 3 YEARS
MEME APRES 3 ANS
AUCH NACH 3 JAHREN

tratto

porte la date de fabrication
garantie d'utilisation après 3 ans

A TRATTO CLIP
B TRATTO MIX
C TRATTO MARKER
D TRATTO GIOVANE
E TRATTO VIDEO GIOVANE
F TRATTO VIDEO
G TRATTO PEN

THE UNICORN
BEIT-MERY:
970716 - 717

Sodeco: Tel: 219462
Fanar: Tel: 897 680 - 899 020 -
Telex: UNICOR 43219 LE -
P.O.Box: 11-3045
Beirut - Lebanon

10 Karat Rolled Gold

RUE MAY ZIADEH

Tél.: 362354 — 362338
368846 — 362063

FANAR:
(01) 899020-1-2-3
B.P.11-515-Telex: 20231
BEYROUTH — LIBAN

MERCURY. S.A.L

The beauty and enduring value of gold are enhanced by renowned Cross craftsmanship. Writing instruments of superb quality, affordable to wear.

4501 Ball Pen and Pencil Set
4502/4503 Ball Pen or Pencil
4505 Selectip Pen
4515 Ball Pen, Pencil, and Selectip Pen
4525 Ball Pen and Selectip Pen

CROSS
SINCE 1846

Gift packaging shown: 4501 Ball Pen and Pencil
4505 Selectip Pen

«Défense Nationale Libanaise»... à nouveau

Il était prévu que l'année 1990 ne s'achèverait pas sans la parution du numéro quatre de «Défense Nationale Libanaise» et sa diffusion sur le marché, au moment même où nombre de lecteurs nous contactaient pour s'enquérir du retard apporté à la publication de leur jeune revue à laquelle ils s'étaient habitués. La raison de ce retard était bien naturelle et rationnelle quand on se rappelle ce qui s'était passé avant l'année nouvelle et l'état d'anxieté et d'hésitation qui a prévalu dans la nation, se répercutant avant toute chose sur ceux qui écrivaient pour notre revue et retardant, dès lors, la remise des sujets prévus et donc sa parution.

L'important est que le numéro quatre se trouve maintenant entre vos mains, cher lecteur; et, plus important encore, la marche de la pensée se poursuit, hésitante mais sans arrêt, se refermant sur elle-même mais ne tardant pas à se redresser vivement pour reprendre la marche à nouveau.

La Rédaction

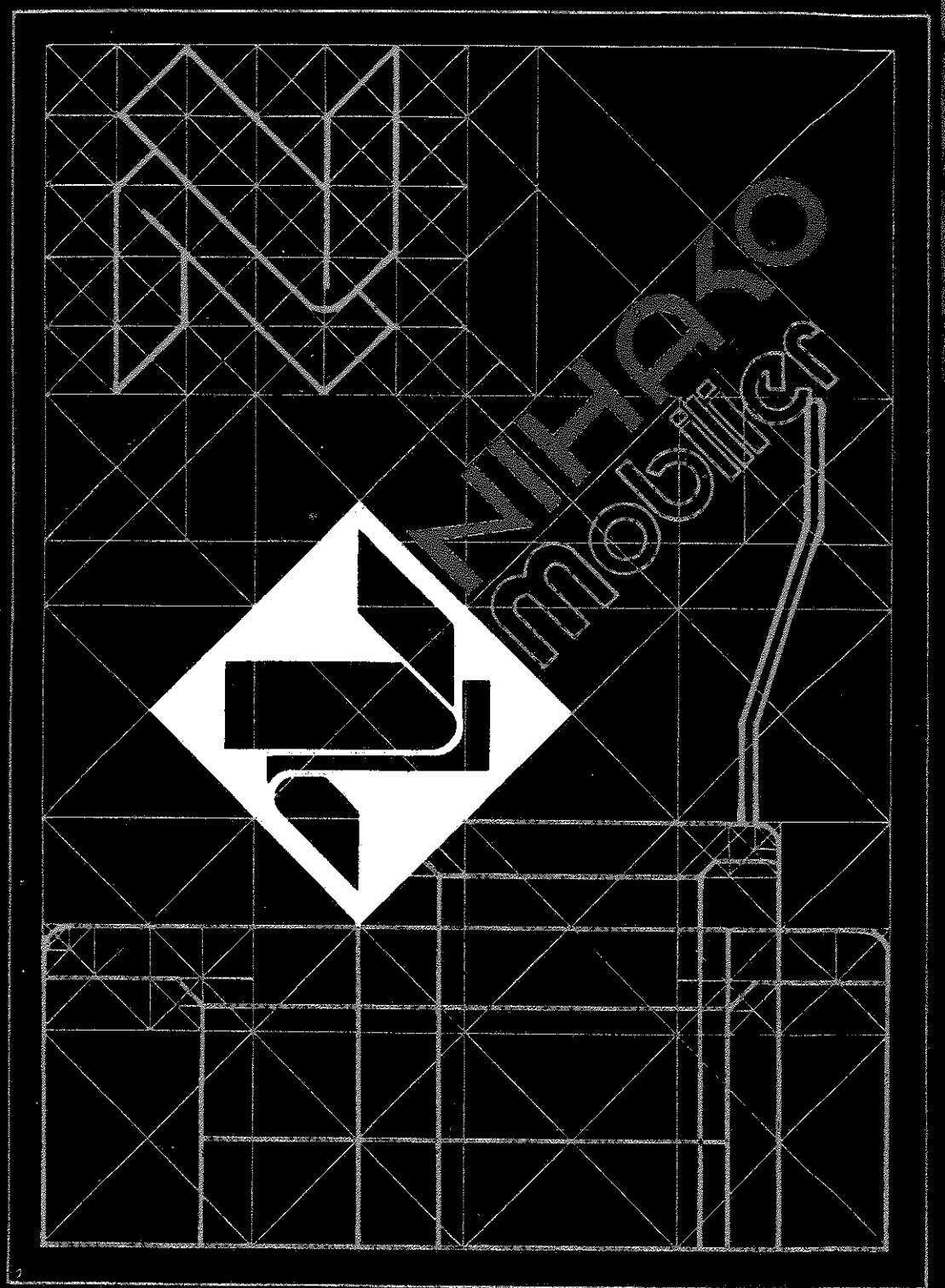

MEUBLES - DÉCORATION

Tél. : 411484 - 412755 - Autostrade Antelias - B. P. 70289 - Liban - Téléx 40536 LE

DEFENSE NATIONALE LIBANAISE

LEBAN LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE

DEFE NATIONAL LEBANESE NATIONAL DEFENCE

NAT

LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE

LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE

L DEFENCE LEBANESE NA

AL DEFENC LEBANESE TIO